ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
تقديم
الفصل الاول : خطوات ثلاث على الطريق الانقلاب
الفصل الثاني : الدعوة والحرب والسياسة
الفصل الثالث : الاقتصاد والمال
الفصل الرابع : الادارة والتخطيط
الفصل الخامس : التربية والتثقيف
ختام الرحلة
معالم على الطريق
فهرس باهم المصادر

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ... } النور٥٥

صدق الله العظيم

أتأذن لي

يا خامس الخلفاء الراشدين

أن اتقدم بتجربتك العظيمة هذه الى أبناء جيلي ؟!

بسم الله الرحمن الحريم

تقديم

يقدم التاريخ الاسلامي خبرات خصبة للباحثين والدعاة ليس، فقط لكونه ينطوي على حشود من التجارب ، ومحاولات ((تعديل الوقفة)) بالكلمة والتوجيه حينا، وبالممارسة والفاعلية حينا آخر، وبالثورة والانقلاب حينا ثالثا، وانما لتميزه الذي ما شهده تاريخ اية امة او حضارة في الارض بهذا التوازي، او اللقاء بشكل ادق، بين الظاهر والباطن، وبين المنظور والغيب، حيث يصير الوحي والوجود معا قطبا البدء، والتشكّل، والصيرورة.

وهذا بطبيعة الحال يقتضي منهجا في التعامل مع الواقعة الاسلامية يضع في حسبانه منذ اللحظات الاولى هذين المؤثرين، والا حكم على نفسه وآلياته بالتغرب والعجز وسوء الفهم وضياع الوسائل الصحيحة الموصلة الى الاهداف او المقاربة لها في اقل تقدير.

وهذا – بالذات – هو الخطأ القاتل في معظم المحاولات التي نفذها الدارسون من خارج دائرة ((الاسلامية)) بل من داخلها في بعض الاحيان.

وسواء كان البحث في التاريخ الاسلامي يتعامل مع ظاهرة ما .. مع حدث او واقعة او علاقة او تشكيل سياسي، او خبرة حضارية او يدرس شخصية ما فيما يسمى بالسيرة والترجمة، فان البداية الصحيحة هو ان ينفتح المنظور لكي ينطوي على العاملين ذاتهما اللذين كان تاريخنا الاسلامي ينبض بهما، ويتشكل، ويصير : الوحي والوجود.

وتجربة عمر بن عبد العزيز، على مستوى شخصانيته او دوره التاريخي على السواء، اسوة بالعديد من التجارب التي يزخر بها هذا التاريخ، لن يتأتى فهمها ومحاولة التعرف عليها، بعيدا عن البيئة التي تشكل فيها الرجل، وهي بيئة اسلامية على وجه التحديد، بمعنى انها بيئة يصير فيها الدافع العقدي نقطة الارتكاز والحركة في مسلسل الافعال وردودها، وهذا يتطلب صيغة في التعامل المنهجي تتميز بقدر كبير من انفتاح الرؤية، وعدم التشنج على المساحات الضيقة، او الدوافع المحدودة، من اجل ان تصير كفؤا للخبرة التي صاغها ذلك اللقاء المرسوم الذي اراده الاسلام منذ لحظات التكوين الاولى : بين السماء والارض.

ان تاريخنا بأحداثه ومعطياته وشخوصه انما هو وليد شبكة معقدة من الدوافع والمؤثرات التي تنضفر في نهاية الامر في السياقين المذكورين. انه نتاج كل القوى والعوامل والطاقات التي اودعها الله في الكون والعالم، ومنحها الانسان، وان من شأن أي منهج يغفل جانبا من هذه العوامل ان يصل الى نتائج خاطئة ولا ريب.

***

اعتمد البحث قدرا ملحوظا من التقنيات الجمالية في المعالجة التاريخية، ولكن ليس – أبداً – على حساب العلم والموضوعية. وهذا يبدو واضحا في التزام الطريقة المتبعة في ذكر المصادر والمراجع في كل صفحة، وعدم تجاوز وتوثيق أية ((معلومة)) في مكانها من السياق. هذا فضلا عن اعتماد خطة مرمسومة في تقسيم البحث الى فصول تناولت في كل واحد منها جانبا من اجراءات عمر السياسية او العسكرية او الاقتصادية او الادارية او الثقافية.

ان العديد من الدراسات التاريخية الحديثة تتطرف صوب (النصّية) فتملأ صفحات فصولها بالهوامش التي لاحصرلها، فتثقل على القارىء ، وتختنق معها المتون نفسها، وتسعى الى تكديس النصوص تكديسا اليا لا يتحقّق معه ايما قدر مناسب من الحضور الفاعل للمؤلف نفسه.

ودراسات اخرى انحرفت صوب الاتجاه المضاد .. نقرؤها فلا نكاد نعثر على اشارة الى مصدر واحد مما اعتمد عليه الباحث، وهو حتى في حالة ايراده لا يكلف نفسه عناء تحديد المكان الذي اقتبس منه النص .. وهذا ولا ريب يضعف الثقة في بحوث كهذه ويعرض نتائحها للشك، بل انه قد يمضي بها صوب النوع الادبي الذي تتضخم فيه الذات على حساب الموضوع فلا يكاد يغني عن البحث العلمي الجاد شيئا.

والحل الوسط انما هو السعي لاحداث توازن في شتى مطالب البحث التاريخي : توازن بين المتون والهوامش، توازن بين مساحات الفصول، وآخر بين التحليل وبين النقل والاقتباس ، واخيرا بين جمالية التعبير وبين التركيز والجد والعلمي وعدم الخروج عن وحدة الموضوع.

الموصل : عماد الدين خليل

الفصل الاول

خطوات ثلاث على طريق الانقلاب

(١)

التجرّد المدهش

" ان لي نفسا تواقة، لم تتق الى منزلـة،

الا تاقت الى ما هي ارفع منها، حتـــى

بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدهـــا

منزلة، وانها اليوم قد تاقت الى الجنـــة !!

عمر بن عبد العزيز

كثيرون هم اولئك الذين رحلوا، في يوم من ايام العمر، في ساعة من ساعات الوعي العميق، في لحظة من تلك اللحظات التي تتمزق فيها الحجب عن المعاني والاشياء، فتبدو اشد نضارة واعمق مغزى .. كثيرون هم اولئك الذين رحلوا، صاعدين هابطين، منحنى حياتهم، ليصلوا الى اهدافهم المنشودة التي بعثهم اليها ذلك اليوم الفريد من ايام العمر، كاشفا امامهم القيم والاقدار .. كل منا، احس، وهو يصل قمة المنحنى، عبث حياته الماضية، وتفاهة ايامه الخاوية، وسخف ملايين من اللحظات التي عاشها، قبل الرحيل، وقبل ان يعبر حدود ذاته المغلقة على المظاهر والتكرار واللامسؤولية، مجتازا الثغور الى مصيره العظيم ..

ومن ثم تختلف الرحلات .. فمن الناس من يرحل من الخارج الى الداخل ليكشف عالمه الذاتي، ويشده الى ما يسعده ويمنيه. ومن الناس – وهنا تبدو الروعة والماساة في وقت واحد – من يرحل من الداخل الى الداخل، على منحنى صعب، لان الرحلة هذه ليست رحلة خطوات على الارض، ولكنها رحلة روح واعصاب، على مساحات الوجدان. والانسان العظيم هو الذي يبلغ قمة المنحنى وراسه دائما الى فوق، واعصابه دائما مشدودة، مشيحا عن كل الاغراءات، التي تبرز هنا وهناك، معرضا – ببطولة – عن كل النداءات التي تدعوه الى الرجوع والانحدار ثانية الى اسفل المنحنى حيث يطفو الانسان – خارج حدود ذاته – على المظاهر والتكرار واللامسؤولية.

في رحلة كهذه يهيء الله (سبحانه وتعالى) للبصيرة النافذة وعيا ابديا دفاقا، وارادة حديدية قاطعة، وقولا فصلا في لحظات الاختيار المخيفة، وسماحة ونبلا لا حدود لهما في الايام التي يجد الانسان نفسه فيها مدفوعا دفعا الى القتل وسفك الدماء، في رحلة كهذه – لم تتهيا الا للقلة الفذة – يرنو الانسان الى مصيره عبر مصير امته، بشوق عظيم. ثم اذا بشوقه هذا ينصب كالمطر السخي على رمال الصحراء المحترقة فيحيي الموات، وينشر الخضرة في كل مكان، وينبت اشجارا ظليلة، ممتدة الجذور في اعماق الارض، ومرفوعة الاغصان في اعالي السماوات .. في رحلة كهذه – مصنوعة على عين الله ورعايته – يصنع تاريخ الامم والاجيال، تقام الدول وتشمخ الحضارات، وتذوب كل الالام القديمة في وجدان الامة، وتندمل كل الجراحات المتقرحة في جسد الجماهير ويزول كل عذاب مضن عن ارواحها، وفي رحلة كهذه ينصب العدل والحب على الجميع، فيشدهم، قلبا الى قلب، ووجدانا الى وجدان، فتسقط من ايديهم السكاكين، ويتلاشى من قلوبهم الحقد، ويرفعون اعينهم جميعا، في لحظة جماعية نادرة، الى المثل الاعلى .. سائرين صفا واحدا، وراء الرحالة العظيم الذي استطاع، وهو في قمة منحناه، ان يصنع، في سنتين وخمسة اشهر فحسب، تاريخا جديدا للمسلمين، ان يتصدى، كالطود

الشامخ، لتيار التاريخ الصاخب الدفاق باتجاه لا يرضي الله ورسوله، وان يلوي عنقه ويوجهه وجهة راشدة من جديد، كتلك الوجهة التي تدفق فيها في عهد الرسول العظيم وخلفائه الراشدين ..

اظنكم قد عرفتم من هو الرحالة العظيم هذا .. انه عمر بن عبد العزيز، واظنكم تتساءلون : لماذا عمر ؟ وكثيرون هم الذين بعث الاسلام فيهم تعشقا عجيبا لصعود المنحنى النفسي، عبر الجوع والالم والحزن، الى القمة، مجتازين درجات لا قياس لها من الاسلام والايمان والتقوى .. ثم الاحسان، حيث يتحمل الانسان – وهو هنا في القمة – المسؤولية العظمى التي ابت السماوات والارض ان يحملنها .. الاحسان .. حيث يتصل الانسان بالله، بعد ان يكون الجوع والالم والحزن، قد غسل كل ما يعلق بوجدانه مما لا يؤهله لهذا الاتصال العظيم برب الملكوت ..

كثيرة اذن هي الرحلات التي شهدها تاريخ الاسلام من الخارج الى الخارج ومن الخارج الى الداخل، ومن الداخل الى الداخل .. والحق معكم .. فهي جميعا رحلات فذة في عالم الحركة والعقيدة، وفي عالم النفس والوجدان .. ولابد ان نتملى حقيقتها وابعادها في يوم من الايام .. ولكن هذا !! هذا الانسان الذي عاش مترفا يجر اثوابه على الارض بخيلاء، وتفوح رائحة عطره عبر الطرقات التي يمر بها، ويمشي مشيته (العمرية) التي كانت الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها !! هذا الذي ولد في بيت حاكم، ونشا نشاة الامراء المترفين، والذي ما عرف عنه يوما الا الظرف والاناقة في اللباس والمظهر .. هذا الذي كانت الحلة تشترى له بالف دينار، فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها!! هذا الذي كان يتاخر احيانا عن الصلاة لكي تتم مرجلته تصفيف شعره، والذي كان العنبر يرى على لحيته كالملح !! هذا الذي كانوا يقولون عنه انه احسن الناس لباسا، واطيب الناس ريحا، واحفل الناس في مشيته!! هذا الذي بلغت غلته اربعين الف دينار في السنة، والذي كان يقول : لو ضافني اهل قرية لوجدت ما يعمّهم .. هذا الذي وصف بانه كان من اعظم الامويين ترفها وتملكا، وانه غذي بالملك ونشا فيه .. هذا الذي عرف انه (شامة بين الناس) وحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون .. هذا الذي كان يقول : لقد خفت ان يعجز ما قسم الله لي عن كسوتي، وما لبست ثوبا قط فراه الناس الا خيل الي انه قد بلي !! هذا الذي فتح خلفاء كبار طريق الحياة والنعمة واسعا عريضا امام شبابه الدافق الزاهي الريان .. هذا الرجل يقفز في لحظة من نعمائه هذه، ومن زهوه، وترفه هذا، ومن الطريق الذي تملؤه الروائح العطرة والجواري والالوان .. الى قمة منحنى حياته العظيمة، ويحمل مسؤوليته الثقيلة ببطولة لم يشهد لها التاريخ الا في القليل النادر، نظيرا في يوم من ايامه الطويلة الحافلة.. انظروا :

ها هو، بعد ان ينتهي من خطبته الاولى اثر تسلمه الخلافة، يهم بمغادرة المسجد لمباشرة مهام منصبه التي لا تنتهي، فاذا بموكب الخلفاء ينتظره عند الباب اشبه بالمهرجان .. خيول ومراكب وسرادقات وفرسان .. وألوان وصخب .. فيشيح عن هذا كله ويقول : ائتوني ببغلتي !! ويتقدم اليه اصحاب المراكب يسالونه العلوفة وارزاق خدمة الخيول فيجيبهم: (ابعثوا بها الى امصار الشام يبيعونها فيمن يريدون، واجعلوا اثمانها في مال الله، تكفيني بغلتي هذه الشهباء !!)[١].

ويجتاز الطريق، من المسجد صوب الدار، فاذا بالطريق مغطى بالفرش والسجاد الثمين الذي لم يستعمل من قبل، والذي كان من تقاليد بني مروان ان يضعوه لكل خليفة جديد كي تطاه قدماه اول ما تطا، فجعل عمر يركله برجله، حتى يفضي اخيرا الى الحصير، ويلتفت الى مزاحم مولاه قائلا : ضم هذا لاموال المسلمين!![٢].

ويتقدم اليه اهل سليمان بن عبد الملك، مشيرين الى مخلفات سليمان في دار الامارة وقائلين : هذا لك وهذا لنا !! فيسالهم عمر : وما هذا وما هذا ؟ فيقولون : هذا مما لبس الخليفة – السابق – من الثياب، ومس من الطيب فهو لولده، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده، وهو لك .. فيجيبهم عمر بالقول الفصل : ما هذا لي ولا لسليمان ولا لكم، ولكن .. يا مزاحم ضم هذا كله الى بيت مال المسلمين!![٣].

لقد تغيرت سيرته، ساعة تحمله المسؤولية، فكانه لا يتصل بماضيه وذكرياته ولا بابائه واهله بصلة، ولا يعرف غير جده عمر اسوة له : رد الجواري الى اهلهن وبلادهن، ورد المظالم، والغى المجالس التي اشبهت مجالس الاباطرة، وتمسكت بسنن كسرى وقيصر، الى بساطتها الاولى ووضعها الاسلامي، فنهى عن القيام له، وابتدا بالسلام واباح دخول المسلمين عليه بغير اذن[٤].

والآن، تعالوا معي لندخل بيت عمر بن عبد العزيز، لنرى حياته الداخلية عن كثب، ولنبحث عن الخيط الذي يشد حياته الجديدة هذه بحياته القديمة وذكرياته. وعبثا بحثنا عن هذا الخيط .. ان عمر قد اجتاز مسافة شاسعة في اعماق نفسه وهو يصعد المنحنى، وخلف وراءه امالا جمة وترفا واسعا ونعيما وملكا كبيرا .. وها هو الان في القمة وكانه ليس ذاك .. ويقينا انه

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص١٥٣.

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص٣٩.

(٣) المصدر نفسه ، ص٣٩-٤٠.

(٤) الندوي : رجال الفكر والدعوة في الاسلام ، ص٣٢-٣٣.

ليس ذاك. ان تجربته النفسية قد صيغت من جديد على عين الله ورعايته، وتمزقت كل الخيوط التي تربط دائما وحدة الانسان النفسية وتشده الى منحدرات ماضيه.

ان الشاب الذي كان يرفض هناك حلة بالف دينار، لان خشونتها تؤذي مس بشرته الطرية، نجده هنا، ماذا ؟ انظروا : ها هم المصلون – يوم الجمعة – ينتظرون خليفتهم ليلقي خطبته عليهم .. المسجد مكتظ بهم، والافواج التي جاءت متاخرة بعض الوقت لم تجد لها مكانا الا في الشوارع والطرقات المحيطة بالمسجد .. وعمر لم يات بعد .. انه لا زال غائبا عن الاف العيون المترقبة التي تنتظر كلمات صانع التاريخ الجديد، كما ينتظر العطشى، في الارض المجدبة، قطرات المطر وقطع السحاب .. ثم ..

ها هو عمر ياتي، وقميصه لما يجف بعد .. ويعتذر للمنتظرين انه اضطر الى هذا التاخر انتظارا لقميصه الوحيد ان يجف .. وانظروا : ها هن بناته يقبلن كارهات على الطعام، الذي ظل يتكرر عليهن حتى عافته انفسهن عدس وبصل ويعرف عمر – باحساسه الرقيق العميق – كم هي مرة هذه القسوة التي سلطها على بناته اختياره لحياة جديدة مسؤولة، صعبة قاسية، فيبكي .. (يا بناتي ما ينفعكن ان تتعشين الالوان، ويمر بابيكن الى النار ؟)!!

ونظل مع عمر في بيته لنطلع – عن كثب – على جوانب اخرى من الحياة الداخلية لاكبر حاكم في الارض، ونرى رغباته الذاتية، وسلوكه الشخصي، بعيدا عن منصب الخلافة العظيم ..

ها هو موسم الحج قد اقبل .. والمسلمون بداوا رحلتهم الى بيت الله الحرام من كل مكان، وعلى كل ضامر، وعبر كل فج عميق. ويتخيل عمر نفسه واقفا على عرفات جنبا لجنب مع الملايين من ابناء امته .. حفاة عراة، متجردين امام الله الواحد القهار .. متذكرين – بشوق وخوف – اليوم الاعظم الذي سيقفون فيه هكذا امام الله ليوفيهم حسابهم. وهو هو المشهد الذي ما فارق حس عمر لحظة من زمن خلافته ومسؤوليته .. ثم يتخيل نفسه يطوف حول الكعبة متنكبا خطى الرسول الشريفة .. ثم ما يلبث ان يرى نفسه في المسجد النبوي في المدينة، ذارفا دموع الشوق عند قبر جده ابن الخطاب .. ولكن خيال عمر سرعان ما يصطدم بالواقع القاسي .. فمن اين لديه المال الكافي ليحج به ؟ ويسال مولاه :

– اني قد اشتهيت الحج فهل عندك شيء ؟

– بضعة عشر دينارا !!

– وما تقع مني ؟

وتمر لحظات حزينة يلتفت بعدها مولاه قائلا :

– يا امير المؤمنين ! تجهز فقد جاءنا سبعة عشر الف دينار من بعض مال بني مروان..

فيرد عليه عمر دون تمهل ولا تردد، كابتا شوقه في زاوية من زوايا وجدانه المفتوح :

– اجعلها في بيت المال : فان تكن حلالا فقد اخذنا منها ما يكفينا، وان تكن حراما فكفانا ما اصبنا منها !!

وانى لعمر ان يحج .. ومن اين له ان يجمع المال الكافي لرحلته هذه، بينما نفقته اليومية لا تزيد على درهمين !![٥].

وينظر يوما فيرى لدى زوجته – فاطمة بنت عبد الملك – عقدا رائعا من جوهر ثمين، لم ير مثله، كان ابوها عبد الملك قد اهداها اياه .. وبدافع من تقوى عمر العارمة، وحرصه العجيب على مصلحة المسلمين، وخوفه الدائم من كل ما فيه شبهة ظلم، يتقدم الى زوجته ليضعها امام لحظة اختيار فاصلة :

– اختاري، اما ان تردي حليك الى بيت المال، واما ان تاذني لي في فراقك، فاني اكره ان اكون انا وهو في بيت واحد !!

– لا .. بل انا اختارك عليه وعلى اضعافه ..

اجابة متوقعة من زوجة عمر بن عبد العزيز الذي سرعان ما يأمر بالعقد فيوضع في بيت مال المسلمين .. وعندما يموت عمر، ويتولى الخلافة من بعده يزيد بن عبد الملك، يقول لاخته فاطمة : ان شئت رددته اليك. لكن فاطمة، هذه الزوجة البرة التي علمها زوجها كيف يكون التطوع والتنازل عن كل ما هو شخصي في سبيل المصلحة العامة، هذه الزوجة الوفية ترد على العرض قائلة : لا والله !! لا اطيب به نفسا في حياته، وارجع فيه بعد موته!![٦].

ومرة، بعثت اليه ابنته بلؤلؤة وقالت له : ان رايت ان تبعث لي باخت لها حتى اجعلها في اذني، فارسل عمر اليها جمرتين قائلا : ان استطعت ان تجعلي هاتين الجمرتين في اذنيك، بعثت اليك باخت لها !![٧].

ونمضي مع عمر في بيته، وخلال حياته الخاصة .. فهنا يمكن ان نجد بوضوح مزيدا من الاشارات على الانقلاب النفسي الذي احدثته هزة العقيدة والمسؤولية والخوف من الله في كيان الخليفة .. فيما مضى كان يستخشن الحلة المشتراة بالف دينار ولا يستحسنها، واليوم

---

(٥) ابن عبد الحكم ، ص٦٢-٦٣.

(٦) المصدر نفسه ، ص٦٢، ابن الاثير الكامل ٥-٤١-٤٢.

(٧) ابن عبد الحكم ، ص١٥٦.

يستلين عمر قميصا بدراهم معدودات[٨]. فيما مضى كانت الروائح والعطور تفوح من ثياب عمر، فتعمر الازقة والطرقات التي يجتازها .. وها هو اليوم يتورع عن شم مسك الفيء !! .. فيما مضى لم تكن قوة في الارض تستطيع ان تجبره على تغيير مشيته المتبخترة، واليوم يذكر بها فيقول : والله ما رايتها كانت الا جنونا !![٩] .. والشاب الذي كانت تساق اليه الوان الاطعمة في الماضي، هاهو اليوم يتورع عن تسخين الماء على مطبخ العامة .. والمترف المدلل الذي كانت الاضواء تغمره فيما مضى، ها هو اليوم يسرع باطفاء الشمعة التي زيتها من بيت المال، اذا شغله احد بالسؤال عن شخصه، كراهة لانفاق مال المسلمين في غير حاجاتهم !![١٠] .. وحاجاتك يا حفيد بن الخطاب .. اليست لك حاجات، وانت اكبر خليفة في الدنيا ؟ ورغباتك الشريفة يا حفيد العادل .. اليست لك رغبات، وانت الذي كنت (شامة الناس) و(فتى بني امية الذي يحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون)؟!

وقبل ان نغادر بيت عمر تعالوا لننظر .. ماذا ؟ ها هو ابنه قد مات، وها هو احد عماله يكتب اليه يعزيه فيه .. ويلتفت عمر الى كاتبه : اجبه عني !! وبينما ينهمك الكاتب ببري القلم استعدادا للكتابة الواضحة العريضة .. يتلقى هذه التعليمات الصارمة من عمر الذي لم تستطع احزان الموت والفراق ان تجعله يغفل لحظة عن مسؤوليته ازاء اموال الامة، وازاء حقيقة الموت : (ارق القلم فانه ابقى للقرطاس، واوجز الحروف واكتب : بسم الله الرحمن الرحيم، اما بعد : فان هذا الامر، امر كنا قد وطنا انفسنا عليه، فلما نزل لم ننكره والسلام)[١١].

***

مئات الامثلة والوقائع والشهادات، يمكن ان نجدها في حنايا البيت الصغير الذي كان عمر يسوس منه الدنيا .. امثلة ووقائع وشهادات على التغيير العظيم الذي شهدته حياة عمر الجديدة بعد الخلافة .. تغييرا ارادياً بداه عمر باعماق وجدانه واخذ يصعد به صوب علاقاته الشخصية وزوجته وابنائه. وبدون هذا التغيير، وهذا التجرد في خلايا النفس، وعلاقات الاهل والولد لا يمكن – باي حال من الاحوال – ان يشهد التاريخ انقلابا حقيقيا عميق الجذور.

مئات الامثلة والوقائع والشهادات، كل واحدة تسند الاخريات وتؤكدها وتقويها .. كل واحدة تناغم الاخريات وتتوافق معها، وتحيل حياة عمر سيمفونية بطولة لم يشهد لها التاريخ مثيلا الا في القليل النادر .. يدخل على امراته يوما ويقول : يا فاطمة، اعندك درهم اشتري به

---

(٨) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ١-٣٣٠.

(٩) ابن سعد : طبقات ٥-٢٧٥.

(١٠) ابن عبد الحكم ، ص١٥٥-١٥٦.

(١١) الطبري : تاريخ ٦-٥٧٥.

عنبا ؟ فتجيب، والدهشة الممزوجة بالاسى ترتسم على وجهها : انت يا امير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري به عنبا ؟! فيجيب عمر، كشانه دائما : هذا اهون علينا من معالجة الاغلال غدا في جهنم[١٢]!!

ويزوره يوما جماعة من بني مروان، فيحبسهم عنده ويقول لخبازه : اذا دعوت بالطعام فلا تعجل به .. ويتعالى النهار .. وبنو مروان قوم لم يعتادوا الجوع .. ويمر الخباز فيقول له عمر : ويحك ائتنا بطعامك !! فيهز الخباز رأسه ويتعمد الابطاء، ويلتفت عمر الى بني مروان قائلا : هل لكم في سويق وتمر ؟ كان الجوع قد بلغ بهم مبلغا لا يطاق .. وانى لهم ان يرفضوا السويق والتمر ؟ فيؤتى به ويلتهمه الجميع بلذة ونهم، وما ان يملاوا بطونهم حتى يجيء الخباز بالطعام .. فيمسكون عن الاكل .. ويبتسم عمر ابتسامة النصر ويسالهم : الا تاكلون ؟ فيجيبون: والله – يا امير المؤمنين – ما نقدر عليه .. ويلح عليهم فيمتنعون، وانى لهم ان ياكلوا وقد اشبعهم سويقا وتمرا ؟! وهنا يكشف عمر عما دعاه الى ذلك كله قائلا : ويحكم يا بني مروان، ففيم التقحم بالنار ؟! ثم يبكي ويبكي معه بنو مروان[١٣]!!. اذا كان الجائعون يستمرئون الطعام البسيط، ويجدون فيه لذة لا تعدلها لذة، ففيم الغلو والاسراف وفيم الترف والنعيم على حساب الاف الجائعين والمحرومين .. وفيم التقحم بالنار ؟! هكذا كان جده ابن الخطاب ياكل الزيت والخبز اليابس، ويصوم عن الطيبات، ويقول ايام المجاعة: كيف يهمني امر الرعية، اذا لم يعنّني ما يعنيهم ؟.

كان عمر بن عبد العزيز يعجبه ان يتادم بالعسل، فطلب من اهله يوما عسلا، فاعلموه ان ليس في البيت شيء منه، ثم ما لبثوا ان جاءوه بمقدار منه، فاكل منه فاعجبه، فقال لاهله: من اين لكم هذا ؟ قالت امراته : بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد فاشتراه. فقال عمر : اقسمت عليك ان تاتيتي به. فجاءته بعكة فيها عسل. فامر عمر ببيعها ورد ثمنها الى بيت المال، ثم التفت الى زوجته مؤنبا : اتعبت دواب المسلمين في شهوة عمر، لو ينفع المسلمين قييء لتقيأت[١٤]!!

وجاءته مرة سلتان من رطب الاردن فقال : ما هذا ؟ قالوا : رطب بعث به امير الاردن. قال : علام جيء به ؟ قالوا : على دواب البريد. قال : فما جعلني الله احق بدواب البريد من المسلمين. اخرجوهما فبيعوهما، واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد[١٥] .. وفي احد الايام

---

(١٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص١٥٥.

(١٣) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص١١٩–١٢٠.

(١٤) المصدر السابق ، ص١٥٨–١٥٩.

(١٥) ابن عبد الحكم ، ص٥٤.

جاءته عمته لتطالب باموالها فراته يتعشى خبزا وملحا وزيتا. فقالت : يا امير المؤمنين، اتيت بحاجة لي، ثم رايت ان ابدا بك قبل حاجتي. قال : وما ذاك يا عمة ؟ قالت : لو اتخذت لك طعاما الين من هذا !! قال : ليس عندي يا عمة، ولو كان عندي لفعلت[١٦].

ومر في احد اسفاره بدير على طريق دمشق، فقدمت بين يديه اطباق مليئة بالفستق، فقال: ما هذه ؟ قيل له : صاحب الدير يطعم الناس. قال : وهل يعرض عليهم كهذه الاطباق ؟ قيل : لا. فالتفت الى صاحب الدير قائلا : خذ طعامك[١٧]!!. ويدخل بيته يوما، يصحبه احد ضيوفه. وما ان يحين موعد الطعام حتى يجذب عمر مائدة صغيرة عليها طبق واحد مغطى بمنديل .. ويلمح دهشة ضيفه فيقول له : كل !! اين عيشنا اليوم من عيشنا اذ كنا بمصر ؟! يرد عليه ضيفه : لا شيء يا امير المؤمنين .. فيقول عمر، والعبرة تخنق الكلمات في صدره : لقد رايتني، ولو ضافني اهل قرية لوجدت ما يعّمهم، اين عيشنا هذا من عيشنا بالمدينة ؟! ثم ما يلبث ان يغلبه البكاء[١٨]. وذات يوم يمر بزوجته فاطمة، فيضرب على كتفيها برفق ويقول : يا فاطمة، لنحن ليالي دابق انعم منا اليوم. فقالت: والله ما كنت على ذلك اقدر منك اليوم. فادبر عنها، والحنين يعتصره، وهو يقول : يا فاطمة اني اخاف النار .. يا فاطمة اني اخاف عذاب يوم عظيم[١٩]!!

كان اول شيء بدأ عمر به سياسة التجرد الذاتي هذه انه باع كل ممتلكاته، مزارع وماشية ومتاع وخيول وملابس وعطور والات، واشياء كثيرة اخرى بلغ ثمنها جميعا ثلاثة وعشرين الف دينار، ثم جعلها في سبيل الله، واكتفى بدرهمين ياخذهما يوميا من بيت المال، غلت الاسعار ام رخصت[٢٠]. واعلن : انه لينبغي الا ابدأ باول من نفسي !! ثم انتقل بعد هذا الى اهل بيته فرد ما كان بايديهم من المظالم، ثم انتقل بعد ذلك، ففعل بالناس ما فعله بنفسه واهليه[٢١] وتاكيدا لتجرده من امواله الخاصة، قام بتمزيق سجلات مزارعه جميعا[٢٢].

جاءه يوما من ماله بالبحرين ثلاثون الف درهم، فاسترجع، ثم دعا مزاحما مولاه وامره برد هذه الاموال الى بيت مال المسلمين[٢٣]. وكتب الى احد بنيه : بلغني انك اشتريت فصا بالف

---

(١٦) المصدر السابق ، ص٦٣-٦٤.

(١٧) ابن عبد الحكم ، ص٥٧.

(١٨) ابن الجوزي ، ص١٥١.

(١٩) ابن عبد الحكم ، ص٤٩-٥٠.

(٢٠) المصدر السابق ، ص١٤٦.

(٢١) ابن سعد ٥-٢٥١-٢٥٢.

(٢٢) ابن عبد الحكم ، ص٦٠-٦٢.

(٢٣) ابن الجوزي ، ص ١٦٥-١٦٦.

درهم، فبعه واشبع به الف جائع، واتخذ خاتما من حديد[٢٤]. وتقدم اليه – مرة – احد بنيه يطلب منه ان يزوجه، وان يجعل صداقه من بيت المال، وكان هذا الابن متزوجا، فلم يتمالك عمر من الغضب وكتب الى ابنه : لعمر الله، لقد اتاني كتابك تسألني ان اجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين، وابناء المهاجرين لا يجد احدهم امراة يستعف بها، فلا اعرفن ما كتبت بمثل هذا.. ثم عرض عليه ان يبيع ما عنده من انية ومتاع، ويستعين بثمنه على الزواج[٢٥].

وما اروع هذا الحوار بين الاب وابنه، وما اعمق مغزاه !! اجتمع الناس على عمر يبايعونه، اثر دفن سليمان بن عبد الملك، فتمزق جيب قميص ابنه، فقال عمر : يا بني، اصلح جيب قميصك فانك لم تكن قط احوج الى ذلك منك اليوم[٢٦].

حتى الموت، وساعاته الصعبة، لم تجعل عمر يحيد – ولو قيد شعرة – عن فهمه العميق للتجرد .. في هذه الساعات يدخل عليه مسلمة بن عبد الملك ليقول : يا امير المؤمنين انك قد افرغت افواه ولدك من هذا المال، فلو وصيت بهم الى والى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم. ويتلفت عمر الى اصحابه الجالسين جواره ويقول : اجلسوني. وما ان يجلسوه حتى يبدا الكلام .. كلاما يتدفق من رؤية واضحة لما يجب ان يكون عليه الحاكم اذا اراد فعلا ان يحكم بما انزل الله .. (قد سمعت مقالتك يا مسلمة. اما قولك اني قد افرغت افواه ولدي من هذا المال، فوالله ما ظلمتهم حقا هو لهم، ولم اكن لاعطيهم شيئا لغيرهم. واما ما قلت في الوصية فان وصيتي فيهم **{ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }** (الأعراف : الآية ١٩٦) .. ويمضي عمر قائلا (انما ولد عمر بين احد رجلين : اما رجل صالح فسيغنيه الله، واما غير ذلك، فلن اكون اول من اعانه بالمال على معصية الله ..) ثم ما يلبث الخليفة ان يطلب احضار بنيه. وما ان يجتمعوا حوله، وينظر اليهم، حتى تترقرق عيناه ويقول : بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم .. ثم ينفجر بالبكاء وهو يناديهم ويطبع في اذهانهم الصغيرة رؤياه (يا بني اني قد تركت لكم خيرا كثيرا، لا تمرون باحد من المسلمين واهل ذمتهم الا راوا لكم حقا. يا بني اني قد مثلت بين الامرين : اما ان تستغنوا وادخل النار، او تفتقروا وادخل الجنة)[٢٧] ، ثم يلتفت الى مسلمة – وكان هذا قد اتى بمائة الف دينار ليوصي عمر بها لبنيه – ويقول : او خير من ذلك يا مسلمة ؟ ردها من حيث اخذتها .. ويؤخذ مسلمة بهذا الحق الواضح والتجرد العجيب، فيهزه

---

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٥.

(٢٥) ابن عبد الحكم ، ص ١٢٥.

(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٤٦.

(٢٧) ابن عبدالحكم ، ص ١١٥-١١٦.

معناهما الانساني، فما يلبث ان يقول : جزاك الله عنا خيرا يا امير المؤمنين، والله لقد النت لنا قلوبا قاسية، وجعلت لنا ذكرا في الصالحين[٢٨]!!

ولعلكم تتساءلون – وعمر بين يدي الموت – كم ترك خليفة الدنيا لبنيه ؟ اذن فاعلموا انه لم يترك لهم سوى بضعة وعشرين دينارا، قسمت – بعد وفاته – بين اثني عشر ذكرا وست بنات[٢٩] .. ويوما جاءت امراة الى دار عمر لتعرض شكواها، فرات زوجته فاطمة وهي تغزل قطنا. ادارت بصرها في البيت فلم تر فيه شيئا ذا بال، فصاحت والدهشة تملك لبها : انما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب ؟! ويجيئها الجواب من فاطمة : انما خرب هذا البيت عمارة بيوت امثالك[٣٠]!!. ومن ثم نعلم يقينا، ونحن نرى هذه الصورة المؤثرة، ونسمع هذه الكلمات .. كيف تنجح الانقلابات الحقيقية في تاريخ الامم والشعوب !!

***

ليس هذا فحسب .. بل ان تجرد عمر وانسلاخه العجيب، تجاوز حدود الماديات والاشكال، وامتد بعيدا، هناك في اعماق الوجدان، وخفقات القلب وعصب الوجود .. ان قصته مع جاريته تهزنا من الاعماق .. قصة حب عميق لم تتح لها اعباء الخلافة، واثقال المسؤولية ان تاخذ مجراها .. كانت هذه الجارية لفاطمة زوجة عمر، وكانت تتميز بجمال فائق، وكان عمر – قبل ان تفضي الخلافة اليه – معجبا بها .. ومرارا عديدة طلبها من زوجته والح في الطلب، فابت فاطمة تلبية شوقه مدفوعة بغيرة النساء من النساء. وتفضي الخلافة الى عمر وتحيط به المسؤولية من كل مكان، وتشفق زوجته عليه وهي تراه يذوب حزنا وكمدا يوما بعد يوم، وهو يسوس الملايين ويجتاز بهم الامهم وظلاماتهم، فتدفع الجارية اليه، بعد ان زينتها فزادتها جمالا، وما ان يراها عمر حتى ترتسم الفرحة على وجهه، ولكنه ما يلبث ان يسالها : اخبريني لمن كنت ؟ وتحكي له قصتها .. ودون اي تردد يستدعي عمر غلاما كانت الجارية قد استصفيت من ابيه ظلما، والحقت بجواري احد امراء بني امية .. وما ان يحضر الغلام، قاطعا مسافات الطريق الطويلة، حتى يعلمه عمر عن عزمه على رد الجارية اليه، فيقول الغلام : يا امير المؤمنين هي لك. فيرد عمر : لا حاجة لي فيها .. فيقول الغلام : فابتعها مني اذن !! لكن عمر لم يتردد يوما، ازاء لحظة الاختيار، مهما يكن جانبها الاخر صعبا، ومرا كالعلقم، ما دام الامر يمس عقيدته الصلبة في التجرد والانسلاخ .. يلتفت الى الغلام ويقول : لست اذن ممن ينهى النفس عن الهوى !! ويمضي الغلام بالجارية، وقبل ان يغيبهما الطريق تلتفت الجارية الى

---

(٢٨) المصدر السابق ، ص ١٢٤.

(٢٩) ابن الجوزي ، ص ٢٩٥.

(٣٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٦٩.

عمر قائلة : اين موجدتك بي يا امير المؤمنين ؟ فيقول امير المؤمنين، الذي يعتصر الاسى قلبه: انها لعلى حالها، ولقد ازدادت !! وتبقى – كما تقول الروايات – قصة هذا الحب العميق، وهذا الاسى، في نفس عمر ووجدانه حتى ساعة موته[٣١].

***

وتتوالى الشهادات على تجرد عمر وانسلاخه .. من كل مكان .. علماء كبار، ورجال حاشية وشهود عيان، وملوك وابناء واقرباء وامراء، ومتصوفون في القمة، ومؤرخون .. كل منهم يقدم شهادته ويحكي رؤياه عن الخليفة الذي اثر الجوع والحرمان لكي تشبع امته، وتطوى صور الفقر والظلم والالم .. الحاكم الذي بلغ قمة الصفاء الروحي، والدنيا بملذاتها ومتاعها بين يديه وتحت قدميه ... ونستدعي الشهود :

رجاء بن حيوة : لما استخلف عمر قوموا ثيابه اثني عشر درهما : كمته وعمامته وقباءه وخفيه، وقميصه ورداءه[٣٢].

مواطن من اهل الشام : رايت عمر بخناصرة يخطب الناس، عليه قميص مرقوع[٣٣].

امبراطور الروم : اني لست اعجب من الراهب ان اغلق بابه ورفض الدنيا، وترهب وتعبد. ولكن اعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب[٣٤]!!

خادم عمر : ان عمر لم يتملا من طعام من يوم ولي حتى مات[٣٥].

مواطن من اهل المدينة : رايت عمر بالمدينة وهو احسن الناس لباسا، واطيب الناس ريحا، واحفل الناس في مشيه، ثم رايته، بعد، يمشي مشية الرهبان، فمن حدثك ان المشي سجية فلا تصدقه بعد عمر[٣٦]!!

مواطن من دمشق : ولي عمر بعد صلاة الجمعة، فانكرت حاله في العصر[٣٧]!!

يونس بن ابي شبيب : شهدت عمر بن عبد العزيز، وان حجزة ازاره لغائبة في عكنه، ثم رايته بعد ما استخلف، ولو شئت ان اعد اضلاعه من غير ان امسها لفعلت[٣٨].

---

(٣١) ابن الجوزي ، ص ١٥٥–١٥٦.

(٣٢) ابن الجوزي ، ص ١٤٦.

(٣٣) المصدر السابق ، ص ١٥٣.

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٢٨٩.

(٣٥) ابن سعد ، ص ٥–٢٥٤.

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٥–٢٤٤.

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٥–٢٥١.

(٣٨) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥.

عبد العزيز بن عمر : كانت غلة ابي حين افضت الخلافة اليه اربعين الف دينار، فلما توفي غدت اربعمائة دينار، ولو بقي لنقصت[٣٩].

عبد الله بن دينار : لم يرتزق عمر من بيت مال المسلمين شيئا، ولم يرزأه حتى مات[٤٠].

مسلمة بن عبد الملك : رحم الله عمر بن عبد العزيز، والله لقد هلك وما بلغ ابن له قط شرف العطاء[٤١].

عمرو بن ميمون : اتيت سليمان بن عبد الملك فرايت عنده عمر وهو كاشد الرجال واغلظهم عنقا. فما لبثت بعد ما استخلف الا سنة، حتى اتيته فخرج يصلي بنا الظهر، وعليه قميص ثمنه دينار .. وقد نحل ودقت عنقه.

أبو سليمان الداراني : كان عمر ازهد من اويس القرني، لان عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها، ولا ندري حال (اويس) لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟! ليس من جرب كمن لم يجرب[٤٢]!!

مالك بن دينار : يقولون مالك زاهد !! اي زهد عندي ؟! انما الزاهد عمر ابن عبد العزيز، اتته الدنيا فاغرة فاها، فتركها جملة[٤٣].

ولا اروع، قبل ان نختتم شهادات الشهود، ان نترك الاختيار هذه المرة لعمر بن عبد العزيز نفسه، ليختار شاهده .. ها هو يستدعي المحدث الكبير ابا هريرة ليحدث عن الرسول العظيم بشهادة القمة : (ان من ورائكم عقبة كؤودا لا يجوزها الا كل ضامر مهزول !!) حديث .. لو وضعنا – ونحن نردده – صورة عمر، الضامر المهزول، نفسه، وهو يردده، لهز وجداننا وملأ اعيننا بالدموع .. وصدق رسول الله.

---

(٣٩) المصدر السابق ، ص ١٥٥.

(٤٠) ابن سعد ، ص ٥-٢٩٦.

(٤١) ابن الجوزي ، ص ٢٧٤.

(٤٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ص ٩-٢٠٨.

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٢/٩.

(٢)

الوقود

" ... فاجاب الرسول : ان تعبد

الله كانك تراه، فان لم تكن تراه

فانه يراك !! ".

حديث شريف

عبر الصفحات الماضية، تابعنا عمر بن عبد العزيز وهو يصعد المنحنى الصعب الطويل صوب القمة، ودهشنا .. ونحن نراه، من بعيد، وهو يخطو خطواته العملاقة مخلفا وراءه ماضيه المترف، وعالمه الطريف، وحياته المليئة بالمتاع .. صاعدا صوب قمم التجرد والانسلاخ والزهد والحرمان .. ورأينا كيف انه لم ينجح احد يوما نجاح عمر في رحلة الوجدان هذه .. رحلة امير مدلل الى عالم الزهد والجوع، ليس من اجل نفسه، وحاشاه، ولكن من اجل امته، وبعد ذلك او قبله من اجل يوم الحساب .. ولقد بلغ عمر القمة التي غبطه عليها كبار الزهاد وربانيو الامة، وتمليا ما قالوا كلمة كلمة، وحرفا حرفا ..

وهنا ياتي السؤال الملح .. ترى .. ما هو الوقود الذي احرق وجدان عمر واعصابه، واعطاه هذه الطاقة الهائلة على الاجتياز والصعود ؟ ما هي القوة الداخلية التي فجرت في قلب عمر وضميره هذا العشق للحق والعدل، وهذا الهيام بتحمل العذاب وهو يجتاز رحلته القاسية الصعبة ؟ ما هو المحرك الذاتي الذي اتاح لعمر ان يمد خطواته عبر المنحنى كالعملاق، لا يثنيه عائق، ولا ترده قوة في الارض من اغراء او ارهاب ؟!

هنا في الصفحات التالية من هذا البحث، سنسعى الى ان نضع ايدينا على الوقود، ونتملى القوة الداخلية، ونتمعن في المحرك الذاتي، تلك التي اسهمت جميعا في تمكن عمر من معانقة مصيره المقدور، ونجاحه في انقلابه العظيم.

ولنعد الى الساعات الاولى من تحمله المسؤولية، فالجواب الحاسم يمكن ان نجده – دائما – هناك في البدايات .. انظروا : ها هو كتاب العهد باسمه يقرا عليه فيقسم (والله ان هذا الامر ما سألته الله قط) .. ولكن ما دامت الارادات الصالحة قد اختارته، في لحظة حاسمة خطيرة كهذه، فليكن رجلا، وليقبل الامانة .. ولكنه قبل ان يضع خطواته الاولى على الطريق يجب ان يتاكد فيستدعي الفقيه الكبير سالم السدي.

عمر : اسرك ما وليت، ام ساءك ؟

السدي : سرني للناس، وساءني لك !!

عمر : اني اخاف ان اكون قد أوبقت (اهلكت) نفسي ..

السدي : ما احسن حالك ان كنت تخاف، اني اخاف عليك الا تخاف !!

عمر : عظني ..

السدي : ابونا ادم اخرج من الجنة بخطيئة واحدة[٤٤]!!

تلك اذن البداية المذهلة (عظني .. فاني خائف)، وما كان ليخاف هذا الخوف الجبان المهزوم، وحاشاه، ولكنه خوف الله على مصير امة تمتد من حدود الصين الى بحر الظلمات.

---

(٤٤) المسعودي : مروج الذهب ، ص ٢–١٦٨.

وها هو يعود الى داره، بعد الفراغ من تشييع جنازة سليمان، والغم يعتصر قلبه، ويلقي ظلاله الكئيبة على وجهه، فيساله مولاه : مالي اراك مغتما ؟ فيجيبه : لمثل ما انا فيه فليغتم، ليس احد من الامة الا وانا اريد ان اوصل اليه حقه غير كاتب لي فيه ولا طالبه مني !! وبخطى سريعة يصعد المنبر، ويعلن للملا (ايها الناس انه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام. الا واني لست بقاض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخير من احدكم، ولكني اثقلكم حملا. ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم. الا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[٤٥]!!).

ويكتب الى يزيد بن المهلب، عامل الامويين على المشرق، مؤكدا المعاني والقيم والاهداف ذاتها التي اعلنها في خطابه الحاسم السريع (اما بعد : فان سليمان ابن عبد الملك كان عبدا من عبيد الله انعم الله عليه، ثم قبضه واستخلفني، ويزيد بن عبد الملك من بعدي ان كان !! وان الذي ولاني الله من ذلك، وقدر لي ليس علي بهين. ولو كانت رغبتي في اتخاذ ازواج، واعتقال اموال، كان في الذي اعطاني من ذلك ما قد بلغ بي افضل ما بلغ باحد من خلقه !! (ولكني) اخاف – فيما ابتليت به – حسابا شديدا – ومسالة غليظة، الا ما عافى الله ورحم[٤٦]...).

يا الله .. ان هذه الكلمات الواضحة العميقة الحاسمة، لتذكرنا بايام عمر ابن الخطاب، بكل ما فيها من حرص على حقوق الامة، وتاكيد على المساواة المطلقة امام الله ورسوله، وتهديد مرعد بالظلم والظالمين، وذكر لله في كل خطوة وكل كلمة، لان الله (سبحانه وتعالى) هو وحده صانع الخطوات والكلمات .. وها هو الحفيد .. يعود .. بعد دورة مضنية للتاريخ .. ليذكرنا بعهد جده العظيم عهد التقوى وخوف الله، والرؤية الواضحة الحساسة للحياة والفناء والخلود .. والانفعال العميق بمشاهد الجنة والنار .. ان هذه التقوى وهذا الخوف، وتلك الرؤية وذلك الانفعال هي التي تصنع المسؤولين .. ليس هذا فحسب، ولكنها تحملهم مسؤوليتهم بامانة نادرة المثال، وتجعلهم يرتعدون فرقا ان هم انحرفوا قيد شعرة عما يريده الله الذي يراهم ولا يرونه .. وانى لهم ان ينحرفوا، والحياة الدنيا هي فرصتهم الوحيدة التي ستمضي بهم اما الى جنة واما الى نار ؟!

وقد عبر عمر عن هذه الحقيقة بوضوح في احدى رسائله حيث يقول :

(ان احق العباد باجلال الله، والخشية منه، من ابتلاه بمثل ما ابتلاني به. ولا احد اشد حسابا ولا اهون على الله – ان عصاه – مني. فقد ضاق بما انا فيه ذرعي، وخفت ان تكون

---

(٤٥) ابن عبد الحكم ، ص ٤١–٤٢، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ص ١–٣٢٧–٣٢٨.

(٤٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦–٥٦٧.

منزلتي التي انا بها هلاكا لي. الا ان يتداركني الله منه برحمة[٤٧]). ثم اسمعوه .. انصتوا الى ما يقول .. ماذا ؟! (ان الدنيا ليست بدار قرار. دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على اهلها منها الظعن فاحسنوا – رحمكم الله – منها الرحلة باحسن ما يحضر بكم من النقلة، وتزودوا فان خير الزاد التقوى) ويمضي عمر قائلا، والدموع تنساب على خديه وتبلل لحيته (انما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب !! بينما ابن ادم في الدنيا منافس، وبها قرير عين، اذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلب اثاره ودنياه، وصير لقوم اخرين مصانعه ومغناه !! ان الدنيا لا تسر بقدر ما تضر. انها تسر قليلا وتجر حزنا طويلا[٤٨]!!) ويكثف عمر تصوره للحياة والموت في خطبة اخرى جاء فيها (... انما خلفتم للابد، ولكنكم من دار الى دار تنقلون .. انكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص، ومن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها الا بفراق اخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما انتم صائرون اليه، وخالدون فيه[٤٩]).

وما اروع كتابه الى احدهم يعزيه في ابيه (انا قوم من اهل الاخرة، سكنا الدنيا، اموات ابناء اموات، فالعجب كل العجب لميت يكتب الى ميت يعزيه عن ميت[٥٠]!!). ويبلغه – يوما – ان اخا من اخوانه مات، ثم ما يلبث ان ياتيه نفي ذلك، فيكتب اليه (.. بلغنا خبر ريع له اخوانك ثم اتانا تكذيب ما بلغنا .. فانعم بذلك ان يسرنا، وان كان السرور بذلك وشيك الانقطاع، يتبعه عما قليل تصديق الخبر الاول !! فهل انت يا عبد الله الا كرجل ذاق الموت ثم سال الرجعة، فاسعف بطلبته ؟! فهو متأهب .. الى دار قراره .. ولم يزل الليل والنهار سريعين في نفاذ الايام، وطي الاجال، ونقض العمر .. ولا يزالان على ذلك يفنيان ويبليان ما مرا به، هيهات .. هل انت الا كرجل قطعت اعضاؤه عضوا عضوا، فلم يبق الا حشاشة نفسه، فهو ينتظر الداعي لها صباحا ومساء[٥١]؟!).

لو ان كل انسان ملك في حسه وادراكه هذا التصور للموت والزمن .. هذه الرؤية لايام وشهور وسنين تمر، وتمر، وهي تفني في مرورها الاعمار، وتطوي الاجال، حتى يقف الانسان يوما امام الداعي، كان لم يلبث الا ساعة من نهار .. لو ان كل انسان ملك هذا الحس وهذه الرؤية، هل يبقى بعد ذلك خوف او حزن او تردد، ازاء ما تعرضه الايام والليالي من تقلبات الامال والالام وهل يبقى بعد هذا خور وذلة ازاء القوى التي تفرض على الانسان اذلالا وخضوعا

---

(٤٧) ابن سعد : طبقات ٥-٢٩١-٢٩٢.

(٤٨) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٩٧.

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٤.

(٥٠) المصدر السابق ، ص ٢١٤.

(٥١) ابن عبد الحكم ، ص ١٢٦-١٢٧.

ياباه خالق الانسان ؟! ان تصور الموت يغدو – في حس المسلم – طاقة هائلة، تتجاوز به كل منغصات الحياة الحقيقية، وكل عراقيلها ..

ولكن عمر لا تقف به التقوى عند حدود الحياة والموت، انه ينظر الى هناك (ليلة تمخض بالساعة، فصباحها القيامة، يا لها من ليلة، ويا له من صباح)[٥٢]. ويوما يلبث عمر ساكتا متاملا حزينا، واصحابه يتحدثون، تجرهم مسارب الكلام الى شجون شتى. ويلفت عمر – بسكوته – احدهم فيسال : ما لك لا تتكلم يا امير المؤمنين ؟ ويجيئه الجواب : (كنت مفكرا في اهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي اهل النار كيف يصطرخون فيها .. وبكى[٥٣]..).

ان وعيه وحسه معلقان ابدا بيوم الحساب .. وهو لا يخطو خطوة، ولا يقول كلمة، الا وهو يرنو، مشدود الاعصاب، مرتجف الوجدان، الى يوم الفصل هذا، بكل وعده ووعيده، بكل عذابه ونعيمه .. مر يوما بقبور بني امية فاستعبر وبكى، ثم التفت الى ميمون بن مهران : انطلق بنا فوالله ما اعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور، وقد آمن من عذاب الله[٥٤].

كانت آيات القرآن التي تتعرض للموت، او تعرض مشاهد الجنة والنار، تهز عمر من الاعماق، وتستثير وجدانه ودموعه .. سمع مرة (واذا القوا منها مكانا ضيقا، مقرنين، دعوا هنالك ثبورا. لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا، وادعوا ثبورا كثيرا!!) فغلبه البكاء، وغادر المجلس الى بيته، فتفرق المجتمعون[٥٥]. وام الناس مرة وراح يقرا .. حتى اذا بلغ (وقفوهم انهم مسؤولون) جعل يرددها ولا يستطيع ان يتجاوزها، وانى له ذلك وهو يهتز بكاء[٥٦]؟!. وقرأ بالناس ذات عشاء **{ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى }** (الليل: الآية ١) فلما بلغ **فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى{١٤}** (الليل: الآية ١٤) خنقته العبرة فلم يستطع ان يتلوها، فعاد ليقرا من جديد حتى اذا بلغها خنقته العبرة فلم يستطع ان يتلوها، فتركها وقرا سورة غيرها)[٥٧]. ونظر المصلون يوما الى مكان سجوده فراوه مبتلا بالدموع[٥٨]!!

ويظل يوم الحساب مطبوعا على اعصاب عمر .. يوم قريب لا يدري انسان متى يقع، ولا في اية لحظة ينزل باسه، ويكتب الى احد عماله يذكره (... كأن العباد وقد عادوا الى الله لينبئهم بما عملوا .. اكثر ذكر الموت الذي لا تدري متى يغشاك فلا مناص .. واكثر ذكر يوم

---

(٥٢) ابن الجوزي ، ص ١٠٢.
(٥٣) المصدر السابق ، ص ١٨١.
(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٨٣.
(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٨٤.
(٥٦) المصدر السابق ، ص ١٨٥.
(٥٧) ابن عبد الحكم ، ص ٤٩.
(٥٨) ابن الجوزي ، ص ١٨٦.

القيامة وشدته فان ذلك يدعوك الى الزهادة فيما رغبت فيه، والرغبة فيما زهدت فيه .. واكثر النظر في عملك في دنياك الذي امرت به ثم اقتصر عليه .. ولن تدرك العلم حتى تؤثره على الجهل، ولا الحق حتى تذر الباطل[٥٩]).

تلك هي الايجابية التي تبعثها التقوى في دنيا الناس : الزهادة .. مقاومة الاغراء ببطولة نادرة .. العمل حتى الرمق الاخير .. التزام العلم والحق، ومطاردة الجهل والباطل في كل مكان .. وليس بعد هذا الوضوح، وهذا التصميم من يقول ان عمر بن عبد العزيز دعا بتقواه هذه الى سلبية تقف بالانسان خائفا، مشلول الارادة، سلبيا : ازاء الموت والفناء وانعدام الفرح .. ثم ما كان لانسان تقوده تقواه الى هذا الدمار الذاتي ان يحدث ذلك الانقلاب العجيب في دنيا الناس، ويحفر للتاريخ الاسلامي مجرى جديدا. وما كان لمؤمن يخاف الله واليوم الاخر ان يجبن ازاء الموت .. على العكس سيعطيه هذا الموقف رؤية اوضح لحقيقة الموت والحياة، ويجعله يقف بشجاعة وفهم امام هذا الحدث الذي هو في حس المؤمن ليس اكثر من نقلة .. نقلة طبيعية من حياة الى حياة (انما خلقتم للابد، ولكنكم من دار الى دار تنقلون)، وسلاح حاسم يستخدمه المؤمن في لحظات الاختيار الصعبة بين الاغراء والصمود، وبين الغم والانسحاق لهزائم الحياة الدنيا، والفرح الحقيقي الذي لا يزول بمجرد ان يتذكر الانسان .. الموت (اذا رايت شيئا من الدنيا فاعجبك فاذكر الموت فانه يقلله في نفسك، واذا كنت في شيء من امر الدنيا قد غمك ونزل بك فاذكر الموت فانه يسهله عليك[٦٠]!!).

في ايام متتابعة يجبه الموت عمر بأعز من يملك : ابنه الورع عبد الملك .. اخوه سهل .. مولاه الرفيق مزاحم .. ويتقدم اليه رجل فيقول : عظم الله اجرك يا امير المؤمنين، فما رايت احدا اصيب باعظم من مصيبتك في ايام متتابعة .. ويطاطيء عمر راسه، فيقول رجل اخر للرجل الاول : لقد هيجت على امير المؤمنين !! وما يلبث عمر ان يرفع راسه ويطلب من الاول ان يعيد ما قاله، ثم يقول : لا والذي قضى عليهم بالموت ماحب ان شيئا من ذلك كان لم يكن[٦١]!! ويرفع يديه الى السماء : اللهم انك قد علمت ما كان من عونهم، فاخذتهم، فلم يزدني ذلك الا حبا، ولا الى ما عندك الا شوقا[٦٢]!! ويكتب الى الامصار ينهاهم ان ينوحوا على ابنه قائلا : ان الله تعالى احب قبضه واعوذ بالله ان اخالف محبته[٦٣].

---

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٢١٨.

(٦٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٦٨.

(٦١) ابن الجوزي ، ص ٢٦٥.

(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٦.

(٦٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٤.

ويبلغ عمر القمة وهو يعلن، ليس فقط عن فهم اكيد للموت، ولكن عن تقدير كامل وعشق عجيب لقدر الله الذي يعلم ما لا يعلمه الانسان، ويفجر في اعمار الناس احداثا يرونها مرة حينا، وهي في مداها البعيد حلوة، ويرونها خيرا حينا اخر، وهي في مداها البعيد شرا .. ومن ثم يجيء قول عمر في مكانه الحق من تصور المؤمن لقدر الله سبحانه : (ما لي في الامور هوى سوى مواقع قضاء الله فيها[٦٤]) ويدعو الله : اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما اخرت، ولا تاخير ما عجلت .. ويظل يدعو هذا الدعاء حتى يستجيب الله له ويبلغه المرحلة التي ما بعدها مرحلة .. مرحلة العشق لمواضع القضاء[٦٥].

***

ونمضي خطوات اخرى مع الخليفة، وهو يكشف بكلماته المضيئة عن تجربته ورؤياه اللتين زرعتا في قلبه ووجدانه تقوى عبرت به طريق المنحنى الصعب الطويل، بعد ان فجرت في عالمه الباطني : نار الحب والخوف والاشفاق تقوى عرفها هو نفسه بكلماته الواضحة : ان لكل شيء معدنا، ومعدن التقوى قلوب العاقلين، لانهم عقلوا عن الله، فاتقوه في امره ونهيه[٦٦]. ارايتم؟! وحدة اروع من هذه الوحدة بين العقل والقلب ..؟! تالفا اكثر انسجاما من هذا بين فكر الانسان وعاطفته ..؟ تناغما اشد توافقا بين قوى الانسان ؟ هذا هو تصور عمر .. وتصور كل مؤمن ادرك معنى التقوى التي هي الدرجة التي لا يصلها الانسان الا بعد ان يجتاز رحلة الاسلام والايمان ...

ازاء الله (سبحانه وتعالى) ، يقف الانسان المسلم موحد الذات، متوازن الخطوات، وهو يجتاز الحياة في حوار رائع بين العقل والقلب .. ليس ثمة تمزق في كيان الانسان، ليس ثمة ازدواج او انفصال. ان التقوى – هذه التجربة التي يتطلبها الاسلام من الانسان المؤمن – ليست سوى الادراك الصحيح لوضع الانسان في الكون ازاء خالقه، تحاوره من الداخل حركة القلب وخفقات الفؤاد، فتحيل الانسان الى فهم كامل وحركة وجدانية لا بدء لها ولا انتهاء.

ويدرك عمر ان هذا الفهم يتطلب ابدا ذلك الوقود لكي تصح التقوى .. الوقود الذي تفجره ومضات القلب ودموع العين .. ويلتفت الى احد اصحابه : يا ابا الجودي، اغتنم الدمعة تسيلها على خدك[٦٧]!! ثم يقول : لا ينفع القلب الا ما خرج من القلب[٦٨]. ويمضي عمر يهز وجدان

---

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٢٧١.

(٦٥) ابن عبد الحكم ، ص ١١١.

(٦٦) اليعقوبي : تاريخ ٢–٣٠٦، ابن الجوزي ، ص ٢٠٣.

(٦٧) ابن الجوزي ، ص ١٩٩.

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٢٠٠.

الناس ويحرك افئدتهم بكل ما يتفجر في عالمه الباطني من نار !! (ايها الناس، انما نحن من اصول قد مضت وبقيت فروعها، فما بقاء فرع بعد اصله ؟ وانما الناس في هذه الدنيا اغراض تنتضل فيهم المنايا، وهم فيها نهب المصائب .. لا يعمر معمر يوما من عمر الا بهدم اخر من اجله[٦٩]). وفي حشد اخر يريد عمر ان ينقل الكهرباء التي تهزه من الداخل الى سائر الناس فيصرخ بهم (ايها الناس، عليكم بتقوى الله فان تقوى الله خلف من كل شيء، ولا خلف من التقوى .. ايها الناس اني لم اجمعكم لامر احدثته، ولكني نظرت في امر معادكم، وما انتم صائرون اليه، فوجدت المصدق به احمق والمكذب به هالكا[٧٠]...).

ويوما .. حذره بنو امية من سياسته الصعبة ازاءهم، فغضب وقال : كل يوم اخافه غير يوم القيامة، فلا أمنت شره[٧١] .. وهو هو اليوم الذي احدث هزة في ماضيه غيرت مجرى حياته، وجعلته ينيب الى الله .. لقد اراد يومها ضرب غلام له، فقال له هذا : اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة[٧٢] .. ومنذ ذلك اليوم وعمر تؤرقه هذه الليلة، تشد اعصابه صوب يوم الحساب، وكانه واقع الان، هذه اللحظة .. وليس غدا !! ويقرأ (الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) ثم يتساءل : كم عسى الزائر يلبث عند المزور حتى ينكفيء اما الى جنة واما الى نار[٧٣]. وفي اجتماع حاشد يصرخ في الجماهير (.. لقد عنيتم بامر لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الارض لتشققت، اما تعلمون انه ليس بين الجنة والنار منزلة، وانكم صائرون الى احداهما[٧٤]؟).

ارأيتم اي مدى بلغه الاشفاق من يوم الفصل في حس عمر ؟؟ ان ما يقوله للاخرين يعيشه هو نفسه، بل انه لينقل للآخرين معاناته الداخلية، انه يعاني – ببطولة – تجربة الخوف والاشفاق التي لو عانتها النجوم والارض والجبال لغدت هباء منثورا ؟! ان هذا الخوف، وهذه التقوى .. تتكرر دائما في حياة عمر، بعد توليه الخلافة .. في البيت وفي الشارع .. في خطبه على المنابر، في كتبه ورسائله الى العمال والولاة في مشارق الارض ومغاربها .. وفي لقاءاته المستمرة مع ابناء الامة المسلمة في ساحات الشام .. انه يعبد الله كانه يراه .. يرى جحيمه ويرى نعيمه .. ومن خلال هذا كله يرى الموت !! هذه الكلمة الفاصلة التي تسلم الانسان – في لحظة – الى يوم الحساب، وترده للمعاد ..

---

(٦٩) المسعودي : مروج الذهب ٣-١٨٤.

(٧٠) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢.

(٧١) ابن الاثير : الكامل ٥-٦٤.

(٧٢) المصدر السابق ، ص ٥-٦٢.

(٧٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٣٦-١٣٧.

(٧٤) ابن الجوزي ، ص ١٩٧.

ولنتامل معا، كلمات عمر وهي تنساب من يقين الايمان، وينابيع التقوى في وجدانه .. وكانه يرسم بها لوحة رائعة للحياة يركض عبرها الناس بحثا عن ارزاقهم، وسعيا وراء التكاثر بالاموال والاولاد .. ولكن الخلفية التي يركضون عليها تذكر دائما بالموت والحساب .. انها لوحه رائعة رسمتها يدا عمر المؤمنتان وتجربته المملوءة بالالهام (... فاتقوا الله، فانها نصيحة لكم في دينكم، فاقبلوها : الرزق مقسوم فلن يعدو المؤمن ما قسم له، فاجملوا في الطلب، فان في القنوع سعة وبلغة وكفافا. ان اجل الدنيا في اعناقكم، وجهنم امامكم، وما ترون ذاهب، وما معنا فكان لم يكن، وكل اموات عن قريب. وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق، وبعد فراغه وقد ذاق الموت، والقوم حوله يقولون : قد فرغ رحمه الله !! وعاينتم تعجيل اخراجه وقسمة تراثه، ووجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور، وكأن لم يخالط اخوان الحفاظ، ولم يعمر الدنيا. فاتقوا هول يوم لا تحقر فيه مثقال ذرة في الموازين[٧٥]).

وكل ما يفقده المؤمن، حتى لو كانت حياته نفسها، يجب ان يقابل بالصبر والسلوان .. لان الانسان وكل ما ملكت يداه ليس سوى عارية سيسترجعها الله في يوم قريب او بعيد .. ولان الصبر – بمعناه هذا – هو مفتاح وعي الانسان لقيم الموت والحياة (... ومعول المؤمن الصبر، وما انعم الله على عبده نعمة ثم انتزعها منه، فأعاضه مما انتزع منه الصبر، الا كان ما اعاضه خيرا مما انتزع منه .. و{... **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** } (الزمر : الآية ١٠) [٧٦]).

ويوما .. يدخل عليه رجل، وبين يديه كانون فيه نار، فيقول للرجل : عظني !! فيجيبه الرجل : يا امير المؤمنين، ما ينفعك من دخل الجنة اذا دخلت انت النار .. وما يضرك من دخل النار اذا دخلت انت الجنة ؟!

فما يكون جواب عمر ؟ ان الكلمات لتعجز عن أداء الجواب .. انه في هذه اللحظة وجدان يذوب خوفا وحبا واشفاقا .. اهناك غير الدموع من شيء يستطيع الجواب ؟ وتظل – من ثم – عينا الخليفة تذرفان حتى ينطفيء الكانون بين يديه[٧٧].

ولنستمع اخيرا الى خطبته الاخيرة، في احدى مدن الشام .. ولنقف معا .. بقلوبنا وخيالنا ووجداننا مع آلاف المسلمين التي كانت تنصت الى هذه الخطبة التي قوم فيها حفيد ابن الخطاب قدر الحياة، واعطى مزيدا من الالوان والظلال لرحلته النفسية عبر المنحنى الطويل .. وكانه كان يحس ان هذه هي خطبة الوداع الاخيرة .. اسمعوا : (أيها الناس، انكم لم تخلقوا عبثا،

---

(٧٥) الطبري ٦-٥٧١-٥٧٢.

(٧٦) المصدر السابق ، ص ٦-٥٧٢.

(٧٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٠٧.

ولن تتركوا سدى، وان لكم معادا ينزل الله فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والارض. الا واعلموا انما الامان غدا لمن حذر الله وخافه، وباع نافدا بباق، وقليلا بكثير، وخوفا بامان !! الا ترون انكم في اسلاب الهالكين وسيخلفها بعدكم الباقون – كذلك – حتى ترد الى خير الوارثين ؟! وفي كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله، قد قضى نحبه، وانقضى اجله، فتغيبونه في صدع من الارض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد فارق الاحبة، وخلع الاسباب، فسكن التراب وواجه الحساب !! فهو مرتهن بعمله، فقير الى ما قدم، غني عما ترك. فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه. وايم الله اني لأقول لكم هذه المقالة، وما اعلم عند احد منكم من الذنوب اكثر مما عندي ؛ فاستغفر الله واتوب اليه. وما منكم من احد تبلغنا عنه حاجة الا احببت ان اسد من حاجته ماقدرت عليه. وما منكم من احد يسعه ما عندنا الا وددت انه سداي ولحمتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء !! وايم الله، اني لو اردت غير هذا من الغضارة والعيش، لكان اللسان مني به ذلولا، عالما باسبابه، ولكن معنا من الله كتاب ناطق، وسنة عادلة، يدل فيها على طاعته وينهى عن معصيته ...) ويرفع عمر – بعد خطبته هذه – طرف ردائه فيبكي حتى يشهق .. ويضج الناس من حوله بالبكاء[٧٨]، وكانهم احسوا جميعا ان مايقوله عمر قد سرت في كلماته الحياة، لانه – رضي الله عنه – كان ينتزع كلماته هذه من اعماق وجدانه، ومن قلب تقواه ... وكانهم احسوا جميعا ان عمر يودع – بهذه الكلمات – حياته العظيمة وهو في القمة، وان لقاءه مع خالقه قد حان ..

***

منذ اللحظة التي ولي عمر فيها الخلافة .. وحتى وفاته، ما فارق حس التقوى والخوف قلبه، ولا ودع وجدانه، وظل يردد حتى النهاية داعيا الله : ما احب ان تخفف عني سكرات الموت، لانه اخر ما يرفع للمؤمنين[٧٩]. وعندما جاءت سكرات الموت هذه قال عمر لاهله : اجلسوني. ولما اجلسوه راح ينادي ربه بصوت واهن حزين : انا الذي امرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا اله الا الله[٨٠]!!

***

ويحين الوقت لاستدعاء الشهود .. لقد تكلمنا عن تقوى عمر بن عبد العزيز بما فيه الكفاية .. وتبقى بعد هذا شهادات الشهود .. فهي املك للحس واكثر اثارة للوجدان .. ناس من

---

(٧٨) الطبري ٦–٥٧٠–٥٧١.

(٧٩) ابن الجوزي ، ص ٢٨٣.

(٨٠) المصدر السابق ، ص ٢٨٥.

شتى الفئات والاصناف .. كلهم ينتمون الى الامة التي قادها عمر بالقرآن والسنة .. دخلوا عليه في بيته او شاهدوه في الطريق .. صلوا معه في المسجد، او انصتوا اليه وهو يلقي كلماته في الميادين والساحات .. اليس من الجدير ان نستمع الى ما قالوه وهم يقفون وجها لوجه امام الخليفة الذي احالته تقواه الى كتلة من عصب ووجدان ؟! فلنستدعهم اذن واحادا بعد واحد، ليقولوا كلماتهم كما قالوها اول مرة ...

مكحول : لو حلفت لصدقت : ما رايت ازهد ولا اخوف لله من عمر بن عبد العزيز[٨١]!!

سعيد بن ابي عروبة : كان عمر اذا ذكر الموت اضطربت اوصاله[٨٢]!!

رجل من عامة المسلمين : لم اره يبكي. انما هو منقبض وكان عليه حزن الخلق[٨٣].

فاطمة زوجته : ما رأيت احداً أشد فرقا من ربه منه. كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه !! ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من امر الاخرة، فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء، ويجلس يبكي، فاطرح عليه اللحاف رحمة له وانا اقول : يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها[٨٤]!!

الحسن بن ابي العمر طه : رأيت عمر قبل ان يستخلف، فكنت تعرف الخير في وجهه، فلما استخلف رايت الموت بين عينيه[٨٥]!!

ابن ابي السائب : سمعت ابي يقول : ما رأيت احدا قط كان الخوف على وجهه ابين منه على عمر[٨٦].

محمد بن كعب القرظي : دخلت على عمر لما استخلف، وقد نحل جسمه وتغير لونه، وكان عهدنا به بالمدينة اميرا علينا : حسن الجسم، ممتلى البضعة ! فجعلت انظر اليه نظرا لا اكاد اصرف بصري عنه. فقال : يا ابن كعب مالك تنظر الي نظرا ما كنت تنظره الي من قبل؟! فقلت : لعجبي. قال : ومماذا عجبك ؟ قلت : لما نحل جسمك، وتغير لونك. قال : وكيف لو رايتني بعد ثلاث في قبري حين تقع عيناي على وجنتي، ويسيل منخري وفمي دودا وصديدا ؟ لكنت لي اشد نكرة منك اليوم[٨٧]!!

---

(٨١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٨.

(٨٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨.

(٨٣) ابن الجوزي ، ص ١٩٢.

(٨٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٩-٤. جـ.

(٨٥) ابن سعد ، ص ٥-٢٩٣.

(٨٦) ابن الجوزي ، ص ١٩٠.

(٨٧) ابن عبد الحكم ، ص ٥٥.

يزيد بن حوشب : ما رايت اخوف من الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تخلق الا لهما[٨٨]!!

مسلمة بن عبد الملك : رحمك الله – يا عمر – لقد لينت لنا قلوبا كانت قاسية وزرعت قلوب الناس لنا مودة، وابقيت لنا في الصاحلين ذكرا[٨٩].

(٨٨) ابن الجوزي : صفة الصفوة ٣-١٥٦.

(٨٩) ابن الجوزي: سيرة ، ص ٢٧٩.

(٣)

الاهداف الكبرى

{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُون}

الاعراف ١٨١

ونحن في طريقنا الى منجزات عمر الانقلابية، لابد ان نلحظ – معجبين – تاكيده الدائم على (الحق)، يوازيه – قولا وعملا – تأكيد مشابه على (العدل) .. الحق والعدل .. ها نحن قد وصلنا اذن الى مفتاح السياسة التي مارسها الخلفاء الراشدون، وسار عمر بن عبد العزيز على هديهم فيها حتى نهاية الشوط، وهي التي – كما تشير بعض الروايات والقرائن – كلفته حياته وهو في عز الرجولة.

فبالحق والعدل الازليين خلق الله السماوات والارض، وبهما فجر الحياة من اعماق التربة، وبعث الى الوجود حيوات شتى : من نبات وحيوان وانسان، تتحرك كلها وفق مشيئة الله القائمة على الحق والعدل .. وحينما انحرف الانسان عن النواميس التي يحكم بها الله الارض والسماء، بعث اليه رسلا وانبياء ليعيدوه الى الطريق، وليجعلوا حركته تنسجم مع حركة الكون القائمة على نواميس الحق والعدل. ولكن عودة الانسان – فردا وجماعة – الى هذه النواميس – استجابة لدعوة الانبياء – لا تتم ابدا بان يختار كل منهم اجزاء وتفاريق من المبادىء والمناهج التي جاء بها رسل الله (سبحانه وتعالى). لان هذا الاختيار الكيفي، هو كالرفض التام، يخلق فوضى غير طبيعية في حركة الانسان ويصده عن الانسجام الكامل مع حركة الكون والخلائق القائمة على نواميس الحق والعدل. ولابد اذن من الاخذ الكامل، والتلقي المطلق عن الله سبحانه – بواسطة رسله وانبيائه – في كل ما يصدر عنه الانسان عبر علاقاته وتجاربه مع خالقه ومع نفسه ومع الاخرين، وهذا الالتزام الكامل والتلقي المطلق لا يتهيا الا بوجود (نظام) الهي يتيح للانسان تحقيق هذا الهدف دون ان يصطدم بما يعيقه عن الانسجام مع النواميس الازلية التي تحكم الكون والحياة : الحق والعدل.

ومن ثم كان من البديهي – وفق منطق الوجود الكوني نفسه – ان تقوم الدولة الراشدة بالتزام هذا النظام، والحرص عليه، من اجل ان تعطي للمسلمين فرصة الانسجام الكامل مع القوانين التي تحكم الارض والسماء، وتهيء لهم مناخا طبيعيا صالحا لتقديم طاقاتهم ومعطياتهم، وفق هذه القوانين، بدلا من ان تضيع وتذهب جفاء. وكان من البديهي – ايضا – ان يحرص المسؤولون عن هذا النظام الالهي، على ان يبقى محتفظا بدعامتيه الرئيسيتين : الحق والعدل لان نظاما كهذا سرعان ما سيتعرض للشلل والسقوط بمجرد فقدانه احدى دعامتيه او كلتيهما. ومن ثم حرص الانبياء والخلفاء الراشدون من بعدهم على حماية الحق والعدل من العدوان المتمثل بشتى الوسائل والمحالات. ولم يكتفوا بهذا، بل راحوا يطاردون كل ما يمكن ان يلقي ولو ظلا باهتا على النور الذي يشع من هذه النواميس.

ان شريعة الله (سبحانه وتعالى) ، لن توتي ثمارها، وتحتفظ بحيويتها وتطورها الاجتهادي الخلاق القائم على تغطية حاجات الناس وحل مشاكلهم بالحق والعدل، ان لم تتمثل

في نظام واقعي تشرف على تطبيقه وتنفيذه دولة ثابتة الاركان، متكاملة الاجهزة، يقف على قمتها حاكم راشد يعرف – بتقواه وبصيرته – كيف يحيل الشريعة الى حياة، ويتحمل مسؤولية حماية الحق والعدل اللذين هما روح الشريعة وغايتها. وان الامة المسلمة تستطيع – بفطرتها النقية ووجدانها الصافي – ان تلمس تقوى الحاكم وبصيرته ومدى حرصه على حماية الحق والعدل، وبالتالي حماية الشريعة .. ومن ثم تحكم عليه، حتى قبل ان تقرا وتعرف عنه الكثير، بانه خليفة راشد، وانه احد اولئك المسؤولين الكبار الذين حرصوا على اقامة النظام الالهي وتطبيق مناهجه في الارض.

هكذا يقف عمر بن عبد العزيز ازاء وعي الامة الاسلامية ووجدانها على مر العصور، واحد من اولئك الذين اختارتهم العناية الالهية ليرشدوا البشرية الى ما يجب ان يكون عليه المجتمع الذي يؤمن بالله واليوم الاخر **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }** (البقرة : الآية ١٤٣).

في كل الجهات التي عمل فيها عمر، وكل الجبهات التي نافح دونها، كنا نجده ذلك (المسؤول) الذي يحرص على حماية الحق والعدل، ومطاردة ما يتهددهما – في مظانه – من مصالح الناس ورغباتهم واهدافهم الدنيا. لقد عشنا معه لحظات فريدة في بيته، ورأينا كيف ينافح، دون الحق والعدل، نوازع نفسه، وعواطف ابوته، وعلاقاته الزوجية، ويبلغ – احيانا – حدا لا يطاق في محاسبة النفس والاهل والبنين، رغبة منه في اجتثاث كل جذر يمكن ان ينبت في اعماق نفسه او في ردهات بيته، رغبة او تعلقا قد يلحق الاذى – مهما صغر الاذى – بالحق والعدل في يوم من الايام .. عشنا معه هناك، وهو ينقلنا بزهده الايجابي الفريد، الى ذات الاجواء التي عرفناها من قبل في بيت جده ابن الخطاب وفي حنايا نفسه التي تعلمت الفطام عن المتع المرئية ولكنها فتحت اقطار الارض .. ومن ثم ان الاوان لكي نرى السبط في الخارج وهو يسعى لترسيخ هذه القيم في شتى مجالات الحياة.

لنبدأ بموقفه من الخلافة، حيث يبدو عمر في اللحظات الاولى لتسلمه المنصب، بل في الايام التي سبقت ذلك، مدركا لحقيقة هذا المنصب الذي يجب ان يكون من (حق) جميع المسلمين ان يرشحوا اليه من يرونه كفوا لتسنمه : ايمانا وذكاءا وعملا والتزاما بالقرآن الكريم وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم). وليس من (العدل) ان يتولى انسان ما هذا المنصب لمجرد ان اباه او اخاه اراد ذلك، دون الرجوع الى اجماع المسلمين او استشارتهم، وعلى الرغم من ان عمر كان يعرف ما هو موقف جماهير المسلمين منه، ومقدار الحب الذي يكنون له،

والشوق الذي كان مجرد حلم يداعب مخيلتهم في ان يكون خليفة عليهم .. على الرغم من ذلك كله، فقد تردد منذ البداية في ان يسند اليه هذا الامر.

كان للعالم الجليل (رجاء بن حيوة) الفضل في اقناع سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر من بعده، بعد ان عرض عليه مزاياه واوضح له ان احدا من اطفاله لا يمكن ان يقوم باعباء منصب الخلافة الثقيل. واذ اطمان لفكرة رجاء قال : والله لاعقدن عقدا ليس للشيطان فيه نصيب. وما لبث بعد ان اشتد به مرضه ان كتب عهدا – لم يطلع عليه الا رجاء وحده – اقر فيه استخلاف عمر بن عبد العزيز، ومن بعده يزيد بن عبد الملك[٩٠] . وقد برر سليمان عهده ليزيد بقوله (لئن وليت – عمر – ولم اول احدا سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه – بنو مروان – ابدا يلي عليهم، الا ان يجعل احدهم بعده)[٩١]. ورغم ذلك فقد بدرت من بعض المروانيين – لدى قراءة العهد – معارضة لاستخلاف عمر، وابوا ان يبايعوه، الا انهم اضطروا الى ذلك اضطرارا[٩٢].

قال رجاء : فلما تفرقوا – اي بني اميه – جاءني عمر بن عبد العزيز فقال : اخشى ان يكون هذا – اي سليمان – اسند الي شيئا من هذا الامر. فانشدك الله وحرمتي ومودتي الا اعلمتني ان كان ذلك حتى استعفيه الان، قبل ان تاتي حال لااقدر على ما اقدر عليه الساعة. فقال رجاء : لا والله، ما انا بمخبرك حرفا. اجتاحت عمر موجة من الغضب وغادر المكان دون ان يقول شيئا[٩٣].

ان عمر يكشف هنا عن رغبته في الهروب من اعظم منصب، قبل ان تاتي حال لا يستطيع بعدها ان يرفض، كأن تعلن بيعته على ملا من الناس، وانى له انذاك التخلي عن عقد الامة ؟ وما ان يتاكد بانه قد اختير – فعلا – لهذا المنصب الجليل حتى يقول : انا لله وانا اليه راجعون، (لكراهته اياها)[٩٤]!! وعندما قرىء عليه كتاب العهد باسمه اقسم : والله ان هذا الامر ما سألته الله قط[٩٥]. وما تلبث جماهير الامة ان تتداعى لمبايعته، فها هو املهم المنشود، الحلم الذي ما طمحوا يوما الى انه سيغدو حقيقة واقعة. وعند المبايعة كان شعاره : اطيعوني ما

---

(٩٠) ابن عبد الحكم ، ص ٣٤–٣٥.

(٩١) ابن الاثير : الكامل ٥–٣٩.

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٥–٤١، الدينوري : الاخبار الطوال ، ص ٣٣٢.

(٩٣) الطبري : تاريخ ٦–٥٥١.

(٩٤) المصدر السابق ، ص ٦–٥٥٢.

(٩٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٣.

اطعت الله، فان عصيت الله فلا طاعة لي عليكم[٩٦]. وبهذا اعلن، كما اعلن الراشدون من قبله، ان بيعته مستمدة اولا واخيرا من مدى التزامه بالقرآن والسنة، وليس من اي اعتبار اخر.

ثم جاءت كلماته التالية تأكيدا لحق الامة في الاختيار (ايها الناس اني قد ابتليت بهذا الامر عن غير راي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين. واني قد خلعت ما في اعناقكم من بيعتي، فاختاروا لانفسكم) فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا امير المؤمنين ورضينا بك، فل امرنا باليمن والبركة[٩٧]. وهكذا يتولى عمر الخلافة بارادة الامة وممثليها من كبار العلماء، دون ان يكون هو قد سعى اليها، ويكتب الى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب : اما بعد، فقد ابتليت به من امر هذه الامة من غير مشاورة مني ولا ارادة، يعلم الله ذلك[٩٨]. وفيما بعد، عندما ناقشه مندوبا شوذب الخارجي في هذه المسالة قائلين: ما نقمنا سيرتك، انك لتتحرى العدل والاحسان، فاخبرنا عن قيامك بهذا الامر، اعن رضى من الناس ومشورة ام ابتززتم امرهم ؟ .. اجابهما عمر : ما سالتهم الولاية عليهم، ولا غلبتهم عليها، وقد عهد لي رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره علي احد، ولم يكرهه احد غيركم، وانتم ترون الرضا بكل من عدل وانصف من كان من الناس، فاتركوني ذلك الرجل، فان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم[٩٩].

ويوما يلتقي عمر بعبد العزيز بن الوليد في دمشق فيقول له : قد بلغني انك كنت بايعت من قبلك، واردت دخول دمشق. فيجيب عبد العزيز : قد كان ذاك، وذلك انه بلغني ان الخليفة سليمان لم يكن عقد لاحد، فخفت على الاموال ان تنتهب فيقول عمر : لو بويعت وقمت بالامر ما نازعتك ذلك، ولقعدت في بيتي، فيجيبه عبد العزيز : ما احب انه ولي هذا الامر غيرك .. ثم يبايع لعمر[١٠٠].

أما من سيعقب عمر في الخلافة، دون ان يكون للمسلمين فيه راي، فذلك ما لم يكن ضمن ارادة عمر واختصاصه ان يدلي فيه بدلوه .. انه جاء الى الحكم كاستثناء عن قاعدة غطت عقودا طويلة من السنين كان نظام ولاية العهد خلالها قد استحكم في البلاط الاموي .. ولولا الجهود المخلصة التي بذلها رجاء بن حيوة لما كان مقدرا للامة الاسلامية ان تشهد خلافة عمر. وعندما يسمع عمر استخلاف يزيد بن عبد الملك من بعده يقول : اللهم ان كان يزيد يريد

---

(٩٦) ابن الجوزي ، ص ٥٣.

(٩٧) المصدر السابق ، ص ٥٣.

(٩٨) ابن عبد الحكم ، ص ١٢٢.

(٩٩) ابن الاثير : الكامل ٥-٤٥-٤٦.

(١٠٠) الطبري ، ص ٦-٥٣٣.

بهذه الامة شرا فاكفهم شره، واردد كيده في نحره[١٠١]. ورغم كل هذا فهناك ما يشير الى ان عمر اراد ان يحطم هذا القيد الذي كان يقف امام الحق والعدل ان يأخذا مجراهما في انتخاب الخلفاء. فقد ذكر ابن سعد ان بني مروان جاءوا يوما الى عمر وقالوا : انك قصرت بنا عما كان يصنعه بنا من قبلك، وعاتبوه، فاجابهم : لئن عدتم لمثل هذا المجلس لاشدن ركابي، ثم لاقدمن المدينة واجعلها شورى، الا واني اعرف صاحبها: الاعيمش، (اي القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق)[١٠٢]. وقد أكد عمر – قبيل وفاته – رغبته في استخلاف القاسم بن محمد قائلا : لو كان لي من الامر شيء ما عدوت بها القاسم بن محمد[١٠٣]. ويذكر اليعقوبي ان العالم الجليل ميمون بن مهران، كان ثاني اثنين – اولهما القاسم – سعى عمر الى استخلافه من بعده لولا ان عاجله بنو امية بالسم قبل ان يخرج الامر منهم[١٠٤].

ومن ثم حان الوقت لكي نستعرض محللين كفاح عمر لترسيخ قيم الحق والعدل في شتى الميادين، ولنتأمل معا هذه الحادثة، فهي بليغة الدلالة على ما نحن بصدده :

لما وصل تولية عمر الخلافة الى سكان ما وراء النهر، اجتمع اهل سمرقند وقالوا لسليمان بن ابي السري : (ان قتيبة غدر بنا، وظلمنا واخذ بلادنا، وقد اظهر الله العدل والانصاف، فائذن لنا فليفد منا وفد الى امير المؤمنين، يشكون ظلامتنا، فان كان لنا حق اعطيناه، فان بنا الى ذلك حاجة). فأذن لهم سليمان. فوجهوا منهم وفدا قدم على عمر في دمشق، وبعد ان شرحوا له ظلامتهم، كتب لهم كتابا موجها الى سليمان جاء فيه (ان اهل سمرقند قد شكوا الي ظلما اصابهم، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى اخرجهم من ارضهم. فاذا اتاك كتابي فاجلس لهم القاضي فلينظر في امرهم، فان قضى لهم، فاخرج – المسلمين – الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل ان ظهر عليهم قتيبة)!

قرأ سليمان الكتاب ثم اجلس للاهالي القاضي (جميع بن حاضر) لينظر في ظلامتهم، وبعد ان سمع شكواهم بصدر رحب قضى بان يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم خارج اسوار المدينة وينابذوهم على سواء فاما ان تعلن الحرب ثانية واما ان يتفق الطرفان على اساس عادل للصلح. الا ان سكان المدينة دهشوا لهذا العدل فاعلنوا بالاجماع ودون اي تردد (بل نرضى بما كان، ولا نجدد حربا) وقال اهل الراي منهم : (قد خالطنا هؤلاء القوم واقمنا معهم، وامنونا

---

(١٠١) المصدر السابق ، ص ٦-٥٦٤.

(١٠٢) طبقات ابن سعد ، ص ٥-٢٥٣.

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٥-٢٥٤.

(١٠٤) تاريخ اليعقوبي ، ص ٢-٣٠٢.

وامناهم، فان حكم لنا عدنا الى الحرب، ولا ندري لمن يكون الظفر، وان لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة) ومن ثم تركوا الامر على ما كان، ورضوا ولم ينازعوا !![١٠٥].

أية دولة في القرن العشرين تحني راسها، هكذا، للعدل كي ياخذ مجراه وللحق كي يعود الى اصحابه ؟! واي حاكم في تاريخ الشعوب التي لم تعرف الله، استجاب، هكذا، لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم، كهذه الاستجابة السريعة الحاسمة من عمر بن عبد العزيز ؟ الا انه المسؤول الذي نذر نفسه للدفاع عن قيم الحق والعدل في اقطار الارض، فبدونهما تفقد شريعة الله مقوماتها واهدافها العليا.

ولكن انظروا !! ماذا يقول (فان فلوتن) في هذه الحادثة نفسها !! انه يقول (... قضى مندوب عمر بن عبد العزيز، في اهل سمرقند، بحكم يكاد يخفي ما انطوى عليه من الخبث حتى على اشد الناس نزاهة. وذلك ان يتقابل الفريقان تحت اسوار المدينة، وان يؤخذوا بالقوة، او ان تعقد بينهما محالفة جديدة. ومعنى ذلك انه اذا انتصر العرب – وهو ما كان راجحا .. فان سكان سمرقند كانوا لا يستطيعون الدفاع عن انفسهم في اسوارهم – عاملوا اهل سمرقند معاملة من فتحت بلادهم عنوة، اللهم الا اذا فضلوا قبول ما عسى ان يفرض العرب عليهم من الشروط. ومن الجلي ان حكم ذلك القاضي لم يغيّر تلك الحالة في شيء)[١٠٦]. و(فان فلوتن) الذي كتب هذا، واقدام قومه واهليه تسحق الشعوب المستضعفة بلا شفقة، وتمرغ القيم الانسانية بالوحل اذا ما تعارضت ومصالحها (الكبرى)، (فان فلوتن) كان لابد ان يكتب هذا .. صدورا عن البديهية التي قالها يوما شاعر عربي :

ومن يك ذا فمٍ مّر مريض يجد مرّا به الماء الزلالا !!

***

منذ الساعات الاولى لتولي عمر الخلافة اعلن للناس بتحديد قاطع لا غموض فيه (ان من اراد ان يصحبنا، فليصحبنا بخمس : يوصل الينا حاجة من لا تصل الينا حاجته، ويدلنا من العدل الى مالا نهتدي اليه، ويكون عونا لنا على الحق، ويؤدي الامانة الينا والى الناس، ولا يغتب عندنا احدا. ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا)[١٠٧]. وبهذا اعلن عمر عن زوال تلك العهود التي كان بلاط الخلفاء يعج فيها برجال تميزوا بسلبية واتكالية وتطفل، عرقلت في كثير من الاحيان جهود المسؤولين لحل مشاكل جماهير امتهم. فاليوم يرفض الخليفة

---

(١٠٥) الطبري ٦-٥٦٧-٥٦٨.

(١٠٦) السيادة العربية والشيعة والاسرئيليات ، ص ٢٣-٢٤.

(١٠٧) ابن عبد الحكم ، ص ٤٠-٤١.

صحبة هؤلاء، ولا يريد الا رجالا يتميزون بالايجابية والداب الدائم مع الحاكم في تنفيذ قيم الحق والعدل.

وفي رسالة له الى عامله على الكوفه قال (... ان اهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء. وان قوام الدين العدل والاحسان، فلا يكونن شيء اهم اليك من نفسك، فانه لا قليل من الاثم ... ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب، حتى تراجعني فيه ...)[١٠٨].

ينظر عمر بن عبد العزيز فيرى اهرامات مصر، ويسمع عن مباني روما العظيمة .. ان مئات الألوف من العبيد المسخرين اجبروا على اقامتها وبنائها دون اجر، والسياط التاديبية تلهب ظهورهم لتسوقهم الى مواقع العمل .. وألوف من هؤلاء ماتوا عبر سنين طويلة من الكدح والتعب المرير .. وآخرون فقدوا ايديهم وارجلهم .. واي ظلم افظع من ان يسخر الانسان لخدمة ملوكه واباطرته ..؟ واي ظلم اقسى من ان يموت الاف الاحياء لكي يدفن جسد ميت في مكان امين ؟ او لكي تتاح لامبراطور اصابه الملل فرصة ترفيهية لمشاهدة العروض الرياضية الدموية في ملعب واسع فسيح ؟! ... ويرى عمر كذلك تقليدا لهذا الظلم لدى بعض الحكام الذين سبقوه، وان كان بدرجة اخف بكثير، ولكنه يصدر امره (نرى ان توضع السخر عن اهل الارض، فان غايتها امور يدخل فيها الظلم)[١٠٩]. ثم يتلفت حوله فيرى عددا من رجال الاسرة الحاكمة قد استحوذوا على قطع واسعة من الارض واتخذوها حمى، وحرم منها أبناء الامة، فيعلن (ان الحمى يباح للمسلمين عامة ... وانما الامام فيها كرجل من المسلمين، انما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء)[١١٠].

ومنذ الدقائق الاولى لتوليه الحكم، احس، بفطرته الصائبة وبصيرته النافذة، ان الحاكم المسلم يجب عليه الكفاح دون الحق والعدل، وهو كفاح يتطلب جهوداً لا يصبر عليها الا الرجال اولو الباس، فتعلو وجهه سحابة من غم، ويساله مولاه عن هذا الاكتئاب في اليوم الذي يصفق له الحكام العاديون !! فيجيبه عمر : (ليس احد من الامة الا وانا اريد ان اوصل اليه حقه، غير كاتب الي فيه ولا طالبه مني)، ثم ما يلبث ان يطلق صيحته المدوية في اذان الامة واعصابها كي نفتح اعينها جيدا، وتاخذ حذرها من الظلم والظالمين : (ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم)!![١١١].

---

(١٠٨) الطبري ، ص ٦-٥٦٩.

(١٠٩) ابن عبد الحكم ، ص ٩٩.

(١١٠) المصدر السابق ، ص ٩٧.

(١١١) انظر : الندوي : رجال الفكر والدعوة، فصل (عمر بن عبد العزيز).

واسمعوه يقول لعامله على اليمن : (... لئن لم ترفع الي من جميع اليمن الا حفنة من كتم، فقد علم الله اني بها مسرور، اذا كانت موافقة للحق ..) ويامر عامله على خراسان (... اياك ان يكون ميلك ميلا الى غير الحق!!)[١١٢] ويكتب الى صاحب خراجه هناك ان (استوعب الخراج واحزره في غير ظلم)[١١٣]. وكان يبغض المسؤولين المتجبرين، ويطاردهم، دون ان يترك لهم اي وقت للراحة. فكان يقول عن يزيد بن المهلب – عامل سليمان بن عبد الملك على المشرق – وعن اهله (ان هؤلاء جبابرة ولا احب مثلهم!!)[١١٤] ، وسنرى فيما بعد كيف كان عقابه العادل لعميد اسرة الجبارين هؤلاء!!

ويتقدم عمر بنا خطوات واسعة اخرى صوب قيم الحق والعدل، فنجده يكتب الى عماله الا يهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحوا عليه ... والا يجروا الشاة الى مذبحها، ولا يحدوا الشفرة على رأس الذبيحة[١١٥]!! ذلك انه مسؤول .. مسؤول عن الاطاحة بكل ما يومىء بتخويف او ظلم لاي من الخلائق .. مسؤول عن وقف اي اسلوب غير عادل في التعامل مع هذه الخلائق جميعا .. ان بني ادم يستطيعون – على الاقل – ان يصرخوا، ان يرفعوا شكواهم، ان يقولوا شيئا ازاء الظلم المسلط عليهم .. اما الحيوان الاعجم فماذا يستطيع ان يقول عندما يتعذب وهو ينظر الى السكين التي ستذبحه، تحد امام عينيه ؟ وهو – عمر – لا زال يتسمع الى كلمات الرسول العظيم (ان الله كتب الاحسان على كل شيء، فاذا قتلتم فاحسنوا القتلة، واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة، وليحد احدكم شفرته، وليرح ذبيحته)[١١٦]. وفضلا عن ذلك، اصدر عمر اوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال، كما منع استخدام المناخس ذات الرؤوس الحديدية، وحدد حمولة البعير بستمائة رطل بعد ان بلغه ان بعضهم يحملونها ما يزيد على الالف رطل مما هو فوق طاقتها[١١٧]. ذلك اذن هو مفهوم الحق والعدل لدى اتباع خاتم الانبياء، وتلك هي آفاقه البعيدة التي تحتضن كل المخلوقات : احمرها واسودها، مسلمها وذميها، انسانها الناطق وحيوانها الاعجم!!

***

وكثيرة هي تاكيدات عمر على الحق والعدل .. تاكيدات لا تشم منها ابدا رائحة العشق الافلاطوني للقيم المعلقة في عالم المثال، ولكنا نحس – عكس ذلك – رغبة عميقة، وعزما

---

(١١٢) الطبري ، ص ٦-٥٦١-٥٦٢.

(١١٣) المصدر السابق ، ص ٦-٥٦٨.

(١١٤) المصدر السابق ، ص ٦-٥٥٧.

(١١٥) المصدر السابق ، ص ٦-٥٧٢.

(١١٦) رواه مسلم وابو داؤد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(١١٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩-١٦٠.

اكيدا على بعثها حية متحركة في عالم الواقع. من اجل ذلك كان عمر يكتب دائما الى عماله يذكرهم ويشدهم الى الاهداف العظيمة التي امن بها وسعى اليها .. ومن اجل ذلك كان يصل الليل بالنهار، ويقتطع الساعات الطويلة من اوقات راحته كي يرد المظالم وينشر اجنحة العدل. وقد ظل رضي الله عنه منذ ولي الخلافة الى ان مات في دوامة من العمل الذي لا ينتهي في هذا السبيل. حتى قال سليمان بن موسى (ما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم منذ يوم استخلف الى يوم مات)[١١٨].

كتب الى اهل الحج كتابا ليقرا عليهم في الموسم، وهو ليس كلمات تقال ولكنه صرخات تدوي في حشود الناس يوم عرفات .. صرخات الخليفة التي اراد ان يطلقها على عرفات، وجها لوجه مع جماهير امته، ولكن اعماله حالت دون ذلك. فليرسلها – اذن – مع احد عماله، وليكلف المسؤول عن الحج ان يرفع بها عقيرته .. اسمعوا : (... انا معول كل مظلوم!! الا واي عامل من عمالي رغب عن الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت امره اليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم!! الا وانه لا دولة بين اغنيائكم، ولا اثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم .. ولولا ان اشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم امورا من الحق احياها الله لكم، وامورا من الباطل اماتها الله عنكم ...)[١١٩]. أرايتم ؟؟ انه يقول للجماهير عن العامل الذي يرغب عن الحق : لا طاعة له عليكم، وقد صيرت امره اليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم !! لماذا لم يقولوا لنا هذا في مدارسنا ؟ لماذا لم يطبعوا على اعصابنا صورة هذه الحريةالحقيقية في مناهجنا؟ لماذا لم يكشفوا لنا عن هذه الصورة الفريدة منن دستورنا وتاريخنا ؟ في الوقت الذي تشبث فيه مخططو تلك المناهج ودارسو هذه الصور (بمونتسكيو) و(جان جاك روسو) قائلين لنا هؤلاء وغيرهما من مفكري الغرب وفلاسفتهم من دل البشرية، لاول مرة، على مفهوم العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم !!

لا علينا من هذا، ولنعد الى عمر بن عبد العزيز وهو يصعد الدرجات صوب مزيد من الترسيخ لقيم الحق والعدل. ها هو يكتب الى عامله على المدينة : (اياك والجلوس في بيتك) ثم ما يلبث ان يصرخ به (اخرج للناس، فاس بينهم في المجلس والمنظر. ولا يكن احد من الناس اثر عندك من احد. ولا تقولن هؤلاء من اهل بيت امير المؤمنين، فان اهل بيت امير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء. بل انا احرى ان اظن باهل بيت امير المؤمنين انهم يقهرون من نازعهم !!)[١٢٠]. ويكتب الى عامله على الكوفه (... اعلم اني قد اشركتك في امانة عظيمة، فان

---

(١١٨) ابن سعد ، ص ٥–٢٥١.

(١١٩) ابن الجوزي ، ص ٧٢–٧٣.

(١٢٠) ابن سعد ، ص ٥–٢٥٢.

ضيعت حقا من حقوق الله كنت اهون خلقه عليه، ثم لا يغني عنك عمر من الله شيئا)[١٢١]. ان الحق بيد الله الذي اقام ملكوته على الحق ... والذي ينحرف عن جادة الحق، لن تستطيع قوة في الارض ان تغني عنه شيئا .. ان الله وحده اخذه يوما بهذا الانحراف !!

ويستفزه عشقه للحق يوما فيكتب الى احد عماله (اذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الارض !!)[١٢٢]. ويكتب الى آخر (اما بعد : فالزم الحق ينزلك الحق منازل اهل الحق، يوم لا يقضى بين الناس الا بالحق وهم لا يظلمون)[١٢٣]. ويخطب يوما في حشد من الغرباء تنادوا الى دمشق من بلاد شتى : (ايها الناس الحقوا ببلادكم، فاني انساكم عندي واذكركم ببلادكم .. الا فمن ظلمه امامه مظلمة فلا اذن له علي – اي لا حجاب بيني وبينه – ومن لا، فلا ارينه .. والله لولا ان انعش سنّة او اسير بحق، ما احببت ان اعيش فواقا)[١٢٤].

وذات يوم يتقدم عبد الملك، الشاب الورع، من ابيه عمر ويدور بينهما هذا الحوار:

الابن : يا امير المؤمنين، ما تقول لربك اذا اتيته وقد تركت حقا لم تحيه وباطلا لم تمته؟

الأب : (يا بني ان اباءك واجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الامور الي، وقد اقبل شرها وادبر خيرها. ولكن اليس حسنا وجميلا الا تطلع الشمس علي في يوم الا احييت فيه حقا وامت فيه باطلا، حتى ياتيني الموت فانا على ذلك ؟!)[١٢٥]. وفي احد الايام يخرج عمر برفقة مولاه مزاحم، ليجوسا خلال القرى والارياف، يتفقد اخبارها وهو متخف بزي لا يعرفه فيه احد كشانه دائما عندما يقوم بجولاته هذه. وفي الطريق يلقاهما راكب من اهل المدينة، فيسالانه عن احوال الناس وما وراءه فيجيب (اني تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور) فما يتمالك عمر نفسه من الفرح ويلتفت الى صاحبه قائلا : والله لان تكون البلدان كلها على هذه الصفة احب الي مما طلعت عليه الشمس)[١٢٦].

وكثيرا ما كان عمر يقول : (ما وجدت من امر هو الذ عندي من حق وافق هوى)[١٢٧]. ذلك ان الحق كثيرا ما يكون طعمه كالعلقم، ومع ذلك لم يكن عمر ليتخلى عنه بحجة انه لا يستسيغ مذاقه، وحاشاه، واما اذا كان الحق مقترنا بهوى ذاتي، برغبة داخلية، بشوق عميق، فما اروعه من حق وما الذه !!

---

(١٢١) المصدر السابق ، ص ٥-٢٩٠.

(١٢٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٩-٢٠١.

(١٢٣) ابن الجوزي ، ص ٩٤.

(١٢٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢-٤٣.

(١٢٥) ابن الاثير : الكامل ٥-٦٥-٦٦.

(١٢٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٣١.

(١٢٧) ابن سعد ، ص ٥-٢٤٥.

وماذا عن العدل ؟ اسمعوه يقول (لوددت لو عدلت يوما واحدا وان الله توفي نفسي)[١٢٨]. وما اروع قول القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق وهو يصف عصر عمر : (اليوم ينطق كل من كان لا ينطق)[١٢٩]. وتلك هي قمة سامقة من قمم الحق والعدل : ان تطلق للكلمة حريتها .. ان يقول كل انسان ما يريد قوله .. ان يصرخ كل مظلوم بظلامته .. ان ينادي كل مغبون باعلى صوته .. ان ينطق كل من كان لا ينطق .. ويوم يتاح لكل انسان – في امة من الامم – ان يقول ما يشاء، فاعلم انها امة لا يمكن لاية قوة في الارض ان تهزمها لان كل فرد فيها يشعر بتوحده الوجداني والفكري بين الباطن والظاهر، ويتسع هذا التوحد ليشمل كيان الامة كلها: وجدانا وفكرا .. ويوم تحبس الكلمات في الصدور، ولا يتاح لها الانطلاق لاحقاق حق أو اشاعة عدل – في امة من الامم – فاعلم انها امة ستهزم للضربة الاولى التي تاتيها من خارج حدودها. لان الكلمات – وقد حبست في الصدور – بدات تحفر وتهدم في داخل كل انسان، في فكره وضميره ووجدانه، وسرعان ما يصيبه التمزق والازدواج .. ويتسع هذا التمزق وهذا الازدواج ليشمل كيان الامة كلها فكرا وضميرا ووجدانا، وما اروع عمر وهو يعبر عن هذه الحقيقة بوضوح (انما هلك من كان قبلنا بحبسهم الحق حتى يشترى منهم ! وبسطهم الظلم حتى يفتدى منهم !)[١٣٠]. ما اروعه وهو يوضح مدى ارتباط الحق بالقيم الدينية، وتهافت هذه القيم بضياع الحق (لم ار شيئا اعون للمسلم على دينه من اعطائه حقه)[١٣١]. ما اروعه وهو يدفع الناس دفعا الى الصراخ .. الى اخراج كلماتهم الحبيسة، الى النداء بكل ما يجيش في عالمهم الباطني .. الى تحديد مواقفهم بوضوح : ازاء سياسة الخليفة وبرامجه، ازاء كل انحراف يمكن ان يبدر منه عن قيم الحق والعدل .. ما اروعه وهو يدخل مسجد دمشق وينادي باعلى صوته : (ألا لا طاعة لنا في معصية الله)[١٣٢] ما اروعه وهو يلتفت الى عمرو بن مهاجر قائلا في نبرة توسل ورجاء (يا عمرو اذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي، ثم هزني، ثم قل لي: ماذا تصنع ؟!)[١٣٣].

أية قمة هذه يا حفيد ابن الخطاب ؟! ولكن مهلا .. تعالوا معنا لنصعد الى القمة السامقة التي ما بعدها قمة .. القمة التي تتقطع دونها انفاس الحاكمين، ويجلد من اجلها كل يوم في مشارق الارض ومغاربها آلاف المظلومين .. ها هو ذا عمر، وهو في قمة الكفاح من اجل

---

(١٢٨) المصدر السابق ، ص ٥-٢٩٦.

(١٢٩) المصدر السابق ، ص ٥-٢٥٤.

(١٣٠) ابن الجوزي ، ص ٢٠٧.

(١٣١) اليعقوبي : تاريخ ٢-٣٠٦.

(١٣٢) ابن سعد ، ص ٥-٢٥٣.

(١٣٣) ابن الجوزي ، ص ١٧٢.

الحق والعدل يعلن (أما بعد : فأيما رجل قدم الينا في مظلمة، او امر يصلح به خاصا او عاما من امر الدين، فله ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة دينار !! بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر، لعل الله يحيي به حقا او يميت به باطلا، او يفتح به من ورائه خيرا. ولولا اني اطيل عليكم واطنب .. لسمت امورا من الحق اظهرها الله وامورا من الباطل اماتها الله ... !!)[١٣٤]. هل لاحد ان يعلق، او يقول شيئا تجاه عمر وهو يحرك الناس ليقولوا كلماتهم ويعلنوا عن مواقفهم ؟ ليس اذن غير الاسلام – هذا المبدا الداخلي العميق – من يدفع الانسان السوي الى اجتياز درجات الحياة واحدة تلو اخرى في الطريق الى القمة، وليس – اذن – غير الاسلام ما يحيل حياة المسؤولين الى كفاح شاق، ولكنه لذيذ، من اجل التفوق والاستعلاء، بمجرد ان يضع امام المسلمين دوما صورة كالتي مرت بنا لاولئك الاجداد الحكام الذين اجتازوا الدرجات، صاعدين الى القمة، وهم ينافحون عن الحق والعدل الازليين!!

***

تلك قبسات من مواقف عمر ورؤاه لقيم الحق والعدل في ميدانها الواسع الفسيح، ميدان الحياة في شتى ارجائها وابعد امادها، وميدان النفس في اعمق اغوارها، واكثر منحنياتها غموضا وتعقيدا .. وما دام ذلك كذلك، فاحرى بقيم الحق والعدل هذه ان تبدو اكثر وضوحا في المؤسسات القضائية التي انيطت بها حراسة هذه القيم، والفصل في كل ما يتعلق بها على النطاق القانوني – الرسمي.

إن ابرز موقف يميز عمر هنا هو ان حرصه العجيب على ترسيخ قيم الحق والعدل جعله يتجاوز شكليات القضاء ومراسيمه صوب جوهر القضية. ان الحق يجب الا يذوب ويتلاشى ازاء هذه المراسيم والشكليات، وان اهم ما يجب على القاضي ان يضعه نصب عينيه هو التراجع عن احكامه في اللحظة التي يبدو فيها جانب جديد من جوانب القضية، كان مطموسا من قبل .. ان تاكيدات عمر بن عبد العزيز على ضرورة التراجع العادل هذا، تذكرنا بتأكيدات جده الشهير في ميدان القضاء. اسمعوا الحفيد يقول بكلمات قاطعة لا تقبل تأويلاً : (ما من طينة اهون علي فتا، ولا من كتاب ايسر علي ردا، من كتاب قضيت به ثم ابصرت ان الحق في غيره، ففتتها !!)[١٣٥]. ومرة تقدم رجل – كان عمر قد قضى عليه في احدى المسائل – قائلا : ان لي بينة غائبة. فاجابه عمر : اني لا اوخر القضاء بعد ان رايت

(١٣٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٣٧.

(١٣٥) ابن الجوزي ، ص ٧٥.

الحق لصاحبه، ولكن انطلق انت فان اتيتني ببينة وحق هو احق من حقهم فانا اول من رد قضاءه على نفسه[١٣٦].

وقيمة أخرى لا تقل اهمية، نلمحها بوضوح في فقه عمر للقضاء، القيمة التي لم يصل اليها القانون الغربي الا اخيرا، وبعد مئات السنين من الاخطاء والمظالم والاخذ بالظن، سقط عبرها الاف الضحايا، تلك هي (درء الحدود بالشبهات)[١٣٧]. ونكتفي هنا بتعليم واحد من تعليمات عمر بن عبد العزيز في هذا المجال .. يقول (ادرأوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة، فان الوالي اذا أخطأ في العفو خير من ان يتعدى في العقوبة)[١٣٨]. وهذا بدوره يذكرنا بمواقف ابن الخطاب الفريدة في ميدان القضاء ... او ليس الجد والحفيد يقبسان من مشكاة واحدة، هي مشكاة القرآن والسنة؟! المشكاة التي على ضوئها الوهاج ما ضاع يوما حق ولا اغتيل عدل ..

***

من اجل هذا، كان عمر بن عبد العزيز : مهدي الامة الاسلامية .. حلمها الذي كانت تنتظره منذ سنين .. الرجل الذي ملأ الارض عدلا، بعدما ملئت جورا وظلما !! .. الانسان الذي اعاد الى بني ادم قيم الحق والعدل التي عرفوها يوما على عهد الرسول وخلفائه الراشدين، واصبحت بالنسبة اليهم واقعا يجب ان يتحقق مهما طال الظلم والجور والانتظار ..!! عن نافع قال : كنت اسمع عبد الله بن عمر كثيرا ما يقول : (ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر، في وجهه علامة، يملا الارض عدلا ؟). وعن سالم الافطس : ان عمر بن عبد العزيز رمحته (اي ضربته) دابة، وهو غلام بدمشق، فجيء به الى امه، بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فضمته اليها وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ودخل ابوه عليها وهي على تلك الحال، فاقبلت عليه تعذله وتلومه وتقول : ضيعت ابني ولم تضم اليه خادما ولا حاضنا يحفظه من مثل هذا !! فقال لها : اسكتي يا ام عاصم، فطوباك اذا كان اشج بني امية!![١٣٩]. وروى ابن سعد في طبقاته ان سعيد بن المسيب سئل من قبل رجل : يا ابا محمد، من المهدي ؟ قال له سعيد : ادخلت دار مروان ..؟ قال الرجل : يا ابا محمد دخلتها فلم ار احدا يقول : هذا المهدي. قال سعيد : هل رايت الاشج عمر بن عبد العزيز القاعد على السرير ؟ قال : نعم. قال : فهذا هو المهدي[١٤٠]!!.

***

(١٣٦) ابن سعد ، ص ٥-٢٨٥.

(١٣٧) انظر فصل (ادر أو الحدود بالشبهات) من كتاب (قبسات من الرسول) لمحمد قطب.

(١٣٨) ابن الجوزي ، ص ١٠٣.

(١٣٩) الطبري ، ص ٦-٥٦٦.

(١٤٠) ابن سعد ، ص ٥-٢٤٥.

التجرد الكامل .. التقوى .. الحق والعدل .. تلك اذن مطامح امة كانت تنتظر منذ زمن بعيد عودة ابن الخطاب !! وها هو ابن الخطاب يعود، في شخص حفيده : عادلا .. متجردا .. خائفا من عذاب الله ..

ولنخرج – من ثم – من البيت، لنرى ماذا تصنع هذه التقوى، وتلك القسوة، التي كان عمر يعامل بها نفسه واهله وبنيه، وذلك التشبث الفريد بقيم الحق والعدل .. لنرى كيف يحيل الاشفاق من الله، والفطام عن اللذات، والسهر على موازين الحق والعدل : خليفة الدنيا، ليس الى حاكم قدير فحسب، بل الى قوة عجيبة تلوي عنق الانحراف، ويد ماهرة مكينة تصمد لتيار التاريخ وتوجهه – على عين الله ورعايته – وجهة جديدة، وتصبغ معطيات الانسان والشعوب والامم بصبغة الله ..

في سنتين وخمسة اشهر تمكن عمر بن عبد العزيز ان يصنع المعجزات .. ولو اتيح له ان يبقى سنين اخرى لصنع الكثير، ولاحدث اعظم انقلاب عرفه التاريخ، بعد الانقلاب الذي شهدته البشرية على عهد الرسول وخلفائه الراشدين. لكنه توفي – وربما اغتالته الايدي المشدودة الى الارض – وهو بعد في عنفوان الرجولة، وكان بامكانه ان يصنع الكثير الكثير، ما دام قد تمكن من نفسه هذا التمكن، وبلغ قمة المنحنى في هذا العمر المبكر ..

ولا علينا ان ننتظر من عمر ان يحيا اكثر من هذا، فتلك مشيئة الله وحكمته العليا .. ولنستعرض – من ثم – بعضا مما صنعته يداه المؤمنتان الماهرتان القويتان .. في انقلابه العجيب ..

الفصل الثانـي

الدعوة والحرب والسياسة

{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}

فصلت ٣٣ – ٣٤

على جبهات عديدة كان عمر بن عبد العزيز يكافح بهمة لا تعرف الكلل، وعزيمة ماضية لا توقفها قوة في الارض، وارادة مصممة جازمة تختار في اللحظات التي يضيع فيها الرجال. على الجبهات العسكرية والسياسية والاقتصادية والادارية والتعليمية كان عمر يعمل، وينافح عن الدولة الممتدة حدودها من الصين الى بحر الظلمات .. ينفذ مطاليب الشعوب، ويعمر الطرق والمؤسسات، ويطلرد الظلم والطغيان في كل مكان .. يغمد السيوف التي استلت دونما ضرورة كيلا تسفك قطرة دم واحدة، وتذهب هدرا وهو عنها مسؤول .. يعيد المالية والاقتصاد الى اطاراتها العادلة من القرآن والسنة كيلا تضيع في الارض البور قطرة عرق واحدة وهو عنها مسؤول .. يعزل الولاة، ويضع الحكام الجدد تحت مسؤولية ثقيلة قاسية تنوء بحملها طاقات الرجال .. يفاوض الشعوب بالحق والعدل، ويعطي للمعارضة البرهان الساطع لا السيف القاطع، ويتقدم الى العلماء – لاول مرة في تاريخ الفكر الاسلامي – ان يجمعوا ويدققوا ما قاله رسولهم العظيم قبل فوات الاوان ...!

ولكن قبل هذا كله، وبعد هذا كله، كان كفاح عمر، ووصله الليل بالنهار، ينصب على الجبهة الواسعة التي تتفرع عنها سائر الجبهات : جبهة العقيدة التي تعد – بلا جدل – الارضية الثابتة التي تحكم سائر التحركات والاصلاحات والانقلابات .. البستان الواسع الذي ينبت المؤمنين الذين يستطيعون ان يحيلوا الكلمة الى حياة، والحرف الى حركة، وبذور الانقلاب الى تاريخ وحضارة لا يزولان. ومن ثم ظل عمر – طوال فترة خلافته – يعمل لتحقيق مزيد من الانتصارات على جبهة العقيدة والدعوة : يعمق كلمة الايمان في القلوب والعقول، يمد الاسلام الى اراض جديدة وشعوب جديدة، بالحجة والاقناع .. يراسل القادة والحكومات والملوك يدعوهم الى الاسلام .. يرسل كبار فقهائه ليعلموا الشعوب الجديدة على الاسلام ابعاد عقيدة التوحيد، ويمدوا ابصارها الى الافاق البعيدة الحدود. ومن ثم – كذلك – نجد عمر على استعداد للتضحية باي شيء في الدولة في سبيل تحقيق نصر جديد في هذه الجبهة، رافعا حتى النهاية شعار : دولة العقيدة لا دوله الاحتراف، .. (الهداية لا الجباية) .. ولننظر :

ما ان بدأ عمر بتنفيذ برنامجه الواسع باسقاط الجزية عمن اسلم، حتى احس بعض عماله على الاقاليم ان هذه السياسة ستوجه ضربة قاصمة الى مالية الدولة. ولم يكن هؤلاء – والحق يقال – ينظرون الى ابعد من مستوى نظرهم، لانهم لم يدركوا ان عمر، باعادته النظام المالي الى اطر القرآن والسنة، وسوابق الراشدين وتطبيقاتهم، سوف ينجز انقلابا اقتصاديا فريدا، ويحدث اروع توازن مالي شهده عصر بني امية بين الموارد والمصارف. وليس لنا ان نستطرد هنا حول هذا الموضوع لان تفاصيله ستاتي في محلها .. والمهم هو ان بعض هؤلاء العمال اشفقوا على ميزانية الدولة ان يصيبها العجز اثر دخول الناس في الاسلام وسقوط الجزية عنهم،

وعن اولئك الذين اسلموا قبلهم. ويتقدم ايوب بن شرحبيل الاصبحي، والي مصر، يستاذن عمر في ان يعيد فرض الجزية على من اسلم، على الاقل في ولايته هو. ولكن عمر يجابهه بالقول الفصل : (ضع الجزية عمن اسلم، قبح الله رايك !! فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا، ولم يبعثه جابيا. ولعمري لعمر اشقى من ان يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه)[١٤١].

وفي خراسان، تتقدم بطانة السوء وذوو المصالح الخاصة من الجراح ابن عبدالله، عامل الامويين هناك، ان يمتحن الداخلين الى الاسلام بالختان، ليرى هل ان نفورهم من الجزية دفعهم الى اعتناق الاسلام ؟ ! ويكتب الجراح إلى عمر بذلك، فياتيه رده الحاسم :(ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا، ولم يبعثه خاتنا)[١٤٢]. ومن البصرة تجيئه رسالة عامله هناك : (... الناس قد كثروا في الاسلام وخفت ان يقل الخراج[١٤٣] ...) فيجيبه عمر (فهمت كتابك .. والله لوددت ان الناس كلهم اسلموا، حتى نكون انا وانت حراثين ناكل من كسب ايدينا)[١٤٤].

ومن ثم اخذ عمر يبذل مزيدا من الجهود لنشر دعوة الاسلام في اقطار الارض : فكتب الى ملوك الهند يدعوهم الى الاسلام والطاعة، على ان تبقى املاكهم واماراتهم بايديهم، ولهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم. وكانت سيرة عمر ومذهبه في الحكم والحياة قد بلغت هولاء، فاسلموا وتسموا باسماء العرب[١٤٥]. كما دفع برسائله ووفوده الى ملوك ما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام، فاستجاب له بعضهم، كما استجاب له كثير من اهالي تلك المناطق، فامر ببناء الخانات كي تكون لهم محطات ياوي اليها الغرباء والمسافرون والمنقطعون[١٤٦]. كما كتب الى (ليو) الثالث، امبراطور الروم، يدعوه الى الدخول في الاسلام[١٤٧].

وكان عمر مصرا على اختيار العمال الذين يلتزمون نفس السياسة التي تسير عليها الدولة، ويعملون تحت نفس الشعار الذي رفعه الخليفة الداعية :

(الهداية .. لا الجباية). وكان يامرهم بدعوة الناس الى الاسلام، وعمم عليهم كتابا جاء فيه ((.. ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة فقال (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) وقال (يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) .. فادع الى الاسلام، وامر

---

(١٤١) ابن سعد : طبقات ٥-٢٨٣، علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ، ص ٣٠٩.

(١٤٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦-٥٥٩-٥٦٠.

(١٤٣) يقصد – هنا – الجزية التي كانت تسمى احيانا : خراج الرأس.

(١٤٤) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٩٩-١٠٠.

(١٤٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٥٤٠ ، ابن الاثير : الكامل ٥-٤٥-٥٥.

(١٤٦) البلاذري ، ص٥٢٤، كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ٢-١٨٩.

(١٤٧) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ١٠٢(ترجمة : حسن ابراهيم حسن ورفاقه).

به، فان الله (سبحانه وتعالى) قال : (ومن احسن قولا ممّن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين ؟)[١٤٨] ومن ثم نشط عماله في الدعوة الى الاسلام، حتى ليقال ان الجراح – عامله على خراسان – تمكن من ادخال نحو من أربعة آلاف شخص في الاسلام[١٤٩]، وقدمت عليه وفود مناطق (التبت) يسالونه ان يبعث اليهم من يعرض عليهم الاسلام، فوجه اليهم السليط بن عبدالله الحنفي[١٥٠].

كما ولى عمر على المغرب اسماعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر فسار في البلاد احسن سيرة، ودعا البربر الى الاسلام. وكتب اليهم عمر – من جهته – كتابا يحضهم فيه على الدخول في الدين الاسلامي، فقراه اسماعيل عليهم، وبذل نشاطا ملحوظا في دعوتهم، بحيث دخل معظمهم الاسلام الذي غطى ارجاء المغرب كافة، وما لبث الخليفة ان ارسل اليهم عشرة من الفقهاء ليفقهوهم في امور دينهم[١٥١].

كانت مصلحة الشريعة – في دولة عمر – فوق كل اعتبار آخر، وحيثما حدث تصادم بين مصلحة الشريعة والمصلحة المالية، رجح الاولى دونما تردد .. كتب الى عروة بن محمد عامله على اليمن يقول ((.. انك كتبت الي تذكر انك قدمت اليمن فوجدت على اهلها ضريبة من الخراج، مضروبة، ثابتة في اعناقهم كالجزية. يؤدونها على كل حال ان اخصبوا او اجدبوا، وحيوا او ماتوا. فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين !! اذا اتاك كتابي هذا فدع ما تنكره من الباطل الى ما تعرفه من الحق، ثم ائتنف الحق فاعمل به، بالغاً وبك ما بلغ وان احاط بمهج انفسنا. وان لم ترفع الي من جميع اليمن الا حفنة من كتم، فقد علم الله اني بها مسرور اذا كانت موافقة للحق))[١٥٢].

***

عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كانت زهرة قوات المسلمين تحاصر القسطنطينية دون جدوى. الشتاء ببرده وثلوجه يصب نقمته على جندهم في البر والبحر، والجوع يتاكلهم من الداخل، بعد ان قام قائدهم مسلمة بن عبد الملك باحراق الميرة ليدفع قواته الى هجوم حاسم ضد معقل القسطنطينية العظيم. وما ان بدا هجومهم حتى استدرجهم الامبراطور البيزنطي

---

(١٤٨) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ٩٤.

(١٤٩) ابن سعد ٥–٢٨٥، ارنولد ، ص ١٠٢.

(١٥٠) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢–٣٠٢.

(١٥١) البلاذري ، ص ٢٧٣، ارنولد ، ص ٣٥١.

(١٥٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٢٣.

الجديد (ليو) قريبا من الاسوار، وصب عليهم حمما من النار اليونانية فاحرقت سفنهم، وفتكت بعدد كبير منهم، وشتّتت هجومهم الموحد.

كانت هذه القوات قد بدأت مهمتها منذ العام الماضي (٩٨هـ) حينما حشد سليمان بن عبد الملك قوات تبلغ الثمانين الفا لتحقيق الهدف الذي عجز عن تحقيقه سلفه معاوية بن ابي سفيان، الا هو الاستيلاء على مفتاح اوروبا الشرقي، والانسياح من هناك الى اعماق القارة. ولكن كل هذه المحاولات ذهبت عبثا ازاء مناعة اسوار القسطنطينية واحاطتها بالبحر من ثلاث جهات. وها هي الحملة الكبرى تلاقي مصيرا اشد قسوة من مصير ما سبقها من حملات، حتى يضطر جندها من شده الجوع الى اكل الدواب!!

ويتولى عمر الخلافة، فهل يرضى لاخوته وابنائه ان يموتوا هناك، دون جدوى، وهو الذي بلغ حسه بالقرآن درجة عجيبة، ووعى اياته وعيا عميقا، ومنها تلك التي تقول **{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }** (البقرة ، الآية ١٩٥)؟! هل يرضى عمر لقواته ان يمزقها الجوع، وتحرقها النار اليونانية، ويشلها البرد والزمهرير، ويسحقها الياس والغربة، دونما امل قريب او بعيد في تحقيق النصر؟ ان منطق القادة العسكريين لتتبدى روعته ليس في الاصرار على هجوم غير مجد، وتقديم الناس قرابين لاهداف كالسراب. ان منطق هؤلاء القادة يتعرض لامتحانه الخطير في لحظات الهزيمة هذه، وان القائد الحصيف ليجتازه بمهارة عجيبه.

لقد كان بامكان خالد بن الوليد (رضي الله عنه)، في معركة مؤته، ان يخوض بالمسلمين، بعد هزيمتهم امام الروم، ومقتل قوادهم الثلاثة، معركة انتحارية، ويقدم جنده قرابين للدعوة التي جاءوا يحملون راياتها الى مشارف امبراطورية الروم. ولكن حصافته منعته من هذا، وهيات له نظرته الثاقبة خطة للانسحاب، والحفاظ على ارواح جند شاءت حكمة الله، وبراعة سيفه المسلول، ان يلعبوا دورهم فيما بعد، في معركة الثار التي قادها اسامة بن زيد بعد زمن قصير. ولو تمكن نابليون وهتلر – على سبيل المثال – من تامين انسحاب منظم لقواتهما الحاشدة في روسيا، عبر ساعات الهزيمة المرة والبرد والجوع والموت، لكان لتاريخهما وجهة جديدة ومصير آخر.

وعمر، وهو يسوس امته من دمشق، كان بامكانه ان يقدم على مزيد من المجازفات، على امل ان التاريخ سيسجل في يوم عظيم : ان عمر بن عبد العزيز تمكن من كسر الباب الشرقي لاوربا، وفتح الطريق امام خيول المسلمين تطا بسنابكها جهات القاره الاربع !! ولكن عمر لم يكن يريد امجادا من هذا النوع، فهو مسؤول عن كل قطرة دم تراق في سبيل اهداف بعيدة المنال. ومن ثم يرسل الى القائد مسلمة بن عبد الملك – دونما تردد – يامره بالعودة بمن

بقي معه من القوات. ولكي يؤمن انسحابهم وجه اليهم – على جناح السرعة – خيلا عتاقا وطعاما كثيرا. وحث الناس – عبر الطرقات التي ستمر منها القوات المنسحبة – ان يساعدوهم ويقدموا لهم ما يحتاجون اليه[١٥٣].

ولم يقف عمر عند هذا الحد، بل راح يراقب اوضاع المسلمين في الثغور التي كانت، طوال السنين الماضية، اهدافا لضربات البيزنطيين، بالنظر لطبيعة موقعها المتوغل في بلاد الاعداء. وراح الخليفة – يتخذ من الاجراءات ما ينسجم واستراتيجيته الجديدة. فسعى الى هدم حصن (المصيصة) وترحيل اهله عنه لما كانوا يقاسونه من الروم. الا انه توفي قبل اتمام مشروعه هذا[١٥٤]. وقام باجراء حاذق بالنسبة لموقع (طرندة) الذي نزله المسلمون واقاموا فيه مساكنهم، رغم توغله في بلاد الروم واحاطته باراض لا يقطنها سوى جماعات من اهل الذمة والارمن. وكانت (ملطية) القريبة منه خرابا لا يسكنها سوى غير المسلمين من اهل الذمه والارمن كذلك. وقد دفعت هذه الاوضاع الصعبة في المنطقة، الى ان تخرج سنويا قوة من جند المسلمين من الجزيرة، فتقيم في طرندة صيفا لحمايتها، وما ان يحل الشتاء وتبدا الثلوج بالتساقط، حتى تقفل هذه القوة عائدة الى قواعدها في الجزيرة. وما ان تولى عمر الخلافة حتى قام بترحيل اهل طرندة – رغم معارضتهم – لاشفاقه عليهم من العدوّ، بعد أن امرهم باتلاف كل ما لا يستطيعون حمله من المؤونة كيلا يفيد الروم منها. ومن ثم تم تخريب طرندة ونقل اهاليها الى ملطية التي عين عليها واليا جديدا. وبهذا غدا المسلمون هناك في موقف اكثر سلامة من ذي قبل[١٥٥]. واذ كانت اللاذقية عرضة لهجمات الروم، امر عمر ببنائها وتحصينها واستكمال اسبابها الدفاعية[١٥٦].

ولكن هل يعني هذا ان عمر ، بمواقفه هذه من البيزنطيين كان يعبر عن الجانب السلبي من قضايا الحرب ؟ وهل سيترك الروم يرتاحون، وتتاح لهم فرصة من الهدوء والاستقرار تمكنهم من تحشيد قواتهم لرد الكرة على المسلمين ؟ هل سيبقى الروم – هكذا – دونما تهديد او ردع لينهشوا اراضي الدولة من الشمال، ويضعوا ايديهم على ثغورها واحدا بعد الاخر ؟ لا .. طبعا .. فها هو عمر يسير على نفس النظام العسكري الذي وضعه معاوية بن ابي سفيان : نظام (الصوائف والشواتي)، ذلك الذي يجعل المبادرة العسكرية بايدي المسلمين دائما ازاء الروم عن

---

(١٥٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦–٥٥٣، ابن خياط : تاريخ ١–٣٢٦.

(١٥٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٩٨.

(١٥٥) المصدر السابق ، ص ٢٢١.

(١٥٦) المصدر السابق ، ص ١٥٧.

طريق ارسال حملات نظامية موسمية في كل صيف وشتاء لغزو بلاد الروم، وعدم اتاحة اي مجال لهم في التحول الى الهجوم !!

وهكذا .. فما ان حل الصيف حتى ارسل عمر الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي على رأس قوات الصائفه صوب بلاد الروم[١٥٧]. وشبيه بهذه الاستراتيجية ما قام به المسلمون في الاندلس، حيث انطلقوا من قواعدهم هناك وفتحوا مدينة (نربونة) في فرنسا وقاموا بتحصينها[١٥٨]، كي تكون بمثابة خط دفاعي متين يحمي اراضيهم في شمال اسبانيا، وكي يعطيهم هذا المركز المهم في فرنسا عنصر المبادرة والقدرة على التحرك في الاراضي الفرنسية في أي وقت يشاءون.

واذن، فموقف عمر من (مشروع فتح القسطنطينية) لا يعبر ابدا عن سلبية في ميدان القتال، وانما يعبر عن بعد نظر وحصافة لا يتمتع بها الا القلة التي تدرك الامور ببصيرة نافذة وحرص عميق على دماء الناس وارواحهم. وهذا الحرص يتّضح – ثانية – في ساحة اخرى لها خطرها، تلك هي ساحة الغزو والفتوح. فليس احرص من عمر على نشر الاسلام، واسقاط نظم الكفر، واتاحة حرية الاعتقاد للامم والشعوب المضطهدة .. ولكنه ما دام قد تمكن، بدبلوماسيته واتصالاته السلمية، ان يحقق هذا الغرض، وان يقنع قادة وملوك وزعماء الاقوام غير المسلمة بالاسلام، وما دام عدد كبير من هؤلاء قد استجاب لهذا الاسلوب السلمي واعتنق الاسلام، او اتاح لشعبه – على الاقل – حرية الاعتقاد .. فلا ضرورة – اذن – لاستخدام السيف للاطاحة برؤوس الطغيان الذين يقفون جدرانا كالحه امام نور الاسلام، ويصدون، عن طريق خنق الحريات، عن سبيل الله ويبغونها عوجا. ومن ثم يرسل عمر الى عبد الرحمن بن نعيم، عامله على المشرق، يامره بارجاع ما وراء النهر من المسلمين (المحاربين) بذراريهم، فيأبى هؤلاء، ويكتب عبد الرحمن الى خليفته بذلك، فيرد عليه عمر (اللهم اني قد قضيت الذي علي، فلا تغز بالمسلمين، فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم)[١٥٩].

ومع ذلك فان اي عدوان على اراضي ومواطني الدولة الاسلامية في عهد عمر، كان يجابه بالردع العنيف الحاسم، كيلا يعود المتربصون الى الاعتداء مرة اخرى. ففي عام تسع وتسعين اغار الترك على اذربيجان، وقتلوا جماعة من المسلمين، وفتكوا بالسكان، فوجه اليهم

---

(١٥٧) انظر : الطبري، أحداث عام (٩٩هـ).

(١٥٨) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها، حاشية ٢ ، ص ٢٦١.

(١٥٩) الطبري ، ص ٦-٥٦٨.

عمر حاتم بن النعمان الباهلي، فقتل عددا من اولئك المغيرين، ولم يفلت من يديه الا اليسير، وما لبث ان قدم بالاسرى الى الشام ليعرضهم على الخليفة[١٦٠].

واذن فهو البطش في ساعات البطش، والراي والمكيدة في اللحظة التي يختل فيها ميزان القوى المنظورة، اسوة برسوله العظيم.

فاذا كان هذا موقف عمر ازاء اعداء الدولة الذين يتربصون بها من الخارج، فكيف به ازاء المسلمين انفسهم في الداخل، اولئك الذين انضم عدد غير يسير منهم الى الكتل والاحزاب التي كات تعمل منذ عقود طويلة على ضرب الدولة الاموية والاستئثار بالحكم، تلك الكتل والاحزاب التي اوجدتها ظروف الفتنة الكبرى منذ عهد عثمان (رضي الله عنه)، ثم ازدادت عنفا وتطرفا وانغلاقا اثر استئثار بني امية بالحكم، وراحت تقارعهم بالنار والحديد. وعبر هذه المقارعة غير المجدية سقط عشرات الآلاف من الضحايا وسحقت طاقات هائلة كان بمستطاعها ان توجه امكاناتها نحو البناء في الداخل، واسقاط انظمة الطاغوت والشرك في الخارج .. وعلى اية حال فان هذه الاحزاب ما كانت لتجد غير السيف خلال عهود عدد من حكام بني امية لم يشاءوا ان يلجاوا ولا ان يلجأ خصومهم الى المنطق والحكمة والموعظة الحسنة. وكانت الظروف تنتظر من يتيح الفرصة للراي والمناقشة الحره لا للرماح والسيوف، من يعيد امة القرآن الى وحدتها وتالفها وانسجامها.

ويجيء عمر، هذا الخليفة الراشد، فيبدا بايقاف كافة المحاولات التي كان بعض عمال بني امية وموظيفهم يستفزون بها العلويين، ويعيد المنابر الى وظيفتها الاصيلة، فيمنع التهجم من فوقها على احد من ال البيت، ويحل محلها الآية القرآنية **{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }** (النحل، الآية ٩٠)[١٦١]. وهكذا يستن عمر سنة رائعة باختياره هذه الاية التي تعبر تماما عن الاهداف الكبرى التي سعى لتحقيقها : نشر العدل والاحسان .. ومطاردة الفحشاء والمنكر والبغي في اي مكان كان وبأي شكل كان. وهكذا – ايضا – يحسم عمر، بالمرونة السياسية لا بالحرب والقوة، عداء العلويين لبني امية، ويتيح للطرفين ان يلتقيا على صعيد الحب والاخاء تحت راية العدل والاحسان.

ولم يكتف عمر بهذا الاجراء الادبي، بل تقدم خطوات صوب اعادة الحقوق المالية والاجتماعية للعلويين، فامر بتوزيع الخمس على بني هاشم[١٦٢] ورد منطقة (فدك) الى ولد

---

(١٦٠) المصدر السابق ٦-٥٥٣-٥٥٤، ابن خياط ١-٣٢٦.

(١٦١) المسعودي : مروج الذهب ٣-١٨٣-١٨٤، ابن طباطبا : الفخري ، ص ١١٧.

(١٦٢) ابن سعد : طبقات ٥-٢٨٦، اليعقوبي: تاريخ: ٢-٣٠٥-٣٠٦.

فاطمة (رضي الله عنها)[١٦٣]، وكتب الى عامله في المدينة : ان اقسم في ولد بن ابي طالب (رضي الله عنه) عشرة آلاف دينار. فلما اجابه عامله بان ولد علي موزعون على قبائل شتى من قريش، ففي ايهم يكون العطاء ؟ رد عليه عمر بمنطقه الذكي السريع : (لو كتبت اليك في شاة تذبحها، لكتبت الي : اسوداء ام بيضاء ؟ اذا اتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة الاف دينار، فطالما تخطتهم حقوقهم)[١٦٤].

وسرعان ما ابدى العلويون رد فعلهم الايجابي ازاء هذا الموقف المفتوح من عمر، فاجتمع نفر منهم وكتبوا الى عمر كتابا يشكرون له فيه ما فعله معهم من صلة ارحامهم .. فاجابهم : (قد رأيت قبل اليوم هذا .. فلما وليت هذا الامر تحريت به الذي اظنه اوفق)[١٦٥]. وعلق محمد بن علي الباقر : ان لكل قوم نجيبة، وان نجيبة بني امية عمر بن عبد العزيز، وانه يبعث يوم القيامة وحده[١٦٦]. وقالت فاطمة بنت الحسين بن علي : لو كان بقي لنا عمر ما احتجنا بعهده إلى احد!! [١٦٧].

ويعلن الخوارج (الحرورية) في العراق ثورة جديدة ضد بني امية، ولعلهم لم يكونوا قد ادركوا بعد، ابعاد الاهداف التي جاء عمر لتحقيقها، والتي كان برنامجهم السياسي ينص عليها. يثور الخوارج فلا يسرع عمر باشهار السيف ولكنه يلجا الى سلاح المنطق والبرهان، خاصة وان الخلاف ليس خلافا بين ايمان وكفر، ولا صراعا بين دار اسلام ودار حرب، بل هو بي قطاعين من الامة الاسلامية نفسها، وحرام ان تسفك قطرة دم واحدة لمسلم يشهد ان لا اله الا الله بيد مسلم اخر. ومن ثم يرسل عمر الى عبد الحميد، عامله على العراق، يامره ان يدعوهم الى العمل بكتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، فهذه الدعوة هي القول الفصل. الا ان هؤلاء لم يستجيبوا لدعوته. ولما لم يجد – عبد الحميد – بدا من استخدام القوة ازاء تمرد مسلح يشكل خطرا على وحدة الدولة والامة، ارسل اليهم جيشا تمكن الخوارج من دحره. وبلغ عمر ذلك وهنا – في لحظة كهذه – يتبدى – مرة اخرى – منطقة الايجابي في السياسة والحرب، ويقدم للتاريخ مثلا جديدا على هذه الايجابية التي لا تدع معالم الامور تبهت، ولا قيم الحق تضيع، باسم الرغبة في الموادعة والسلم، فها هو عمر – بعد ان بلغه نبا انهزام قوات عامله – يسرع فيرسل الى الخوارج مسلمة بن عبد الملك على راس جيش من اهل الشام، ويكتب الى عبد الحميد

---

(١٦٣) اليعقوبي ٢-٣٠٥-٣٠٦.

(١٦٤) المسعودي ٣-١٨٤-١٨٥.

(١٦٥) ابن سعد ٥-٢٨٦.

(١٦٦) ابن الاثير : الكامل ٥-٦٢.

(١٦٧) المصدر السابق ٥-٦٥.

(قد بلغني ما فعله جيشك، جيش السوء، وقد بعثت مسلمه فخل بينه وبينهم). ويتقدم مسلمة على راس قواته الى حيث يعسكر الخوارج وتدور بين الطرفين معركة تنتهي بانتصار قائد عمر بن عبد العزيز !![١٦٨].

ان اضطرار عمر الى استخدام العنف ازاء فئة من الخوارج، لم يدفعه ابدا الى تعميم اسلوب العنف هذا تجاه كل الخوارج. انه يعلم أن خصمه ما دام مستعدا للحوار، فلا داعي ابدا لاراقة الدماء. ويذكر ابن الجوزي كيف ان جماعة من الخوارج دخلوا عليه يوما واخذوا يناقشونه في بعض القضايا، فاشار اليه بعض اصحابه ان يرعبهم ويتغير عليهم، فرفض ذلك، ولم يزل يرفق في نقاشه مع هؤلاء الخوارج حتى اخذ عليهم كل حجة، ورضوا منه ان يرزقهم ويكسوهم ما بقي خليفة !! وخرجوا وهم على هذا الاتفاق، وما ان غادروا المكان حتى التفت عمر الى احد اصحابه قائلا : اذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلا تكوينه أبداً!![١٦٩]. وتلك غاية الحكمة : ان يجادل المسلم خصمه بالحكمة والموعظة الحسنة ما لم يضطره الخصم الى رفع السيف. كذلك دخل عمر في نقاش مفتوح مع جماعة ادعوا التكذيب بالقدر[١٧٠]، ولم يضطره الموقف المنحرف لهؤلاء عن خط الفكر الاسلامي الى استخدام العنف ما داموا مستعدين للحوار.

ولقد حان الوقت – ونحن نتكلم عن دور عمر في ميدان الحرب والسياسة – لاستعراض موقفه الرائع من ثورة خارجية اخرى، لنرى كيف يجب ان تسود الحكمة والموعظة الحسنة، لا السيف والحديد، بين ابناء الامة الواحدة. ولنرى ايضا – حسبما توحيه الروايات والقرائن – كيف ان عمر دفع حياته ثمنا لموقفه العظيم هذا.

ففي العام المائة للهجرة اعلن الخوارج – في منطقة الجزيرة الفراتية – ثورتهم ضد الدولة الاموية بقيادة (بسطام اليشكري) المعروف باسم (شوذب) فكتب عمر الى عامله على العراق (الا تحركهم الا ان يسفكوا دما، او يفسدوا في الارض فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلا صليبا حازما فوجهه اليهم، ووجه معه جندا، واوصه بما أمرتك به)[١٧١]. ارأيتم ؟! ان عمر، في هذه الكلمات المعدودات يعبر عن روح الخلافة الراشدة (لا تحركهم الا ان يسفكوا دما، او يفسدوا في الارض. فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك) حرص عجيب على السلم والاعمار، وعلى عدم اثارة اي سبب يثير فسادا في الارض او يسفك قطرة من دم. ثم .. واذا ما تطورت الامور

---

(١٦٨) الطبري ٦-٥٥٥.

(١٦٩) سيرة عمر ، ص٦٢.

(١٧٠) المصدر السابق ، ص ٦٨-٦٩.

(١٧١) الطبري ٦-٥٥٥-٥٥٦.

لغير صالح الاعمار والسلام، وتدهورت صوب منحدرات الافساد والدماء، فان (رجلا صليبا حازما) لا ضعيفا مسالما، هو الذي يجب ان يتصدى لها، ويعيد الحق – بمنطق القوة – الى مكانه الراسخ، بعد اذ لم يعد بمنطق البرهان.

عقد عبد الحميد اللواء لمحمد بن جرير البجلي في الفين من اهل الكوفة واعطاه التعليمات التي تلقاها عن عمر. ولم يقف الخليفة الراشد عند هذه الخطوة بل كتب الى (شوذب) يدعوه الى السلم ويساله عن سبب خروجه. ووصل الكتاب بعد ايام .. فضه شوذب وقرأ : (.. انه بلغني انك خرجت غضبا لله ولنبيه ولست باولى بذلك مني !! فهلم اناظرك فان كان الحق بايدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وان كان في يدك نظرنا في امرنا)[١٧٢] وكان هذا الكتاب هو غصن الزيتون الذي ينتظره شوذب، فامر بوقف تحركات قواته وكتب الى عمر (قد انصفت !! وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك).

التقى المندوبان بعمر بن عبد العزيز في دمشق، وجرى النقاش في جو ودي هادىء، وراح عمر – بما عرف عنه من ذهن متوقد وفقه عميق – يرد الحجة بالحجة، ويقرع البرهان بالبرهان. وسرعان ما اقتنع احد المندوبين المتناظرين بان عمر على صواب، وقال للخليفة (ما سمعت كاليوم قط حجة ابين واقرب مأخذاً من حجتك، اما انا فاشهد انك على الحق، وانا برىء ممن برىء منك). ويلتفت عمر الى الاخر : (وانت ما تقول) فيجيب (ما احسن ما قلت وابين ما وصفت ! ولكن لا افتئت على المسلمين بامر حتى نعرض عليهم قولك فانظر ما حجتهم ؟)[١٧٣] وتستمر المناظرة، بعد هذا، بعمق وبيان ووضوح، وتبلغ مرحلتها الحرجة عندما يسالان عمر :

(اخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك ؟).

– صيره غيري ..

– افرايت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته الى غير مامون عليه، اتراك كنت اديت الامانة الى من ائتمنك ؟

تلك اذن هي المشكلة .. الوراثة وولاية العهد .. تلك القاعدة التي سار عليها بنو امية منذ عهد معاوية، ولم يشذ عنها الا عمر نفسه لحكمة ارادها الله (سبحانه وتعالى). فماذا يكون الجواب؟ ان هذين يقولان ما يسنده القرآن في التاكيد على الشورى والانتخاب الحر، فكيف يرضى وهو الخليفة الراشد بان ينصب بعده وليا للعهد دون مشورة المسلمين ؟ وعمر – هذا الانسان الذي يحرص على الحق والعدل – لم يلجا ابدا ازاء هذا السؤال الخطير الى المداورة

---

(١٧٢) المصدر السابق ٦–٥٥٥–٥٥٦.

(١٧٣) المسعودي : مروج الذهب ٢–١٣٠–١٣١، ابن عبدالحكم ، ص ١٢٧–١٣١.

والمناورة في امر لا يحتمل المداورات والمناورات. فيطلب من المتفاوضين ان يمهلاه ثلاثة ايام[١٧٤].

مضى احد الرسولين الى شوذب ليطلعه على ما دار في هذه المناقشات الحرة .. اما عمر .. فمن يدري ؟ ! لعله اخذ يمهد – خلال هذه الايام الثلاثة – لاعطاء الخوارج جوابه العملي !! ومن يدري ؟ لعله بدا خطواته الحازمة للاطاحة بالنظام الوراثي واعلانها شورية حرة للامة الاسلامية كعهدها ايام الراشدين. كل ما تذكره الروايات – تخمينا – ان بني مروان خافوا ان يخرج عمر ما عندهم وما في ايديهم من الاموال، وان يخلع يزيد، فدسوا اليه من سقاه سما، فلم يلبث ان مات في نفس اليوم الذي تقرر ان يعطي فيه جوابه للمتفاوضين[١٧٥].

***

ولم يكن موقف عمر من اهل الذمة، وهم مواطنون قبل كل شيء، اقل انفتاحا من موقفه من الكتل والاحزاب الاسلامية. ورغم بعض الاجراءات الشكلية التي اتخذها ازاءهم، ورغم ما ادعته بعض المصادر الغربية في هذا الصدد، فان موقف عمر منهم كان يمثل قمة من قمم العدل والمساواة السياسية لغير المسلمين في عهد بني امية. ولا داعي هنا لاستعراض الاجراءات الاجتماعية والاقتصادية التي اتخذها عمر ازاء اهل الذمة، ويمكن الرجوع اليها في اماكن اخرى من هذا البحث[١٧٦]. الا ان الذي يهمنا هنا هو رد فعل هذه الفئة من المواطنين ازاء موقف عمر، رد الفعل الذي هو القول الفصل في سياسة عمر تجاههم. تذكر احدى الروايات ان عمر عندما مرض ارسل الى احد النصارى وساومه حول شراء موضع قبره. فاجابه النصراني : (والله يا امير المؤمنين اني لاتبرك بقربك وبجوارك، فقد احللتك من الثمن)، فابى عمر الا ان يدفع[١٧٧]. وفي رواية اخرى يذكر ابن الجوزي ان عمر بعث بدينارين الى اصحاب احد الاديرة، قائلا لهم : ان بعتموني موضع قبري والا تحولت عنكم. فاجابوه : لولا انا نكره ان تتحول عنا ما قبلناه[١٧٨]. وذكر الامام الاوزاعي انه مر بقنسرين اثر تشييع عمر فسأله احد الرهبان : اشهدت وفاة هذا الرجل ؟ فاجابه : نعم. فارخى الراهب عينيه تبكيان سجاما. فقال له الامام : ما يبكيك ولست من اهل دينه ؟ اجاب الراهب، والدموع تنهمر على خده وتبلل لحيته الوقور : اني لست

---

(١٧٤) الطبري ٦-٥٥٥-٥٥٦.

(١٧٥) الطبري ٦-٥٥٦.

(١٧٦) انظر بشأن مواقف عمرالعادلة من نصارى دمشق وكنائسهم : البلاذري ١٤٧-١٤٩.

(١٧٧) ابن الجوزي ، ص ٢٨٢.

(١٧٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٢.

عليه ابكي، ولكن ابكي على نور كان في الارض فطفئ[١٧٩]. ويشير ابن الجوزي وغيره من المؤرخين الى ان بعض الرهبان كانوا يسمون قبره (قبر الصديق)[١٨٠].

ألا يكفي هذا ؟ اذا لم يكف فهاكم حكم صاحب كتاب (الصلة لتاريخ ايزيدور)، الفصل الثامن والثلاثون، على عمر بن عبد العزيز باللاتينية (.. كان – عمر – رجلا له من الرقة والحلم ما استحق له التقدير والثناء حتى من الاباعد. وقد نال من ذلك ما لم ينله حي يطمح الى الملك)[١٨١].

***

كانت العصبية القبلية تشكل اشد الاخطار السياسية التي تهدد الدولة الاموية بالانهيار والزوال، ذلك انها تمثل تمزقا داخل القاعدة العربية الشاميه التي اعتمدها الامويون في اقامة دولتهم، وتثبيت ملكهم. فكل الانشقاقات التي حدثت في كيان الدولة، كثورات الخوارج والعلويين والزبيريين وبعض القادة الطموحين، لم تكن تشكل الخطر الذي يوازي خطر العصبية القبلية. ذلك ان جميع هذه الثورات كانت بمثابة انشقاقات (خارجية) في نظر الامويين الذين استندوا الى قوة عسكرية من الشاميين كانوا يضربون بها كل ثائر على دولتهم. ولكن معركة مرج راهط عام ثلاث وستين للهجرة، بين القيسيين واليمانيين، مزقت الشاميين انفسهم الى كتلتين وبدا الشام يشهد صراعا عنيفا بينهما للوصول الى اعلى المناصب والاستئثار بالسلطان. ولم يشا خلفاء بني امية الذين سبقوا عمر بن عبد العزيز – والذين اعقبوه كذلك – اطفاء نار هذه الفتنة، بل زادوها اشتعالا عن طريق تاييد فئة دون فئة، وعشيرة دون عشيرة للاعتماد عليها في الوصول الى الحكم والبقاء فيه. وكان لهذا التمزق الداخلي اكبر الاثر – فيما بعد – في سقوط الدولة الاموية.

ويجيء عمر بن عبد العزيز، فيتصدى لهذه المشكلة السياسية، كما تصدى لغيرها من المشكلات، بذكاء وحصافه وبصيرة نافذة تستمد هداها من كتاب الله وهدي رسوله العظيم وسيرة خلفائه الراشدين. فيؤكد ضرورة الوحدة بين جميع المسلمين، ويتشدد ازاء كل محاولة من شانها ان تؤدي الى تمزق – من اي نوع كان – في كيان المجتمع الاسلامي الذي يجب ان يكون (كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ومن هنا نجد الخليفة يقف موقفا صلبا، ويصدر تحذيراته ووعيده ازاء المحاولات التي شهدتها الجزيرة العربية، والتي استهدف اصحابها اشعال نار العصبية القبلية والنخوة الجاهلية، واعلان الحروب بين القبائل العربية نفسها تحت راية العصبية التي لعنها الرسول (عليه السلام).

---

(١٧٩) المصدر السابق ، ص ٢٨٩.

(١٨٠) المصدر السابق ، ص ٢٩٠.

(١٨١) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ، ص ٣٠٠ ، وهامش ٢ من نفس الصفحة.

ان الخليفة – بعد ان اطفا نار الفتنة في قلب الدولة : الشام – تلفت – بحذر شديد – ليطفئها في اي مكان اخر، قريب او بعيد، تريد ان تطل براسها منه. ومن ثم ما ان وصلته انباء الفتن التي اثارها بعض رؤساء القبائل في جزيرة العرب حتى اسرع بارسال رسالة – يسودها الوعيد والتهديد – الى عامله هناك : الضحاك بن عبد الرحمن. وقد بداها بشرح مفصل بين فيه فضل الاسلام في توحيد القبائل العربية تحت راية واحدة، ودور الرسول (صلى الله عليه وسلم) في اطفاء نار الفتنة الجاهلية بين شتى القبائل، وضرورة التمسك بالوحدة التزاما بالاية الكريمة **{ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }** (القصص ، الآية ٨٣) .. ثم يقول موجها خطابه الى قادة الفتنة (... واني احذركم هذا القرآن، فان تباعته وشروطه قد اصابكم منها – ايتها الامة – وقائع من هراقة دماء، وخراب ديار وتفرق جماعات. فانظروا ما زجركم الله عنه في كتابه فازدجروا عنه .. ان ما هاجني على كتابي هذا امر ذكر لي عن رجال من اهل البادية، ورجال امروا حديثا، ظاهر جفاؤهم، قليل عملهم بامر الله ... وذكر لي ان رجالا من اولئك يتحاربون الى ان حصروا اليمن، يزعمون انهم ولاية على من سواهم .. قاتلهم الله اي منزلة نزلوا، ومن اي مكان خرجوا، و باي امر لصقوا. ولكن قد عرفت ان الشقي بنيته يشقى، وان النار لم تخلق باطلا !! او لم يسمعوا قول الله في كتابه : **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }** (الحجرات ، الآية ١٠)... وقد ذكر لي مع ذلك ان رجالا يتداعون الى الحلف، وقد نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الحلف فقال (لا حلف في الاسلام)، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الاسلام الا شدة، فكان يرجو احد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الاسلام حين انخلع منه. وانا احذر كل من سمع كتابي هذا، ومن بلغه، ان يتخذ غير الاسلام حصنا، او دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، تحذيرا بعد تحذير، واذكرهم تذكيرا بعد تذكير، واشهد عليهم الذي هو اخذ بناصية كل دابة، والذي هو اقرب الى كل عبد من حبل الوريد. واني لم آلكم بالذي كتبت به اليكم نصحا، مع اني لو اعلم احدا من الناس يحرك شيئا ليؤخذ له به، او ليدفع عنه، احرص – والله المستعان – على ذلته كائنا من كان : رجلا او عشيرة او قبيلة او اكثر من ذلك. فادع الى نصيحتي وما تقدمت اليكم به، فانه هو الرشد ليس له خفاء. ثم ليكن اهل البر واهل الايمان عونا بالسنتهم، وان كثيرا من الناس لا يعلمون ...)[١٨٢].

ذلك اذن هو الاسلوب الذي يفهمه الاعراب الباحثون عن الفتنة، وهو الاسلوب الذي خاطبهم به القرآن الكريم، ومارسه معهم الرسول الكريم، وجابههم به ابو بكر الصديق، وكان

---

(١٨٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٠٣-١٠٦.

يجب ان يوقفهم عند حدهم في فتنتهم ضد الخليفة عثمان رضي الله عنه، عندما ساروا – كالقطعان الهائجة – وراء بعض رؤوس اليهود والمجوس وعشاق المناصب .. وها هو عمر بن عبد العزيز يستخدم معهم ذات الاسلوب .. اسلوب الخليفة الراشد الذي يحرص على وحدة المسلمين، وامنهم واستقرارهم، ويقف متحديا كل من يحاول تمزيق هذه الوحدة، ونشر الذعر والخوف : رجلا كان ام عشيرة، ام قبيلة ام اكثر من ذلك ..

***

ان معالم الخلافة الراشدة لتتبدى في كل فاعلية يقوم بها الخليفة، وتصبغ كل قطاع يضع فيه خطواته .. انها كالعين الدفاقة الثرة في وجدان الخليفة، تسقي الموات، وتروي ظما النفوس، وتزرع الايمان في القلوب، دون ان ينضب لها معين او يجف لها قرار .. ان الخلافة الراشدة تتميز عن حكم المحترفين في انها تصدر عن عقيدة، ولكي تحفظ صفتها العقائدية هذه، يجب ان تظل على ايجابيتها وفاعليتها المتمثلة بالدعوة والارشاد، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومطاردة الفساد !! ليس على سطح الارض فحسب، بل في داخل النفوس ومسارب القلوب والوجدان، وان تشد الناس الى الايمان والتقوى، وتدفعهم صعدا في طريق الاحسان.

ان الخلافة الراشدة، تسعى الى بناء دولة العقيدة، والتقدم بها خطوات الى الامام عن طريق صنع القاعدة المسلمة، وصياغة الانسان المسلم. فبدون هذا الانسان، وتلك القاعدة، لا تكون هناك دولة ايمانية ولا خلافة راشدة .. ومن ثم فان هذا الانسان المسلم وهذه القاعدة الايمانية لا يقتصر على جماعة دون جماعة، ولا يخص فئة دون فئة .. فالدولة الاسلامية بحاجة الى الجندي المسلم والقائد المسلم، كما انها بحاجة الى الاداري المسلم والديبلوماسي المسلم، وهي بحاجة الى الاقتصادي المسلم والمربي المسلم .. وهكذا .. في كل مساحات الحياة، وحيثما عمل الناس او تولوا عملا .. على الخلافة الراشدة ان تصنعهم وترشدهم على عين الله ورعايته. وهكذا نجد عمر – هذا الخليفة الراشد – يعمل في كل هذه الجبهات، ويوجه رسائله وتعليماته الى القائد والجندي، والى العامل والقاضي، والى العالم والمربي، وهدفه من وراء ذلك كله ان يبني القاعدة الايمانية، وان يحفظ صفاءها ويجلو ايمانها ويفتح بصيرتها على ماهو معروف وما هو منكر .. فهذا العمل من القاعدة، وهذا التوجيه والتقويم من الداخل هو الذي يقيم الدول ويشيد الحضارات ..

ونحن ها هنا اذ نستعرض بعض منجزات عمر في ميدان الحرب والسياسة، لابد من استعراض بعض رسائله في هذا المجال : مجال بناء القائد والمقاتل المسلمين !! وهي رسائل تلقي في نفس الوقت، ضوءها الباهر، على ثقافة عمر العسكرية، وبعد نظره في شؤون الحركة والسوق والحرب، ورغبته الاكيدة في ان يكون القتال (عملا انسانيا)!!، ولنقرأ معا، ونتأمل رسالته

التي وجهّها الى منصور بن غالب حين بعثه لقتال اهل الحرب ... يقول (... أمره في ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من امر الله، فان تقوى الله من افضل العدة، وابلغ المكيدة واقوى القوه. وامره ان لا يكون من شيء من عدوه اشد احتراسا منه، لنفسه ومن معه، من معاصي الله، فان الذنوب اخوف عندي على الناس من مكيده عدوهم (!!) وانما نعادي عدونا وننتصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم، لان عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم (!!) فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا افضل منا في القوة والعدد. فان لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلب عليهم بقوتنا (!!) ولا تكونوا لعداوة احد من الناس احذر منكم لذنوبكم، ولا تكونوا بالقدرة لكم اشد تعاهدا منكم لذنوبكم. واعلموا ان معكم من الله حفظة عليكم، يعلمون ما تفعلون في مسيرتكم ومنزلكم، فاستحيوا منهم واحسنوا صحابتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله، وانتم زعمتم في سبيل الله (!!) ولا تقولوا ان عدونا شر منا، فلن يسلطوا علينا وان اذنبنا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم بذنوبهم (!!) فأسالوا الله العون على انفسكم كما تسالونه النصر على عدوكم .. وامره ان يرفق بمن معه في سفرهم، ولا يجشمهم مسيرا يتعبهم فيه، ولا يقصر بهم عن منزلة يرفق بهم حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقض من قوتهم. فانما يسيرون الى عدو مقيم، جام الاهبة والكراع. فان لا يرفقوا بانفسهم وكراعهم في مسيرهم، يكن لعدوهم فضل في القوة عليهم (اي ببقائه محتفظا بطاقته ووسائل حربه، وميرته) ..

وأمره ان يقيم – ومن معه – في كل جمعة يوما وليلة يكون لهم راحة يجمّون فيها انفسهم وكراعهم، ويرمون اسلحتهم وامتعتهم. وامره ان ينحي في منزله عن قرى الصلح، فلا يدخلها احد من اصحابه، لسوقهم وجماعتهم، الا من يثق بدينه وامانته على نفسه، ولا يصيبوا منها ظلما، ولا يتزودوا منها اثما، ولا يؤذوا احدا من اهلها بشيء، الا لحق، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها. فما صبروا لكم ففوا لهم، ولا تستنصروا على اهل ارض الحرب بظلم اهل الصلح، فلعمري لقد اعطيتم مما يحل منهم ما يغنيكم عنهم. فلم اترك لكم خللا في العدة، ولا رقة في القوة، فتظاهرت واكتفت لكم العدد، وانتخب لكم الجند .. وبسطت لك افضل ما بسطت لغاز : فلم اجعل لك علة في التقوية!! .. وامره ان تكون عيونه ممن يطمئن الى نصيحته وصدقه من اهل الارض، فان الكذوب لا ينفع خبره وان صدق في بعضه، وان الغاش عين عليك وليس بعين لك ...)[١٨٣].

ان الخليفة الراشد يؤكد هنا، وقبل كل شيء اخر، ان النصر الخارجي فوق الارض لا يتحقق الا بعد انتصار المسلم في الداخل .. في كيانه ووجدانه، وإلّا بعد ان يخوض معركة الجهاد الاكبر مع النفس كي يغدو انتصاره على الاعداء بعد هذا سهلا ميسورا، بعد انتصار

---

(١٨٣) ابن عبد الحكم ، ص ٨٤–٨٧.

المقاتل على طيشه ونزواته، على رغباته الذاتية وشهواته. فبعد ان يقطع الانسان المسلم كل الخيوط التي تشده الى الاسفل، وتربطه بالارض، بعد ذلك ينطلق، خفيفا سريع الحركة، قويا عميق الايمان.

وعمر بن عبد العزيز يقدم هنا التفسير الايماني لفتوح المسلمين وانتصاراتهم المذهلة على قوى تفوقهم بكثير في العدد والعدة وطاقات الارض .. فاذا ما تنازل المسلم عن غناه الداخلي هذا، عن كنزه الذاتي، وايمانه ويقينه فسوف يخسر حتما، معركة على الارض لا يمتلك فيها من الوسائل ما يصمد به ازاء جبروت الاعداء. وهذا النقاء الباطني للمحارب المسلم، وهذه الرغبة العميقة في تحقيق اهداف اكبر من مصالح الافراد ورغباتهم، هي التي تعطي للمسلم (الحق) وتدمغ العدو (بالباطل) (فان لا ننصر عليهم بحقنا لا نغلب عليهم بقوتنا) و(فان الذنوب اخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم!!).

ثم تاتي بعد هذه القاعدة (المرشدة)، توجيهات رائعة تمتزج فيها القيم الانسانية – التي رسخها الاسلام حتى في سوح القتال – بفن الحركة والسوق والاستخبارات. وهي توجيهات يستقيها عمر – هنا – من جده بن الخطاب في كتابه الشهير الذي ارسله الى قائده سعد بن ابي وقاص، فحقق هذا به المعجزات. ثم ان عمر بن عبد العزيز يبرز من خلال توجيهاته هذه كالاب الذي ينظر الى جند المسلمين جميعا كابناء له، يسعى الى راحتهم ويحرص على عدم القذف بهم في المتاعب، وتضييعهم في المتاهات !!

وفي رسالة اخرى، الى امراء الاجناد، تتوالى ارشادات عمر وتوجيهاته لبناء المقاتل المسلم المثقف الملتزم بالنظام والطاعة، حيث نجده يحثهم فيها على المحافظة على الصلوات في اوقاتها، والعناية بالمدارسة ونشر العلم[١٨٤]. ورسالة ثالثة الى عامله على البصرة (ان العرفاء من عشائرهم بمكان، فانظر عرفاء الجند، فمن رضيت امانته لنا ولقومه فاثبته، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه، وابلغ في الامانة والورع)[١٨٥].

وجوانب اخرى من حصافة عمر(القائد) والمامه بقضايا الحرب والقتال، تبدو في تعليماته العسكرية التي كان يوجهها الى قادته باستمرار. كتب الى احدهم قائلا : اذا دخلت الصائفة فلا تتركن احدا يدخل في اثر – المسلمين الا في قوة وجماعة من الرجال والخيل والعدد[١٨٦]. وكان عمر يدرك ان هذه القوات الاسلامية المتوغلة في اراضي العدو لابد ان تسلك اسلوب التجمع والحذر كيلا تضرب على حين غفلة، او تنتقص اطرافها بليل. فكان يطلب منهم (ان ياخذ

---

(١٨٤) ابن عبد الحكم ، ص ٨٠–٨١ وانظر الندوي: رجال الفكر ، ص ٣٩–٤٠.

(١٨٥) ابن سعد ٥–٢٩٣ ، وانظر ابن الجوزي ، ص ٩١–٩٣.

(١٨٦) ابن سعد ٥–٢٦٠.

بعضهم ببعض حتى يرجعوا جميعا، او يعطبوا جميعا)[١٨٧]. وبعث الى عمرو بن قيس قائده على الصائفة يقول (يا عمرو لا تكن اول الناس فتقتل فينهزم اصحابك، ولا تكن آخرهم فتثبطهم وتجبنهم، ولكن كن وسطهم حيث يرون مكانك، ويسمعون كلامك)[١٨٨].

كما تميز عمر القائد بحرصه العجيب على الجندي المسلم، وحمايته من الضياع، والسعي الى استرداده من الرق والاسر مهما كلف الثمن. وكان الخليفة – باسلوبه هذا – يشعر المقاتل االمسلم باهميته، وفوق ذلك بان الدولة بكاملها تقف وراءه وتحميه من الضياع، وان الخليفة الاب هناك يحرسه ولا يفرط باهله واطفاله .. ان مقاتلا كهذا سيؤدي واجبه العسكري على احسن ما يكون، وسوف يقتحم المخاطر والاهوال، ناظرا دوما الى الامام دون ان يلتفت ولو مرة واحدة، الى الخلف، لان اليد التي دفعته الى الجبهة هي يد القائد الاب التي تابى التفريط بالمقاتل، اليد المستعدة ان تبذل من اجله الكثير.

كتب عمر الى اسرى القسطنطينية (اما بعد، فانكم تعدون انفسكم اسارى. معاذ الله !! بل انتم الحبساء في سبيل الله. واعلموا اني لست اقسم شيئا بين رعيتي الا خصصت اهليكم بأوفر نصيب واطيبه. واني قد بعثت لكل منكم بخمسة دنانير، ولولا اني خشيت – ان زدتكم – ان يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم !! وقد بعثت فلانا بن فلان ينادي صغيركم، وكبيركم وذكركم وانثاكم، وحرّكم ومملوككم بما سئل به، فابشروا ثم ابشروا، والسلام عليكم)[١٨٩] كما بعث الى قائده على الصائفة يامره بان يغادي من قدر عليه من المسلمين وارقائهم واهل ذمتهم[١٩٠]. ووجه رسالة الى امبراطور الروم في فداء اسرى المسلمين، ولكن ذلك لم يتم[١٩١] وفادى مرة رجلا من المسلمين بعشرة من الروم!![١٩٢] وبعث بمبلغ من المال الى ساحل عدن، وطلب من حامله ان يفتدي الرجل والمراة والعبد والذمي[١٩٣]. وكتب الى عماله ان فادوا باسارى المسلمين، وان احاط ذلك بجميع اموالكم[١٩٤].

---

(١٨٧) المصدر السابق ٥–٢٦١.

(١٨٨) المصدر السابق ٥–٢٧٢.

(١٨٩) ابن عبد الحكم ، ص ١٦٣–١٦٤.

(١٩٠) ابن سعد ٥–٢٧٢.

(١٩١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٧.

(١٩٢) ابن سعد ٥–٢٦٠.

(١٩٣) المصدر السابق ٥–٢٦٠.

(١٩٤) ابن الجوزي ، ص١٠٠.

وفوق هذا وذاك كان الخليفة يلحظ الحاجات النفسية والبيولوجية للمقاتلين، ويدرك ضرورة عودتهم الى بلادهم واهليهم حينا بعد حين، ولذلك حدد فترة المرابطة في الثغور باربعين يوما يعود بعدها الجنود الى بلادهم واهليهم[١٩٥].

(١٩٥) ابن سعد ٥-٢٦١.

الفصل الثالث

الاقتصاد والمال

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ...}

الاعراف ٩٦

عندما تضيع العقيدة، وينقطع التلقي عن خالق الملكوت ومدبره، ويصر الانسان على الاعتماد والاخذ عن مصادره الذاتية المقفلة المحدودة، ويتنازل – بجحود وانكار – عن المصادر الحقيقية الكبرى لمعرفته ورؤاه .. انذاك ستصيبه اللعنة التي حكمت – على طول التاريخ – كل الوضعيين والعلمانيين .. السنة التي تقوم على قاعدة انه ليس بعد الحق اليقيني الواضح الثابت الا الضلال والضياع والتخبط في الظلمات.

إن البشرية، متمثلة بحفنة من زعمائها، ظلت، وتظل وستظل، تدور في الحلقة المفرغة دون ان تجد طريقها الى الخلاص. ذلك ان الذي يعيش في الظلمة لا يستطيع ان يفجر النور، والذي يقعده العجز عن التطلع الى الافاق البعيدة ليرى، لا يستطيع ان ينقل خطاه من مناطق الظلال الباردة المعتمة الثقيلة .. ان ضياع العقيدة، يعني – ببساطة – ان الانسان قرر جهلا وعنادا – الانشقاق عن النظام الذي يسير الكون والعالم، واعلن العصيان ضد النواميس الكبرى التي تهب المخلوقات طريقها الواضح وهدفيتها ومصيرها. انه ما دام قد اختار (العصيان) فلابد ان يضل وان ينتظر قارعة العذاب تدمر وجوده، او تحل قريبا من داره.

إن هذا الضلال يتبدى، اول ما يتبدى، بانقطاع المصدر الحقيقي للمعرفة والرؤية .. ومن ثم فما دام الانسان قد تنازل – هكذا – عن هذا المصدر فان عليه ان يبحث عن مصدر اخر يجد باضوائه طريقه ومصيره .. ولكنه لن يجد هذه الاضواء ابدا .. ذلك ان طاقة الانسان محدودة، ونوافذ حسه ووجدانه وعقله لا تتفتح على الكون الا بمقدار .. تماما كاذن الانسان وعينه اللتين لا تستطيعان ان تنفتحا على اصوات واضواء على درجة قصوى من القوة، انهما انذاك اما ان تتعطلا عن العمل كلية، او ان يصيبهما التمزق والتلف. واذن، ففي حالة كهذه، اختارها الانسان المنكود بنفسه، لن يضيع الطريق الذي تعبر عنه الاديان (بالصراط) فحسب، لن يظل يدور في حلقة مفرغة لا مخرج منها فحسب، بل ان الاشياء – وهذا هو الانكى – لن تعرض ذواتها الحقيقية، والقيم لن تبدو بحجمها الحقيقي، وسيصاب الانسان – كما يقال – بعمى الالوان حيث لن يستطيع مهما اوتي من عزيمة وعلم، ان يضع الاشياء في اماكنها، وان يعطي القيم حق قدرها، وان يميز طبائع الموجودات وينسقها وفق بنيتها والوانها، ووفق ما يجب ان تكون عليه، لكي تفتح له كنوزها، وتسنده وهو يصعد في الطريق ..

نقول هذه الكلمات بين يدي ما صنعه عمر بن عبد العزيز في جبهة الاقتصاد .. هذه الكلمة التي احالها سوء الفهم، والوضعية، والانقطاع عن الله، الى عملاق مخيف يجثم على وجود الناس ويوجههم كما يشاء هو لا كما يشاءون .. ان تقويم (الاقتصاد) ووضعه في مكانه الذي يجب ان يحتله في ميدان الحياة البشرية، لم يعد ممكنا الان للاسباب التي سلفت. فما دام

هذا القطاع اشد القطاعات حسية واكثرها قربا من وجود الانسان المباشر، فسوف يعطيه الوضعيون قيمة اكبر من قيمته الحقيقية، ويفردون له مساحة اكبر بكثير من مساحته الحقيقية.

ظل التقييم الخاطىء هذا للاقتصاد ينمو ويتضخم حتى بلغ الامر باصحاب المدرسة المادية الى القول بانه الحتمية الوحيدة في تاريخ البشرية، وانه هو وحده !! الذي يتحكم في صنع وجود الناس وتشكيل مصيرهم. اما من يتحكم به (هو)، ومن يجعله يتنقل من مرحلة الى مرحلة ومن تكوين الى تكوين فيقولون ان (ديناميكيته) الذاتية وحركته الجبرية هي التي تنقله عبر هذه المراحل والتكوينات. والانسان ؟! الانسان ليس الا سنّا في العجلة الاقتصادية الكبيرة التي تدور وتدور، ومن المحتم ان يدور معها الانسان سرعة وابطاءا بناء على طبيعة الوجود القائم. والروح، والارادة والتعقل، والقيم والاعراف الاجتماعية، والرغبات الشخصية، والطموح السياسي، والعرقية ؟ اين هي ؟ هذه جميعا ليست سوى نتائج او صور تعكسها مراة الاقتصاد التي تحيط بالكون من اقطاره الاربعة !!

وليست خلافة عمر بن عبد العزيز الا مثلا من التاريخ المشهود للرد على هذا التقويم الخاطىء، وانارة الطريق للمتخبطين في الظلمات، المقطوعين عن الله .. سنتان وخمسة اشهر تمكن عمر خلالها ان يبين للعالم كيف يتمكن المسؤول الذي يتلقى من الله ويستمد من شريعته، ان يوجه الاشياء والاحداث كما يشاء، وان يلوي عنق التاريخ بالاتجاه الذي يريد، وان يضع القيم والموازين لكل الاشياء والموجودات والفاعليات التي هياها الله (سبحانه وتعالى) للانسان كي يسعد، ويتطور، وينسجم مع نواميس الكون. ليست خلافة عمر القصيرة تلك، سوى صورة حية للانسان الذي يستمد من الله، فتنفتح رؤاه وتغمر الانوار طريقه، فيروح يتنقل من مرحلة الى مرحلة، ومن افق الى افق صاعدا صوب القمم العليا التي تتقطع دونها اعناق الوضعيين وتغشى عبرها ابصارهم، وتتبدد رؤاهم القاصرة المحدودة.

إن عمر بن عبد العزيز ينظر هنا، فلا يرى في حياة الناس الاقتصادية ونظمهم المادية هذه الا جانبا واحدا من جوانب التعبير عن مدى تمسك المسؤولين بقيم الحق والعدل، عن مدى تجردهم للكفاح دون هذه القيم، او الانسياق وراء رغباتهم الذاتية ومصالحهم القريبة ولذاتهم العابرة، حيث تسقط فكرتا الحق والعدل هاتين. ومن ثم فان اعادة الامور الى نصابها – في هذا المجال كما في غيره من المجالات – سوف تتحقق دون ريب بمجرد عودة المسؤولين الى مسؤوليتهم وتجردهم، وتسخير طاقاتهم لتحقيق هذه القيم ومطاردة الظلم والباطل المتمثلين بالاستغلال والاضطهاد والتحكم والاثراء على حساب الاخرين، والتزلف الى ذوي السلطان ..

وغيرها كثير من الدوافع الداخلية التي تدفع الانسان الى تشكيل النظام الاقتصادي وفق الشكل الذي يحقق له هذه الرغبات والامتيازات[١٩٦].

واذن فان عمر – كأي حاكم راشد – سيعرف الطريق الى تشكيل النظام الاقتصادي الكفيل باعادة الحق والعدل الى نصابهما، وتوزيع الطاقات الكونية المادية على أبناء الامة بالحق والعدل، ونشر السعادة والرفاهية على مدى المجتمع الاسلامي بدلا من الظلم والاستغلال والتحكم. وهذا الطريق واضح لان معالمه محددة بالقرآن والسنة، وبسوابق الخلفاء الراشدين .. وليس على عمر اذن الا ان يكشف من جديد عن روح هذا النظام، ويعيده الى توجيه هذا الجانب الحيوي من وجوده الامة. ليس عليه سوى ان يستلهم الروح التي هيات لهذا النظام تطبيقا عمليا رائعا قدم للبشرية اروع مثل للعدالة والسعادة الاجتماعية والرفاهية، وقضى على كل مظاهر الاستغلال والاضطهاد. وما دام عمر يمتلك الايمان العميق والتقوى الاصيلة والبصيرة النافذة، فقد تهيا له اذن ان يستلهم تلك الروح وان يستعيد ذلك التطبيق، وان يحدث انسجاما عجيبا بين النظام والواقع الذي اثقلته انحرافات المسؤولين السابقين وملاته بالعقبات والسدود. وفيما يلي استعراض لبعض جوانب منجزات عمر في هذا المجال، والنتائج التي ترتبت عليها.

في هذا المجال – كما في المجالات الاخرى – يبدأ عمر من الداخل – كأي حاكم راشد – من داخل نفسه ووجدانه اولا، وداخل اهله وبيته ثانيا، وداخل بلاطه ثالثا، طارحا شعار (انه لينبغي ان لا أبداً بأول من نفسي)[١٩٧] ثم يتنقل بعد هذا الى الخارج لينشر العدل على الجميع، بعد ان كان قد اجتاز امتحانا قاسيا في التجرد الكامل عن الاهواء والاستغلال وتنمية المصالح القريبه باي شكل كان[١٩٨]، فهذا هو الطريق الذي سلكه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه من بعده : كانوا يبيتون الليالي الطوال جائعين، يشدون الاحجار على بطونهم الخاوية من اجل

---

(١٩٦) لابد ان نفرق – في اية دراسة للاقتصاد – بين جانبين : جانب النظام الاقتصادي والجانب الفني التطبيقي. وقد تبين كيف ان (النظام) هو وليد رغبات الانسان الباطنية وطبيعة التزام المسؤولين بواجبهم. أما الجانب الفني التطبيقي كانتقال وسائل الانتاج من الشكل الاقطاعي الزراعي الى الرأسمالي التجاري الى الصناعي .. فهو ليس سوى جانب من جوانب التطور العلمي الدائم الذي تشهده البشرية، والذي يشكل حصيلة تجارب الاباء والاجداد، وهذا التطور لاعلاقة له البتة بالنظم والمبادىء، كما انه لا يحمل في ذاته اية حتمية مذهبية اللهم الا حتمية التطور العلمي القائم على تجميع التجارب .. والا فاية حتمية دفعت (جيمس واط) الى اكتشاف البخار و(اديسون) الى اكتشاف الكهرباء و(كريستوف كولمبس) الى الانطلاق الى امريكا ؛ الا ان تكون الرغبة في الاكتشاف وتطوير الوسائل القديمة واضافة منجزات علمية جديدة، الرغبة التي هي ليست اكثر من دافع غريزي داخلي ..

(١٩٧) ابن الجوزي : سيرة عمر ، ص ١١١، ابن سعد : طبقات ٥–٢٥١–٢٥٢.

(١٩٨) انظر الفصل الاول : المنخى النفسي.

ان تشبع امة المسلمين .. كانوا في ايام الضنك والمجاعة لا ياكلون الا ما ياكله سائر الناس كي يشعروا بشعورهم ، ويتحسسوا تجربتهم، ويسرعوا في ايجاد الحلول لبؤسهم وضنكهم. ويطلب الصحابة من عمر بن الخطاب، ايام المجاعة، ان يتخلى عن اكل الزيت وحده، فقد اضعفه وبسر وجهه، وهو الخليفة الذي يجب ان يطعم ما يمكنه دائما من تحمل اعباء مهامه التي لا تنتهي، فيجيبهم (وكيف يعنيني امر المسلمين اذا لم يمسني ما يمسهم ؟) .. ومرة اجتاز الرسول (عليه السلام) طريقا في المدينة فتقدم منه بعض الصحابة، مصفري الوجوه، مرهقي الخطوات، وشكوه الجوع، ولكي يؤكدوا له مدى ما فعله باحشائهم، كشفوا عن بطونهم فاذا بكل واحد منهم قد شد عليها قطعة من الحجر يسكت بها جوعة الاحشاء .. فيبتسم الرسول العظيم ويكشف عن بطنه فاذا به قد سبقهم وشد على بطنه قطعتين من الحجارة ؟!. ومرارا عديدة كان كبار اغنياء الصحابة يتخلون عن ثرواتهم التي كدحوا من اجلها السنين الطوال، يتخلون عنها كليا، ويبداون نشاطهم من جديد .. وهذا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يشتري احد الابار من يهودي بآلاف الدراهم كي يشرب المسلمون، وفي عام مجاعة قاسية يتبرع لاهل المدينة بقافلة تحمل شتى أنواع البضائع والماكولات، بعد ان كان التجار قد تهافتوا عليها طالبين منه ان يبيعهم اياها بضعف ثمنها، ولكنه يردهم قائلا ان هناك من اعطاه اكثر من هذا .. فيتدرجون معه في رفع الثمن، ويتدرج معهم بان هناك من اعطاه اكثر، وعندما يعييهم النزال يقول لهم والابتسامة تعلو وجهه : ان هناك من اعطاني عشرة امثالها !! ويتنازل عنها للمسلمين .. وفي غزوة تبوك يجهز وحده جيش (العسرة) بما يحتاج اليه من ميرة ووسائل ركوب ...

ينظر عمر بن عبد العزيز الى هذه الصور، وغيرها كثير، تنساب في مخيلته فتهز وجدامه اعجابا واجلالا .. ذلك هو الطريق اذن .. ان يبدأ الانقلاب – في عالم المادة – من الداخل، من داخل النفس والوجدان، ومن داخل الاهل والبيت والولد، وانذاك فقط، سيتمكن الحاكم المسؤول ان يعلم اجهزة الدولة واداريها الطريق الذي يجب عليهم ان يسلكوه لتحقيق العدل والغاء الاضطهاد والاستغلال الغاءا .. ومن لم يستجب منهم فان عمر سيعرف كيف يفطمه عن الملذات !! هذا في الوقت الذي لقيت فيه كل المبادىء والنظم التي مشت الى اهدافها من الخارج، فشلا ذريعا، وتناقضا واضحا، وازدواجا بينا بين الوقائع والاهداف .. تلك المبادىء التي كانت تدعو الى اشد انواع العدل والمساواة، ولكن اصحابها كانوا – لخوائهم وتأكيدهم على القيم البرانية – قد احاطوا انفسهم بالقصور والمركبات الفخمة والارصدة الجارية في المؤسسات الكبرى .. وذلك هو مفرق الطريق بين النظام الذي ينبثق عن الاسلام، ويستند الى قيم متغلغلة في اعماق الوجدان الانساني، وبين النظام الغربي ترسمه عقول وضعية، ونزوات عابرة، ورغبات تافهة في الظهور والاستعلاء. ان النظام الاسلامي – بناء على ذلك – سيجد طريقه دائما الى

الواقع، محتفظا بوحدته وتفرده دون ان يصاب بالازدواج. ولكن المبادىء الوضعية ما ان تضع خطواتها الاولى على الطريق حتى تصاب بالانقسام (الافلاطوني) بين الواقع والمثال. فالمثال يقدم للكادحين صورا رائعة لجنات عدن التي سيدخلها الجميع، والواقع يشهد مزيدا من المكاسب والاموال تتدفق في جيوب الحاكمين، ومزيدا من الفقر والضنك وفقدان الضمانات تحاصر الكادحين الذين اتخذوا سلالم للصعود !!

إن روعة امتحان التجرد الداخلي من الوسائل المادية في حياة عمر بن عبد العزيز لتتبدى كعجيبة من عجائب الايمان الذي يصنع البطولات. فقد راينا كيف كانت حياته في شبابه: تدللا وترفها وتنعما وتانقا وتظرفا، حياة محاطة بكل انواع النعيم المباح. وها هو اليوم ينقلب على هذه الحياة، ويختار الطريق الصعب والتجربة القاسية. ان هذا الاختيار كان لابد منه في نظر خليفة راشد كعمر بن عبد العزيز، اذا ما اريد لمبادىء العدل الاجتماعي الاسلامي ان تتحقق. ولكن .. ايكتفي عمر باجتياز هذا الامتحان وحده ؟ فاين اجهزة الدولة الاخرى اذن ؟ وماذا سيفعل حزب بني امية، والولاة، وكبار الموظفين ببرنامج عمر، اذا لم يجتازوا، هم ايضا، طريق التقشف الذي اجتازه عمر ؟ ان اجهزة الدولة ستصاب بالتصدع والخلل لوحدث وبقي هؤلاء جميعا دون ان يجتازوا امتحانهم هذا، وان برنامج الخليفة سوف لا يجد مجاله الطبيعي قبل ان يتمكن كل المسؤولين عن العدالة من ان يفطموا نفوسهم وينجحوا في الامتحان. والذين سيفشلون منهم، فان الخليفة يستطيع استبدالهم بما في الامة من خامات ايمانية وطاقات مخلصة. فلم يكن تورع عمر اذن – كما يقول الندوي (مقتصرا على ذاته – كما يفعل كثير من الزهاد – بل كانت سياسة عامة كان يريد ان يطبقها تطبيقا دقيقا على الدولة ورجالها. فكان يطلب منهم ويعزم عليهم ان يكونوا متورعين في اموال المسلمين، لا ينفقون منها الا القدر اللازم، وان يكونوا اشحة على انفسهم، اسخياء على المسلمين – بخلاف ما تجري عليه الحكومات هذا اليوم – وكان حريصا على ان يوفر على المسلمين اموالهم، ويعتقد ان الدرهم دم فلا يجوز ان يجري في غير عروقهم، ولا يرى ان يضيع في (الكماليات) و(الشكليات))[١٩٩]. (الدرهم دم فلا يجوز ان يجري في غير عروقهم)، ذلك اذن هو شعار الخليفة العادل، وهذا هو تقويمه لكدح الامة، وحرصه على الا يعود الا اليها!! وليبدأ اولا بالاقربين من بني امية، اولئك الذين استنزفوا الكثير من اموال الدولة لحسابهم الخاص، ليبدا بهم اولا، فهذا هو منطق العدل الاجتماعي في الاسلام : ان يبدا الانسان بنفسه واهله ثم ينتقل مباشرة الى قومه وعشيرته، قبل ان يضع خطوة واحدة في الخارج.

---

(١٩٩) ابو الحسن علي الحسني الندوي : رجال الفكر والدعوة في الاسلام " ط٢ ، ص ٣٤.

وتشهد الايام الاولى من خلافة عمر[٢٠٠] تجريدا واسع النطاق لكثير من اموال واملاك بني امية، ظلت تنمو في الماضي وتتضخم لكونهم الحزب الحاكم ليس الا .. وها هي الان ترد الى بيت مال المسلمين لكي ياخذ العدل مجراه، وتعود اموال المسلمين الى المسلمين، لا يستاثر بها احد دون احد، ولا حزب دون حزب .. اموال واملاك من شتى الصنوف والانواع، جمعت بمختلف الطرق وسائر الاساليب، جرد عمر بني امية منها، ومزق مستنداتها واحدة واحدة، وردها الى مكانها الصحيح : مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطائع، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة بلغت في تقدير عمر شطرا كبيرا من اموال الامة جاوزت النصف[٢٠١]. ولا تمضي سوى ايام معدودات حتى يجد بنو امية انفسهم مجردين الا من حقهم الطبيعي المشروع. فيضجون ضد سياسة عمر هذه ويعلنون معارضتهم الصارمة لها. فماذا يكون جواب عمر. انظروا : (والله لوددت ان لا تبقى في الارض مظلمة الا ورددتها، على شرط الا ارد مظلمة الا سقط لها عضو من اعضائي اجد المه !! ثم يعود كما كان حيا !! فاذا لم يبق مظلمة الا رددتها سالت نفسي عندها!!)[٢٠٢]. ولكن بني امية لم ييأسوا من هذه الفدائية النادرة ازاء حقوق الامة، وهم الذين ما خطر ببالهم يوما ان يجردوا هذا التجريد ... ومن ثم يجتمعون ويدفعون احد ابناء الوليد الى كتابة رسالة شديدة اللهجة ضد سياسة عمر .. ويجيء رد عمر على الرسالة، حمم من نار الحق تتفجر من كل كلمة فيها (... ويلك وويل ابيك ! ما اكثر طلابكما وخصمائكما يوم القيامة .. رويدك فانه لو طالت بي حياة، ورد الله الحق الى اهله، تفرغت لك ولاهل بيتك، فاقمتكم على المحجة البيضاء .. فطالما تركتم الحق وراءكم. ومما وراء هذا ما ارجو ان يكون خير راي ابته : بيع رقبتك فان لكل مسلم فيك سهما في كتاب الله!!)[٢٠٣].

وما ان ييأس بنو امية من صمود عمر ازاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه، حتى يلجاون الى اسلوب الحوار الهادىء، علهم يصلون عن طريقة الى ما يشتهون، فيتكلمون معه يوما مستثيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم، فيجيبهم :(لا يتسع مالي لكم، واما هذا المال – اي المال العام – فحقكم فيه كحق رجل باقصى برك الغماد، فلا يمنعه من اخذه الا بعد مكانه. والله اني لأرى ان الامور لو استحالت حتى يصبح اهل الارض يرون مثل رايكم لنزلت

---

(٢٠٠) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ، ص ٥٨–٥٩ ، ١٤٧–١٥١.

(٢٠١) ابن الجوزي ، ص ١١٥.

(٢٠٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٤٧–١٥١.

(٢٠٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٤٧–١٥١.

بهم بائقة من عذاب الله)[٢٠٤]. ويدخل هشام بن عبد الملك على عمر يوما ويقول : يا امير المؤمنين اني رسول قومك اليك، وان في انفسهم ما جئت لاعلمك به انهم يقولون : استانف العمل برايك فيما تحت يدك، وخل بين من سبقك وبين ماولوا، بما عليهم ولهم. وببديهة كخطف الشهاب يجيب عمر : ارايت ان اتيت بسجلين احدهما من معاوية والاخر من عبد الملك، فباي السجلين اخذ ؟

هشام : بالاقدم ..

عمر : فاني وجدت كتاب الله الاقدم !! فانا حامل عليه من اتاني ممن تحت يدي، وفيما سبقني!![٢٠٥].

واذ يعجز الرجال من بني امية عن جعل عمر يرق او يلين عن سياسته ازاءهم، يلجاون الى النساء، ويدفعون اليه عمته فاطمة بنت مروان. وما ان تدخل هذه عليه، حتى يطلب عمر من خادمه ان ياتيه بدينار ذهبي ومجمرة وقطعة لحم، ثم يلقي الدينار في النار وينفخ فيه حتى يغدو قطعة من نار، ثم يرفعه ويلقيه على قطعة اللحم فتنش وتقتر، ومن ثم يلتفت الى عمته : اي عمة، اما تاوين لابن اخيك من مثل هذا ؟[٢٠٦]. وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر، وتلتفت الى عمر طالبة منه ان يستمر في الكلام. واسمعوه يقول وكانه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التي جاء الاسلام لكي يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع (ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا الى الناس كافة، ثم اختار ما عنده وترك للناس نهرا شربهم فيه سواء !! ثم ولي ابو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما. ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى افضى الامر الي وقد يبس النهر الاعظم، فلم يرد اصحابه حتى يعود الى ما كان عليه)[٢٠٧]!! وها هو عمر بن عبد العزيز يرفع معوله لكي يعمق المجرى ويعيده الى ما كان عليه : نهرا دفاقا يوزع الخير والعدل على كل انسان، وينقل الثمار الحلوة الى كل بيت، ولم تشا عمة الخليفة ان تغادر المكان قبل ان تطالب الخليفة بجراياتها التي كانت تتسلمها من الخلفاء السابقين، ويجيبها الخليفة بنبرة اسى : انهم كانوا يعطونك من مال المسلمين، ليس ذاك المال لي فاعطيكه، ولكني اعطيك مالي ان شئت !! فتساله عمته : وما ذاك ؟ فيجيب : مائتا دينار. فهل لك بها ؟ فتقول : وما يبلغ مني

---

(٢٠٤) ابن الجوزي ، ص ١١٤-١١٥.

(٢٠٥) المصدر السابق ، ص ١١٨-١١٩.

(٢٠٦) ابن الجوزي ، ص ١١٧.

(٢٠٧) ابن الاثير : الكامل ٥-٦٤.

عطاؤك ؟ فيرد : لا املك غيره يا عمه !! وتنصرف عمته كما انصرف من قبل رسل بني مروان[٢٠٨].

اعيت بني امية الحيل ازاء صلابة عمر في تنفيذ برنامجه الاجتماعي معهم، وقرروا في النهاية ان يستخدموا سلاحهم الاخير : المكافحة والرفض !! فاستدعوا احدهم وطلبوا منه ان يدخل على عمر ويعلمه انه لولا الخوف من غضبه لرد عليه كل منهم عشرة الدنانير التي اجراها عليهم .. ولكن رد عمر الحاسم سرعان ما يجيء كحد السيف (.. لا والله العظيم، لا اعطيكم درهما الا ان ياخذ جميع المسلمين ..) وخرج الرسول ليقول لهم : انتم فعلتم بانفسكم تزوجتم الى عمر بن الخطاب بنت عاصم ابنه فجئتم بمثل عمر بن عبد العزيز !![٢٠٩].

وسرعان ما تلاشت السمة الجماعية لمعارضة بني امية بعدما راوا من جد عمر ازاء اموال الامة، وقالوا : ليس بعد هذا شيء[٢١٠]. ومن ثم اخذ كل منهم يسعى، على انفراد، ليسترد ما يستطيع استرداده من اموال. ولكن عمر الذي وقف ازاء رغباتهم مجتمعين، احرى به الان ان يتصدى لكل واحد منهم على انفراد !! ويعلمه ان حق الامة لا يمكن ان يكون موضع مساومة في يوم من الايام. وهذا عنبسة بن سعيد بن العاص يدخل عليه يوما ليطالبه بمال كان قد كتب له به الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك، مقداره عشرون الف دينار، فساله عمر بلهجة بلغت في استنكارها حد السخرية : عشرون الف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين، وادفعها الى رجل واحد ؟! والله مالي الى ذلك من سبيل. فيسلمه عنبسة كتاب سليمان الذي فيه الصك بالمبلغ المذكور، فيقول عمر : لا عليك ان يكون (الصك) معك، فلعله ان ياتيك من هو اجرا على هذا المال مني فيامر لك به[٢١١] ورحم الله الامام احمد بن حنبل اذ كان يقول في معرض حديثه عن عمر بن عبد العزيز : ما كان اشده على بني امية[٢١٢].

لا يقف عمر بن عبد العزيز عند حد استرداد الاموال من بني امية وردها الى بيت المال، بل يخطو خطوة اخرى ويعلن لابناء الامة الاسلامية ان كل من له حق على امير او جماعة من بني امية، او لحقته منهم مظلمة، فليتقدم بالبينة لكي يرد اليه حقه .. وتقدم عدد من الناس بظلاماتهم وبيناتهم، وراح عمر يردها واحدة بعد الاخرى : اراض ومزارع واموال وممتلكات[٢١٣]. ومرة بعث اليه واليه على البصرة برجل اغتصبت ارضه، فرد عمر هذه الارض

---

(٢٠٨) ابن عبد الحكم ، ص ٦٣-٦٤.

(٢٠٩) المصدر السابق ، ص ١٦٤-١٦٥.

(٢١٠) المصدر السابق ، ص ٥٨-٥٩.

(٢١١) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨-٥٩.

(٢١٢) ابن الجوزي ، ص ١٢٠.

(٢١٣) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٦٠-٦١ ، ١٤٦-١٧٤ وابن الجوزي ، ص ١٠٤.

اليه ثم قال له : كم انفقت في مجيئك الي ؟ قال : يا امير المؤمنين تسالني عن نفقتي وانت قد رددت علي ارضي وهي خير من مائة الف ؟ فاجابه عمر : انما رددت عليك حقك. ثم ما لبث ان امر له بستين درهما كتعويض له عن نفقات سفره[٢١٤].

بعد ان يتم عمر كفاحه على جبهة الحزب الحاكم من بني امية، يتنقل الى الخارج، ويبدا اول ما يبدا بعماله وموظفيه، فهم، من جهة، القدوة التي يحذو حذوها ابناء الامة جميعا، وهم من جهة اخرى المسؤولون الذين يجب ان يتحملوا مسؤوليتهم كاملة، والا يستغلوا مناصبهم لحسابهم الشخصي مهما ضؤلت قيمة هذا الاستغلال. يبدا عمر معهم طالبا ان يقدروا اموال الامة حق قدرها والا يضيعوها في الكماليات ولا الشكليات الادارية، وان يتبعوا سياسة التقشف في اجراءاتهم المختلفة .. فيكتب الى ابي بكر بن عمرو واليه على المدينة، وكان هذا قد كتب الى الخليفة السابق سليمان يطلب اوراقا يكتب عليها في اموره الادارية (اما بعد : فقد قرأت كتابك الى سليمان تذكر انه قد كان يجري على من كان قبلك من امراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا، فابتليت بجوابك فيه، فاذا جاءك كتابي هذا فارق القلم واجمع الخط، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة فانه لا حاجة للمسلمين في فضل قول اضر بيت مالهم. والسلام عليك)[٢١٥]. ورسالة اخرى يكتبها اليه يقول فيها (اما بعد : فقد قرات كتابك الى سليمان تذكر فيه انه كان يقطع لمن كان قبلك من امراء المدينة من الشمع كذا وكذا، يستضيئون به في مخرجهم، فابتليت بجوابك فيه، ولعمري لقد عهدتك يا ابن ام حزم، وانت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح !! ولعمري انت يومئذ خير منك اليوم ولقد كان في فتائل اهلك ما يغنيك)[٢١٦]!! ويكتب اليه عامل خراجه على اليمن : اني فقدت من مال اليمن دنانير .. فيجيئه الجواب : اني لست اتهم دينك ولا امانتك، ولكني اتهم تضييعك، وتفريطك، وانما انا حجيج المسلمين في مالهم[٢١٧].

لم يكتف عمر بفرض سياسة التقشف على عماله وموظفيه، بل اتخذ اجراءات عديدة اخرى، كضمانات عملية، لالزام الموظفين حدود وظائفهم كخدام مسؤولين امام الخليفة والامة، وعدم استغلال مراكزهم لكل ما من شانه ان يحقق مصلحة مالية خاصة ويلحق بالامة ظلما واستغلالا. فمنعهم من مزاولة اي نشاط تجاري قائلا (لا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو

---

(٢١٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٤٦– ١٤٧.

(٢١٥) ابن عبد الحكم ، ص ٦٥.

(٢١٦) المصدر السابق ، ص ٦٤–٦٥.

(٢١٧) المصدر السابق ، ص ٦٩.

عليه، فان الامير متى يتجر ليستاثر ويصيب امورا فيها عنت وان حرص على الا يفعل)[٢١٨] وبعد سبعة قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته المعروفة بعد تجارب طويلة، ودراسة واسعة، ما يصدق فراسة عمر بن عبد العزيز، وحكمته البالغة، قال : (ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية) والبلاد التي يحكمها الاوربيون – وهم تجار قبل كل شيء – شاهدة بصدق هذه النظرة[٢١٩].

كما منع عماله وموظفيه من قبول الهدايا لان فيها شبهة رشوة ومجالا لاستغلال المنصب في تحقيق مصلحة ذاتية، كما الغى هدايا اعياد النوروز والمهرجان الفارسية لنفس السبب[٢٢٠]، وقضى على السخرة بانواعها لانها ظلم اجتماعي سافر، وطريق للموظفين الى استغلال كدح ابناء الامة لحسابهم الخاص[٢٢١]. ويتلفت – خلال مطاردته للظلم – فيرى ان مساحات واسعة من اراضي الدولة ومراعيها قد اغتصبت من قبل امراء وكبار موظفيها، فيحطم عمر هذا الاحتكار، ويلغي هذا الاغتصاب، ويعيد الى الامة حقوقها قائلا (ونرى ان الحمى يباح للمسلمين عامة .. وانما الامام فيها كرجل من المسلمين، انما هو الغيث ينزله الله لعباده، فهم فيه سواء !!)[٢٢٢].

ازاء هذه الشدة والصرامة التي اخذ عمر بها نفسه واهله وحاشيته وعماله وموظفيه، كبارا وصغارا، نجد صورة اخرى لعمر، صورة الخليفة الاب الذي ينظر الى ابناء امته نظرة ملؤها الشفقة والرحمة والحرص على نشر العدل على الجميع، وعدم ذهاب قطرة واحدة من عرق مسلم او دمعه او دمه، عبثا .. انه مسؤول عن كل قطرة تذهب جفاء لاي مسلم في اي مكان .. فما هذه القطرة الا الجهد والكدح والنصب الذي بذله ذلك المسلم من اجل ان يحيا حياة اكثر رخاء .. وان ذهابها يعني – بوضوح – اغتصاب هذا الجهد لمصلحة انسان ما او فئة معينة .. وان عمر لا يكتفي بالقاء نظرة الحنو هذه، ولكنه – وهو المسؤول الذي يتصف بالفاعلية والايجابية – يتخذ الخطوات الكفيلة بتحويل هذه النظرة الى واقع عادل يعم خيره الجميع، وتتدفق بركته في كل مكان من الدولة الاسلامية المترامية الاطراف.

انه يعمل – اولا – على ازالة كل الضرائب المجحفة التي كانت قد فرضت على الامة الاسلامية من اجل تنمية موارد الدولة دون وجه حق، فيلغي الضرائب اللا شرعية[٢٢٣]، ويشير

---

(٢١٨) المصدر السابق ، ص ٩٩.

(٢١٩) الندوي : رجال الفكر ، ص ٣٧.

(٢٢٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ص٦-٥٦٩.

(٢٢١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٩.

(٢٢٢) المصدر السابق ، ص ٩٧، ابن سعد ٥-٢٨١.

(٢٢٣) ابن عبد الحكم ، ص ٩٨.

الطبري الى عدد من هذه الضرائب الملغاة كالايين[٢٢٤]، واجور ضرابي النقود، وهدايا النوروز والمهرجان – التي غدت اشبه بالضرائب الاجبارية – واجور الفيوج – اي رسول السلطان الذي يسعى بالكتب – واجور البيوت، ودراهم النكاح[٢٢٥]. ويصدر كتابا توزع نسخه على العمال ليقرؤوه على الناس مؤكدين الغاء هذه الضرائب المجحفة (من المظالم والتوابع التي كانت تؤخذ منهم في النيروز والمهرجان، وثمن الصحف، واجور الفيوج، وجوائز الرسل .. وارزاق العمال وانزالهم ..)[٢٢٦] كما الغيت العشور عن كافة الفئات من غير المزارعين، وحدد دافعو الضرائب من غير المسلمين بقطاعات ثلاثة : المزارعون والصناع واصحاب الحرث والتجار، اما المسلمون من التجار والصناع والحرفيين فليس عليهم ان يؤدوا لبيت المال سوى الزكاة، اما المزارعون فعليهم ان يدفعوا – ايضا – الضريبة العشرية، او الخراجية، بناء على زمن تملكهم الارض[٢٢٧]. واسقطت المكوس واوضح عمر سبب ذلك بقوله (اما المكس فانه البخس الذي نهى الله عنه فقال **{ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }** (الشعراء ، الآية ١٨٣) غير انهم كنوه باسم آخر !!)[٢٢٨]. كما رفعت الجزية عن اعناق كافة الذين اسلموا حديثا والذين لم تشا السلطات الاموية السابقة ان تسقط عنهم هذه الضريبة حرصا على الحصول على مزيد من الاموال.

ويؤكد عمر – ثانيا – على عماله ضرورة اتباع اكثر الاساليب عدلا في جباية الضرائب المشروعة، وراح يشدد عليهم في ان يراعوا ظروف المزارعين ودافعي الضرائب كيلا يلحقهم اذى او يصيبهم حيف، ويامرهم بان يتحلوا بالمرونة الكافية التي تتيح لهم تقليص نسبة الضرائب في المواسم التي يقل فيها مستوى الانتاج الزراعي لسبب من الاسباب .. واننا نلمح لهجة الوعيد والتهديد التي يخاطب بها الخليفة عماله في كل مكان طالبا منهم التزام الحق والعدل في اساليب الجباية، فعن هذا الطريق بالذات كان بامكان العمال والموظفين – لو لم يجابهوا بهذا الوعيد – ان ينسفوا كل المكتسبات التي جنتها الامة من الانقلاب الاقتصادي الذي احدثه عمر بن عبد العزيز، ففي رسالة بعث بها الخليفة الى عامله على اليمن يقول (... انك قدمت اليمن فوجدت على اهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في اعناقهم كالجزية، يؤدونها على كل حال : ان اخصبوا او اجدبوا، وحيوا او ماتوا، فسبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين، ثم

---

(٢٢٤) الايين : معناه العادة والمقصود بها الضرائب على تنوعها وهو ما تدل عليه الكلمة الانكليزية Custom (فلهاوزن : الدولة العربية ، ص ٢٩٣).

(٢٢٥) تاريخ الرسل والملوك ، ص ٦-٥٦٩.

(٢٢٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٦٠.

(٢٢٧) انظر المصدر السابق ، ص ٩٨.

(٢٢٨) المصدر السابق ، ص ٩٨، ٩٩.

سبحان الله رب العالمين !! اذا اتاك كتابي هذا فدع ما تنكر من الباطل الى ما تعرف من الحق، ثم ائتنف الحق فاعمل به، بالغا بي وبك، وان احاط بمهج انفسنا، وان لم ترفع الي من جميع اليمن الا حفنة من كتم، فقد علم الله اني بها مسرور اذا كانت موافقة للحق)[٢٢٩]. وكتب اليه رسالة اخرى يعلمه فيها ان من سبقه من عمال على اليمن، كانوا ياخذون مقادير ثابتة من الزكاة من اهاليها سواء زادت رؤوس اموالهم ام نقصت، ثم يقول (.. ولعمري ان هذا للجور حق الجور، فاذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق ثم اقسم ذلك على فقرائهم .. فوالله لو لم يأت من قبلك الا كف لرايته من الله قسما عظيما)[٢٣٠] كما كتب الى عامله على البصرة يقول (بلغني ان عمالك يخرصون – اي يتكهنون ويحكمون بالظن – الثمار على اهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به فياخذونها قرفا – اي بثمن بخس – على قيمتهم التي قوّموها). وامر برد فرق السعر الى اصحابه[٢٣١]. واصدر اوامره الى جباة الخراج ان لا ياخذوا من الاهالي من الدراهم ما زاد وزنه على اربعة عشر قيراطا، وهو ما امر به من قبل عمر ابن الخطاب، بعد ما راى عمر بن عبد العزيز ان العمال كانوا يجبون دراهم اثقل وزنا من تلك التي فرضها جده (رضي الله عنه) ، مما كان يزيد زيادة فاحشة في الضرائب المجباة من الاهالي[٢٣٢]. وكي يقطع الطريق على اية محاولة للتلاعب امر بتوحيد المكاييل والموازين وجعلها موحدة في جميع انحاء الدولة الاسلامية[٢٣٣].

ويتجه عمر – ثالثا – الى تطبيق وتوسيع فكرة (الضمان الاجتماعي) بحيث تشمل كافة طبقات الامة رجالا ونساء واطفالا وفقراء وعاجزين ومرضى ومسافرين، مسلمين وغير مسلمين، عربا وموالي، اعتقادا منه بان هذا الضمان – الذي شهده عصر الرسول (عليه السلام) وعصر خلفائه الراشدين – امر ضروري اذا ما اريد للعدل الاجتماعي ان ياخذ مجراه. وفي سبيل جعل هذا الضمان اكثر (عملية) والمسؤولين اكثر قدرة على الحركة والعطاء، اقر عمر نظاما لا مركزيا مفتوحا في جمع الاموال وتوزيعها، فجعل كل ولاية من ولايات الدولة الاسلامية تسعى الى نوع من الاكتفاء الذاتي في جمع الضرائب وتوزيعها على احتياجاتها المحلية، وكي يعزز الخليفة هذا الاجراء جعل المعونات المالية بين الاقليم والمركز امرا مفتوحا، لسد العجز المالي في اي من الطرفين، في حالة حدوثه، وفي هذا الحوار الذي يسوقه لنا الطبري صورة واضحة

---

(٢٢٩) المصدر السابق ، ص ١٦٣.

(٢٣٠) المصدر السابق ، ص ٦٥-٦٦.

(٢٣١) ابن سعد ٥-٢٥٠.

(٢٣٢) فان فلوتن : السيادة العربية ، ص ٢٩.

(٢٣٣) ابن عبد الحكم ، ص ٩٨.

لهذه السياسة المرنة المفتوحة. يقول الطبري : قال ابو مجلز – احد العمال – لعمر : انك وضعتنا بمنقطع التراب – اي في منطقة جرداء قليلة المحصول – فاحمل الينا الاموال. فقال عمر : يا أبا مجلز قلبت الامر !!! قال : يا امير المؤمنين اهو لنا ام لك ؟ قال : بل هو لكم اذا قصر خراجكم عن اعطياتكم. قال : فلا انت تحمله الينا ولا نحمله اليك، وقد وضعت بعضه على بعض. قال : احمله اليكم ان شاء الله)[٢٣٤]. كما نجد هذه السياسة واضحة في رسالته الى عقبة بن زرعة الطائي عامله على خراج خراسان حيث يقول : (... ان كان – الخراج – كفافا لاعطياتهم فسبيل ذلك والا فاكتب الي حتى احمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم) فقام عقبة باحصاء الخراج فوجده يفضل على اعطياتهم، فكتب الى عمر بذلك، فاجابه عمر : (ان اقسم الفضل في اهل الحاجة)[٢٣٥].

وتبرز هذه السياسة مرة اخرى في كتابه الى عدي بن ارطاة عامله على البصرة حيث يقول (... اني كنت كتبت الى عمرو بن عبد الله ان يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب (الغلال) في فقراء اهلها ومن سقط اليها من اهل البادية، ومن اضافته اليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل. فكتب الي انه – اي عمرو بن عبد الله – اسأل عاملك – على عمان – عن ذلك الطعام والتمر، فذكر انه قد باعه وحمل اليك ثمنه، فاردد الى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي امرته بها، ويصرفه فيها)[٢٣٦]. وفي العراق تلقى العمال امرا من عمر برد كافة المظالم الى اهلها فردوها وكلف ذلك مالية العراق من امرها عسرا، فاسرع عمر بمدهم بالاموال من الشام[٢٣٧]. ويتحدث بن جحذم عامل عمر على صدقات بني تغلب قائلا : انه ياتي الى الحي ويدعوهم باموالهم، فيقبضها، ثم يدعو فقراءهم ويقسمها فيهم حتى انه ليصيب الرجل الفريضتين او الثلاث (فما افارق الحي وفيهم فقير، ثم اتي الحي الاخر فاصنع بهم كذلك، فما انصرف الى الخليفة بدرهم!!)[٢٣٨].

وبلغ من تاكيد عمر على توزيع العطاء – وهو الاساس الاول للضمان الاجتماعي آنذاك – ان الرجل لا يلغى عطاؤه بمجرد وفاته، بل يتنقل سهمه الى ورثته ويوزع عليهم[٢٣٩]. وقد خصص للمعتقلين ديوانا توزع بموجبه اعطياتهم وكتب الى عامله على المدينة، بشان

---

(٢٣٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ص ٦–٥٧٠.

(٢٣٥) المصدر السابق ، ص ٦–٥٦٨–٥٦٩.

(٢٣٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٩٤.

(٢٣٧) ابن الجوزي ، ص ٨٦–٨٧.

(٢٣٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٥٦٥.

(٢٣٩) ابن سعد ٥–٢٥٧.

العطاء (ان من كان غائبا قريب الغيبة فاعط اهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة فاعزل عطاءه الى ان يقدم او ياتي نعيه، او يوكل عندك بوكالة .. فادفع عطاءه الى وكيله) [٢٤٠] [٢٤٠].
ويتحدث شاهد عيان ان عمر اخرج لاهل المدينة ثلاث اعطيات في مدى سنتين وخمسة اشهر[٢٤١]. وقال شاهد آخر : (سمعت كتاب عمر يقرا علينا ان ارفعوا كل منفوس نفرض له، وارفعوا – اسماء – موتاكم، فانما هو مالكم نرده عليكم)[٢٤٢].

اتخذ الضمان الاجتماعي في دولة عمر بن عبد العزيز صورا فريدة عجيبة وسعى الخليفة الى توزيع العدل على الجميع ما داموا مواطنين لدولة واحدة تعدل بحكم الله وشرعه. فكتب الى عماله ان يقيموا الخانات ومراكز الضيافة في بلادهم كي يستضيفوا المسافرين ويقروهم، ويتعهدوا دوابهم، ويدلوهم اذا افتقدوا الطريق (... فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين، فان كل منقطعا به فقووه بما يصل به الى بلده). ونراه يوزع العطاء على جميع محاربي الدولة بالعدل الشامل دون تفريق بين عربي وغير عربي ما دام الجميع يحملون راية لا اله الا الله، ويعزل واليه على خراسان لانه منع الوفا من الموالي الذين كانوا يغزون، منعهم عطاءهم[٢٤٣]. ويتحدث شاهد عيان قائلا : حضرت قسمتين قسمهما عمر بن عبد العزيز على جميع الناس، كلهم سوى بينهم[٢٤٤]. وخطب عمر يوما في الغرباء الذين قدموا دمشق قائلا : ايها الناس الحقوا ببلادكم، فاني انساكم عندي واذكركم ببلادكم[٢٤٥].

ولا يكتفي الخليفة بهذا، بل يتعهد بكفالة الدولة لابناء المقاتلين واهليهم. وكي لا يحدث اي ميل او هوى في التوزيع اقرع بينهم، فمن اصابته القرعة جعله في المائة، ومن لم تصبه جعله في الاربعين[٢٤٦]. وخصص الاعطيات للمرضى المزمنين الذين لا يرجى شفاؤهم، وساوى كلا منهم بالرجل الصحيح ولام احد عماله لانه اعترض على هذه المساواة[٢٤٧]. واتخذ دارا خاصة سماها (دار الطعام) لإطعام المساكين والفقراء وابناء السبيل، وحذر اهله وبنيه ان يصيبوا منها شيئا.

---

(٢٤٠) ابن سعد ٥–٢٥٥.
(٢٤١) المصدر السابق ، ص ٥–٢٥٥.
(٢٤٢) الطبري ، ص ٦–٥٦٧.
(٢٤٣) المصدر السابق ، ص ٦–٥٥٩، ابن سعد ، ص ٥–٢٧٧.
(٢٤٤) ابن سعد ، ص ٥–٢٥٤.
(٢٤٥) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢–٤٣.
(٢٤٦) ابن سعد ، ص ٥–٢٨١.
(٢٤٧) المصدر السابق ، ص ٥–٢٧٩.

وينساح عدل عمر – بعد هذا – الى كل مكان حتى يبلغ الاطفال في سن الفطام !! ويروي شاهد عيان كيف ان الخليفة اراه السجلات التي حددت فيها ارزاق الاطفال[٢٤٨]. ويروي آخر (وهو مروان بن شجاع الجزري) كيف خصص له عمر وهو فطيم عشرة دنانير[٢٤٩]. كما بلغت رعايته لاهل الذمة حدا جعلت معه احد كتاب النساطرة يضيف كلمات التبجيل الى اسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه الراشدين، كلما عرض لذكرهم، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز[٢٥٠]. فقد شمل عمر بضمانه الاجتماعي كافة الذميين، فرفع الجزية عن الرهبان في مصر، والغى الضريبة على املاك الكنيسة والاساقفة هناك[٢٥١]. وامر بتوزيع الاموال الفائضة في بيوت الاموال على الذميين بعد قضاء حاجات المسلمين[٢٥٢] ، فضلا عن تسليف مزارعيهم لكي يتمكنوا من تنشيط اعمالهم الزراعية[٢٥٣]، واسقط عن ذمييي جزيرة قبرص الزيادة النقدية التي فرضها عليهم عبد الملك بن مروان[٢٥٤]، وكتب الى عامله على البصرة ان (انظر في اهل الذمة فارفق بهم، واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه .. كما لو كان لك عبد فكبرت سنه، لم يكن لك بد من ان تنفق عليه حتى يموت او يعتق)[٢٥٥].

وتشدد عمر في جمع اموال الزكاة، باعتبارها الضريبة الاساسية المفروضة على المسلمين، وانها حق الفقراء والمشردين والمستعبدين والمنقطعين والعاطلين الذي لا يجوز التهاون فيه ابداً[٢٥٦]، واهتم بتوزيعها على مستحقيها، باحثا عنهم في كل مكان، موزعا جباته في كل الاقاليم، وفي الحالات التي لم يكن هؤلاء الجباة يجدون فيها الفقراء، يشترون بهذه الاموال رقاب المستعبدين ويعتقونها[٢٥٧].

ويخطو الخليفة خطوات اخرى لتعزيز الضمان الاجتماعي، وترسيخ التكافل بين الدولة الاسلامية ومواطنيها، ويصل حدا عجيبا في رسم وتنفيذ معالم العدل الاجتماعي حينما يقرر التزام الدولة بتامين الحاجات الاساسية للمواطن، حدا عجيبا بلغ فيه – في ذلك الزمن السحيق !!

---

(٢٤٨) الطبري ، ص٦-٥٦٩-٥٧٠ ، ابن سعد ، ص ٥-٢٥٥.

(٢٤٩) البلاذري ، ص ٥٦٢.

(٢٥٠) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ٤٦٦.

(٢٥١) عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص ٣٣-٣٤.

(٢٥٢) ترتن : اهل الذمة في الاسلام ، ص ٢٧٦.

(٢٥٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨.

(٢٥٤) البلاذري ، ص ١٨٣.

(٢٥٥) ابن سعد ، ص ٥-٢٨٠.

(٢٥٦) ابن عبد الحكم ، ص ٩٥-٩٦.

(٢٥٧) المصدر السابق ، ص ٦٩، ١٢٤-١٢٥ وانظر الطبري ، ص ٦-٥٦٩-٥٧٠.

مدى لم يحلم به كثيرون من المحدثين الذين يعملون على تحقيق العدالة الاجتماعية في عالم الواقع. فبعد رسالة بعث بها الى احد عماله يامره بالقضاء عن المدينين!! تلقى جوابا من العامل يقول فيه : انا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الاثاث في بيته، فكتب اليه الخليفة : لابد للرجل من المسلمين من مسكن ياوي اليه راسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، واثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم !!! فاقضوا عنه ما يمكنه من الدين[٢٥٨]. وكتب الى عامله على الكوفة يقول (كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك اموال بعد اعطية الجند، فاعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، او تزوج فلم يقدر على نقد)[٢٥٩] وقد خصص عمر مبلغا في بيت المال لمساعدة المدينين والقضاء عنهم[٢٦٠]، ومن جهة اخرى امر عماله بان يسددوا ديون الاشخاص الذين يهلكون وهم مدينون[٢٦١]، رغبة منه في ضمان حق الدائنين. وامر – فضلا عن ذلك – بتعويض كل من لحق به ضرر لا طاقة له به. وجاءه مرة احد المزارعين واوضح له كيف انه زرع زرعا، وكيف ان جيشا من جند الشام خربه وافسده، فامر عمر له بعشرة آلاف درهم[٢٦٢].

ويمضي عمر في توسيع الضمان ومده الى مساحات اوسع، فيتجاوز به الجوانب المعاشية والحاجات الضرورية، صوب اعانة المسلمين على اداء شعائر الله، ومطاردة الظلم اينما وجد، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فيكتب الى احد عماله ان انظر من اراد من الذرية ان يحج، فعجل له مائة يحج بها[٢٦٣]، ويكتب الى عامله على اليمن ان اقعد على طريق الحاج قوما ترضاهم، وترضى دينهم واماناتهم، لكي يقووا الضعيف ويغنوا الفقير[٢٦٤]. ويكتب الى اهل المواسم من الحجاج (اما بعد : فايما رجل قدم الينا في رد مظلمة، او امر يصلح الله به خاصا او عاما من امر الدين فله ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة ... دينار، بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر، لعل الله يحيي به حقا، او يميت باطلا، او يفتح به من ورائه خيرا !!)[٢٦٥]. وتلك هي القمة التي ركز عليها عمر راية العدل، والتي تبدو – دونها– سائر الرايات ترفرف بهدوء هنالك في السفوح ... ان عدله هذا ينصب كغدق السحاب على سائر ابناء الامة، ويستهدف اعادة

---

(٢٥٨) ابن عبد الحكم ، ص ١٦٤.
(٢٥٩) المصدر السابق ، ص ٦٨.
(٢٦٠) ابن سعد ، ص ٥–٢٥٧.
(٢٦١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨.
(٢٦٢) ابن الجوزي ، ص ٧٩.
(٢٦٣) الطبري ، ص ٦–٥٦٩.
(٢٦٤) ابن عبد الحكم ، ص ٦٥–٦٦.
(٢٦٥) المصدر السابق ، ص ١٣٧.

الحقوق الى نصابها، ويحتضن كل الفاعليات والحاجات ماديها وروحيها، ما يتصل منها باليوميات والضرورات المباشرة، وما يرتبط منها باداء حقوق الله والعمل على ترسيخ قيم الحق والعدل، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلك هي الصفة اللازمة للخلافة الراشدة : ان تحيل كل قطاع منها، سواء سياسيا ام اداريا، تثقيفيا ام اقتصاديا، الى ميدان واسع للارشاد والتوجيه، والسعي بالامة خطوات الى الامام في طريق التقوى والاحسان.

وقد تميز عمر بن عبد العزيز، وهو ينشر جناحي العدل والمساواة على ابناء الامة الاسلامية، تميز ببصيرة ثاقبة، وحس عميق بالعدل الاجتماعي، كانا ينأيان به دائما عن مواطن الزلل والشبهات. جيء اليه مره بسارق، فشكا اليه هذا الحاجة التي ساقته الى هذا العمل، فعذره عمر وامر له ببضعة دراهم[٢٦٦] عين موقف جده العظيم من العصبة التي سرقت ناقة لرجل من مزينة، يومها وقف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال لسيدهم ابن ابي بلتعة : اما والله لولا اني اعلم انكم تستعملونهم وتجيعونهم، حتى ان احدهم لو اكل ما حرم الله عليه لحل له، لقطعت ايديهم، ثم اردف : وايم الله اذا لم اتحصل ذلك لاغرمنك غرامة توجعك .. يا مزني، بكم اريدت منك ناقتك ؟ قال : باربعمائة. قال عمر لابن ابي بلتعة : اذهب فاعطه ثمانمائة !!

هاتان حادثتان واضحتا الدلالة على ان (المجرم) (لا يؤخذ بذنبه حتى ينظر الحاكم اولا في دوافع الجريمة، فيزنها بميزان الحق والعدل، ويبحث عن المسؤول الحقيقي فيها، فيوقع العقوبة عليه. وقد كان المسؤول هنا هو السيد الذي يمثل الجماعة او يمثل الملاك ! بينما اعفي المجرم من العقاب، لانه اعتبر واقعا تحت ضغط الضرورة التي تغلب الانسان على نفسه وتدفعه الى الانحراف)[٢٦٧].

ويوما كتب الحجاب الى عمر بن عبد العزيز يطلبون كسوة لبيت الله الحرام – اسوة بما كان يفعل الذين سبقوه – فكتب اليهم : اني رايت ان اجعل ذلك في اكباد جائعة، فانه اولى بذلك من البيت !![٢٦٨].

***

ترى هل الحق عمر، بسياسته السخية هذه على الجماهير، اذى ببيت المال، او اصاب خزينة الدولة بعجز مريع، وكسر لا يجبر ؟! ام انه اعاد (المالية) الى ما يجب ان تكون عليه، واحدث توازنا مكينا بين موارد الدولة ومصارفها ؟ الوضعيون والعلمانيون ليس بمستطاعهم تصور ان عالم الاقتصاد يمكن ان تحكمه القيم والمثاليات، والا تعرض للتصدع والانهيار ..

---

(٢٦٦) ابن الجوزي ص ٧٩.

(٢٦٧) محمد قطب : قبسات من الرسول ، ط١ ، ص ١٥٧.

(٢٦٨) ابن الجوزي ، ص ٧٦.

انهم يعتقدون اساسا ان تضحية كهذه بمصالح الخزينة المركزية لصالح جماهير الامة، والغاء كهذا لكثير من الضرائب التي كانت تشكل موارد دفاقة تصب في بيت المال، من اجل نشر الدعوة، ورفع شعار (الهداية لا الجباية)، لا يمكن الا ان ينتج اختلالا في السياسة المالية، وتقلصا مريعا في موارد الدولة، ومن ثم عجزاً تاما ازاء ما يستجد من حاجات. وهذا الاعتراض – يقول الندوي (هو حجة الثائرين على الدين والمعارضين لتطبيق الاحكام الاسلامية على النظم والحكومات، والدعاة الى فصل الدين عن السياسة في كل مكان)[٢٦٩]. ولنستمع الى احد المستشرقين يعبر بوضوح عن وجهة النظر الوضعية العلمانية هذه : (لا ريب في ان سياسة عمر بن عبد العزيز لم توقظ الا امالا لم تستطع الحكومة تحقيقها، فقد كانت الحال تتطلب علاجا اخر غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن الخطاب (!!) ففي العراق انضبت الاعطيات السنوية بيت المال بعد ان تاثرت موارده تاثرا محسوسا من جراء الغاء الجزية في خراسان. وهكذا اعقبت تلك الفوضى في الشئون المالية بعد موت عمر بن عبد العزيز سياسة خراجية اقصى ما تكون جورا وعسفا)[٢٧٠]. ويقول (فان فلوتن) في مكان اخر، معززا وجهة النظر هذه (لم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب الذي كاد يقتفي اثره لما كان له في اعماق نفسه من الاحترام والاكبار والذي لم يكن الا صورة صادقة منه، رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاما !!)[٢٧١].

وهناك الكثير الكثير، قاله المستشرقون والوضعيون تعليقا على سياسة عمر المالية بالذات، ليوحون للقراء والباحثين ان التئاما بين الواقع والقيم لا يمكن ان يحدث، وان تكاملا بين برامج الاسلام ومصلحة دولته المالية يستحيل ان يوجد .. وكل ما قاله رفاق فلوتن ليس الا صدى لهذا الهراء، والحكم بالظن، والتخمين، وعدم استكمال الوقائع التاريخية المدروسة، وهل يغني الظن من الحق شيئا ؟ ومن ثم فاننا ننتقل الان، وبسرعة، الى جانب الحق نفسه، الذي لا يقوم بحث تاريخي الا به، ونلقي نظرة – اوسع مدى – على وقائع التاريخ، لنرى بوضوح زيف ادعاءات كهذه لا رصيد لها من تلك الوقائع.

صحيح ان عمر بن عبد العزيز رفع شعار الهداية لا الجباية، وسد كثيرا من موارد الدولة غير المشروعة، وانفق بسخاء على جماهير المسلمين، وكتب الى عامل له، تخوف من سوء عاقبة انتشار الاسلام في اهل الذمة (انه يسره ان يحرث الارض ويأكل من عمل يده اذا اسلم

---

(٢٦٩) الندوي : رجال الفكر ، ص ٤٩.

(٢٧٠) فان فلوتن : السيادة العربية ، ص ٥٨.

(٢٧١) المرجع السابق ، ص ٥٩.

اهل الذمة كلهم، فتنقطع الجزية، وتعجز مالية الدولة عن كفالته)[٢٧٢]. الا ان الخليفة لم يرتجل ابدا خطوة خطاها في يوم من الايام، انه – كمسؤول عن دولة، فضلا عن كونه مسؤولا عن امة – كان يحسب حسابا لكل خطوة يخطوها، ويضع الضمانات والممهدات لكل سياسة يعتزم تنفيذها، انه كخليفة راشد، ذكي، حادّ البصيرة، يعرف يقينا ان ارتجالا كهذا سوف يعرض مصالح الدولة، بل وجودها ذاته للخطر، وانه لابد لدرء هذه الاخطار من ايجاد برنامج عملي يضمن للدولة بقاءها واستمرارها ونموها وقابليتها على تادية واجباتها تجاه الامة وتجاه العالم كله .. انه كأي خليفة راشد اخر، كان يضع امام الامة ومسؤوليها الافاق التي يجب ان يتحركوا اليها، لان الانسان مشدود دائما الى واقعه الراهن، والارض التي ولد عليها، ولابد – لتحريكه الى الامام – ان توضع نصب عينيه، وفي مدى رؤياه، معالم هذه الافاق .. لكن هذا لم يكن يعني ابدا – عند اي خليفة مسلم – اي نوع من الاتكالية او الزهد الاداري الذي يحيل الدولة الى جهاز عاطل ينتظر صدقات المحسنين .. هذه هي الصورة المشوهة، القلقة، التي يريد المستشرقون والوضعيون ان يعرضوها عن الخلافة الراشدة : ان كلا من هؤلاء الخلفاء كان يتمتع بحسن نية، وتقوى شديدة، ورغبة عميقة في نشر الاسلام وخدمة ابناء الامة، ولكنهم – من جهة اخرى – كانوا يفتقدون البصيرة والذكاء والحدس الاداري الذي يمكنهم من احداث توازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الشريعة ومصلحة الامة وهذه الترهات لا رصيد لها من الواقع، لان كل خليفة من هؤلاء كان يمتلك الى جانب ورعه وتقواه وحرصه: ذكاءا نادرا، وحدسا دقيقا، وبصيرة نافذة تخرج بالدولة من اشد الازمات ظلمة واكثر المشاكل تعقيدا، والا لما كان عمر بن الخطاب قد ارسى قواعد جهازه الاداري في قلب الصحراء التي لم تعرف عن الادارة، والاجهزة المركزية، من قبل الا لماما .. ولما كان ابو بكر الصديق قد ارسى دعائم وحدة من مئات القبائل التي كانت تحكمها تقاليد قرون طويلة من الفوضى والانفصال والتمزق .. ولما استطاع عثمان بن عفان الوقوف ازاء اشد المخاطر الدولية عنفا، حيث تعرضت الدولة الاسلامية لأكبر مؤامرتين من جانب الفرس والروم استهدفتا ضرب منجزات الخليفتين السابقين. وها هو عمر بن عبد العزيز يتخذ من اجراءات (الموازنة) ما يدل على هذا، وينفي ترهات الوضعيين والعلمانيين.

لقد فتح عمر – اولا – باب التجارة الحرة في البر والبحر واعلن (اما البحر فانا نرى سبيله سبيل البر (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره، ولتبتغوا من فضله) فاذن فيه ان يتجر فيه من شاء. وارى ان لا نحول بين احد من الناس وبينه، فان البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده، يبتغون فيهما من فضله، فكيف نحول بين عباد الله وبين معائشهم ؟!)[٢٧٣].

---

(٢٧٢) الندوي : رجال الفكر ، ص ٤٩.

(٢٧٣) ابن عبد الحكم ، ص ٩٢-٩٤، ٩٨.

فعن طريق حرية التجارة، وفي المرحلة التاريخية التي كان العالم يجتازها، اقر عمر ابن عبد العزيز اسلوبا حيويا لتنمية الثروة والدخل القومي، ورفع مستوى المعيشة، وتهيئة شتى صنوف البضائع بارخص الاسعار. وعلى الرغم من ان عمر الغى ضرائب المكوس التي كان يمكن ان تنمو عن طريق حرية التجارة الا ان الدولة كانت تعتمد على طريق اخر لجني ثمار هذه السياسة: الزكاة تلك الضريبة التي لم يتهاون عمر في جبايتها وتنظيمها وتوزيعها وفق ما أمر الله به ورسوله. وقد جاء في احدى تاكيدات عمر عنها (... ان الله فرضها وسمى اهلها .. فتؤخذ، لا يحابى بها قريب ولا يمنعها اهلها، ثم تجعل الى مرضيين من اهل الاسلام، فيجعلونها حيث امرهم الله، يحملهم الامام من ذلك على ما حمل ...)[٢٧٤].

ومقدار (٢,٥%) من اصل راس المال يشكل دخلا محترما في مجتمع يسوده النشاط التجاري والتنمية المستمرة للثروة. ولم تكن ضريبة الزكاة هذه تجبى ارتجالا، وانما كان لها عمالها واجهزتها الدقيقة. ومن هنا يمكن ان نتصور مقدار الدخل الذي ستجنيه الدولة من هذا المورد، ونتوقع النتيجة المحتمة لرفع مستوى الطبقات الفقيرة ومنحها قدرة شرائية تؤثر بدورها على الدورة العامة لنمو الدخل القومي في الدولة الاسلامية، وسيؤدي هذا – كما سنرى – الى نشر الرفاهية، وارتفاع مستوى المعيشة، وانعدام الفقر ومن ثم الى انماء دخل الدولة الاسلامية.

وقد عمل عمر – ثانيا – على اتباع سياسة زراعية سليمة، فاشار على عماله بان الاهتمام بالاصلاح والاعمار، واحياء الاراضي، واقامة المشاريع يجب ان يسبق التاكيد على الجباية. يتضح هذا من كتابه الى عامله على الكوفة حيث يقول (... لا تحمل خرابا على عامر، ولا عامرا على خراب. انظر الخراب فخذ منه ما اطاق واصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج، في رفق وتسكين لأهل الارض)[٢٧٥]. كما يتضح من كتاب اخر الى احد عماله يطلب منه ان يعتمد على ما لديه من فائض في تقديم سلف نقدية لمزارعي اهل الذمة، كي يتقووا على اعمالهم الزراعية[٢٧٦]. وكتب اليه عامله على البصرة يعرض عليه طلب اهل البصرة في حفر نهر لهم، فاذن له عمر، ومن ثم قام العامل بحفر النهر المعروف باسمه (نهر عدي)[٢٧٧]. كما امر عمر بني امية ان يقيموا في ضياعهم ويعملوا على اصلاحها[٢٧٨].

---

(٢٧٤) المصدر السابق ، ص ٩٦–٩٧ ، وانظر ابن سعد ، ص ٢٧٧.

(٢٧٥) الطبري ، ص ٦–٥٦٩.

(٢٧٦) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨ وهوامشها.

(٢٧٧) البلاذري ، ص ٤٥٤.

(٢٧٨) ابن عبد الحكم ، ص ١٦٤–١٦٥.

وقد سبق وان راينا كيف ان عمر عزز سياسته هذه باعطاء ضمانات للمزارعين وعدم ارهاقهم بضرائب خراجية ثابتة على اعناقهم، سواء اكان المحصول جيدا ام رديئا. ومن السهل ان نتنبا بنتائج سياسة كهذه تؤكد على تنشيط الزراعة واستغلال الطاقات الانتاجية، وتطمين المزارعين. فلا ريب ان ضريبة الخراج، التي نمت بنمو النشاط الزراعي، كانت تشكل المورد الرئيسي الاخر للدولة، الى جانب الزكاة، خاصة بعد ان اوقف عمر الغزو وما يعقبه من غنائم، وبعد ان الغى ضريبة الجزية عن اعناق المسلمين من غير العرب، وعن اولئك الذين يعلنون اسلامهم حديثا. ومن ثم فان حصافة عمر جعلته يلقي ثقلا كبيرا على ضريبة الخراج، ولا يتهاون باي شكل من الاشكال ازاء اولئك الذين تخلوا عن دفع هذه الضريبة من بني امية او المقربين اليهم خاصة، ومن العرب عامة، واعلن ان (ارض الخراج هي في الاصل ملك مشترك بين المسلمين، ولكنها تركت بايدي المغلوبين لقاء مبلغ يدفعونه للامة الاسلامية وهو الخراج. ولذلك فلا يجوز لأي شخص ابطال هذا الايجار، فاذا اصبحت الارض الخراجية في ملك مسلم فعليه ان يؤدي عنها حق الايجار وهو الخراج. واذا اسلم ذمي، اعفي من الجزية، وله امواله المنقولة، اما ارضه فاما ان يدفع عنها الخراج، او يتركها لغيره فيدفع زارعها الجديد الخراج عنها، اما هو فيستطيع الذهاب انى شاء)[٢٧٩]. وقد اعتبر عمر سنة (١٠٠هـ) نقطة البدء في تطبيق قراره، وعندما لاحظ رغبة العرب في الاستحواذ على الاراضي الخصبة، مما يعني توسع الملكية الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة وما يثيره ذلك من شكوى ونقمة، حاول الحد من هذا الاتجاه، تلافيا لما ينجم عنه من اضطراب، وسعى الى ايقاف بين الاراضي الخراجية[٢٨٠]. ويقول (فلهاوزن) بهذا الصدد : نستطيع ان نصدق ان عمر بن عبد العزيز بدا بمقاومة ما قد وقع في عهد من تقدمه من الخلفاء، من تمزيق صوافي الدولة (أي اراضيها التابعة لها) وانتقاص الممتلكات الشائعة للمسلمين، وذلك بان منع بيع ارض الخراج. اما ان يكون عمر قد حافظ على جملة ارض الصوافي ولم يهب شيئا منها لاحد فيمكن ان نفترضه مطمئنين[٢٨١].

وفي الاندلس قام عاملها السمح بن مالك الخولاني باتباع سياسة تتمشى وعدالة عمر، وبتكليف منه، وذلك بان سعى لاعادة تنظيم اراضيها بقصد فرض الخراج. وكان العرب هناك قد احتفظوا بالضياع والعقار المنقول ونحوه مما لم يكن قد قسم من قبل. فقسمه السمح بالقرعة على الاصحاب، بعد ان ضم جزءا من كل شيء ثابت ومنقول الى بيت المال[٢٨٢].

---

(٢٧٩) عبد العزيز الدوري : دراسات ، ص ٣٣-٣٤ ، ابن عبد الحكم ، ص ٩٤، ٩٩.

(٢٨٠) الدوري : دراسات ، ص ٣٣-٣٤، ابن عبد الحكم ، ص ٩٩.

(٢٨١) الدولة العربية ، ص ٢٨١.

(٢٨٢) فلهاوزن : الدولة العربية ، ص ٢٨٥-٢٨٦ وهوامشها.

وهكذا تمكن عمر، بتاكيده على الضريبة الخراجية، وحمايته لاراضي الدولة من التفكك والضياع، تمكن من احداث توازن مالي منتظم دعا فلهاوزن الى القول بانه : لما كانت الارض المزروعة هي اهم ما يدفع عنه الخراج فان اسقاط الجزية عن الداخلين في الاسلام، لم يكن في الحقيقة – من جانب بيت المال – تضحية كبيرة. وهكذا امكن ان يفي بيت المال بحاجة الدولة الاسلامية من غير مشقة(٢٨٣). هذا فضلا عن ان عمر احدث توازنا منطقيا في مسالة الجزية نفسها، حيث جعل الحد الادنى للقادرين على دفعها عشرة دنانير(٢٨٤). ازاء كفالة الدولة للضعفاء منهم، ورفع الجزية عمن اسلم، وفضلا عن تاكيده على الخمس والفيىء مما يشكل موردا مهما من موارد الخزينة(٢٨٥).

كما ان عمر – ثالثا – تمكن من توفير مبالغ طائلة لمالية الدولة، كانت الحكومات السابقة تستنفدها في الفضاء على الفتن والمنازعات الداخلية والحروب فان اية حكومة سابقة كانت – على سبيل المثال – ستشهر السيف بوجه ثورة الخوارج التي قادها بسطام اليشكري (شوذب)، وعلى الرغم من انها كانت ستضمن النصر على الاغلب، لتفوق قوتها على قوة الخوارج، الا ان ذلك كان سيكلفها الكثير الكثير من نفقات الحرب : ميرة وعتادا ووسائل نقل ورجالا .. ولكن عمر بلجوئه الى الاسلوب السلمي تجاه الخوارج، وفر على الدولة ولا شك مبالغ كبيرة .. وهكذا، بالنسبة لكل ما كان يمكن ان يحدث من ثورات تتطلب حلا حربيا، ومن ثم مصاريف باهظة. اذ تمكن عمر بسياسته وبعد نظره ان يوحد الامة الاسلامية بمختلف كتلها واحزابها، ويبعدها عن استنفاد طاقاتها في الصراع الداخلي. واغلب الظن ان ايقاف مصروف ضخم كهذا لم يكن ليقل في حجمه عن المورد الذي كانت الدولة تستمدّه من عمليات الفتح والتوسع. وهكذا فاننا نجد ظاهرة التوازن والمقابلة المالية واضحة في كل ناحية من نواحي السياسة الاقتصادية التي اختطها عمر بن عبد العزيز.

ولكن الاهم من هذا وذاك، هو ان عمر اوقف بشكل جاد اعمال الابتزاز التي كان يتعرض لها بيت مال المسلمين ابتداء من الخليفة وحتى صغار الجباة، وما بين هذين من حشد هائل من العمال والموظفين. اما الان فقد غدا بيت المال، سواء في المركز ام في الولايات، محاطا بايد امينة تحرسه وتسهر عليه، وتقطع الايدي التي تحاول ان تمتد اليه لتختلس منه بليل. ان هذا الحرص وهذه الحماية تفسر لنا، فضلا عن العوامل الاخرى، ذلك التوازن العجيب بين موارد الدولة ومصارفها الكثيرة. ولا مجال هنا لاستعادة صور ذلك الحرص النادر على اموال

---

(٢٨٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٢.

(٢٨٤) ترتن : اهل الذمة في الاسلام ، ص ٢٦٢.

(٢٨٥) ابن عبد الحكم ، ص ٩٦–٩٧.

الامة، والمراقبة الدقيقة لتصرّفات العمال، اذ يمكن متابعتها في غير هذا المكان. ونكتفي بايراد الاشارة التي قدمها (فلهاوزن) في كتابه عن الدولة العربية حيث يقول (عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الاول من مناصبهم جمع الاموال لانفسهم والاغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته : ضعفين !!)[٢٨٦]. ولم يكتف عمر باحاطة بيوت الاموال بهذه الحماية، بل اعاد تنظيمها فنيا بشكل يتيح للموارد ان تنأى عن الفوضى والاضطراب والتداخل، فجعل لكل من الخمس والصدقة والفيء، بيوت اموال خاصة بها، منفصلا بعضها عن بعض[٢٨٧].

ثم ان عمر بن عبد العزيز – خامساً – اوجد، بوقفه للفتن والمنازعات والعصبيات القبلية والحروب، واجتثاثه كل انواع الظلم من جذورها، اوجد مناخا رائعا من الامن والاستقرار، هيأ لافراد المجتمع الاسلامي بكافة فئاته العمل المستمر المطمئن النشيط، معتقدين ان نشاطهم هذا سوف لا تضيعه رياح الفتن والمنازعات، ومضاعفين نشاطهم اعتمادا على حماية دولة قوية متمكنة، وخليفة يقظ، يتتبع ببصيرة نافذة، كل صغيرة وكبيرة يمكن ان تلحق بنشاط احد من المسلمين، وحقه وامنه، ايما اذى او خوف من المستقبل. ان عدلا كهذا، وامنا واستقرارا ينشران جناحهما على كل اقاليم الدولة، لابد ان توتي اكلها – باذن الله – للجميع : امة وحكومة ودولة .. فيزداد النشاط ويتفجر الوازع الذاتي بالمعطيات، وينمو الدخل القومي، وتجد اجهزة الدولة مواردها الكافية، كي تعود بدورها لتوزعها على نقاط الضعف في جسد الامة، وترفع مستواها الى الافق الحر الكريم الذي يرجوه لكل المسلمين خليفة راشد يرى فيهم جسدا واحدا اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

***

ولا يمضي سوى وقت قصير على تطبيق هذا البرنامج الاقتصادي العادل المتزن، حتى يجد المسلمون انفسهم في رفاهية تعم الجميع، وتجد الدولة ماليتها قد استندت الى موارد نامية، متطورة، مضمونة (واطمان الناس في كل رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها واصبحت هذه مشكلة للاغنياء واصحاب الاموال تتطلب حلا سريعا)[٢٨٨].

وانظروا : ها هو يحيى بن سعيد، عامل الدولة على صدقات (زكاة) افريقية يقول (بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا،

---

(٢٨٦) الدولة العربية ، ص ٢٩٦.

(٢٨٧) ابن سعد ، ص ٥–٢٩٥.

(٢٨٨) الندوي : رجال الفكر ، ص ٤٤٩.

ولم نجد من ياخذها مني، فقد اغنى عمر ابن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابا فاعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين)[٢٨٩] وهذا هو احد احفاد زيد بن الخطاب يعلن (انما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا، فذلك ثلاثون شهرا، فما مات حتى جعل الرجل ياتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم، فما يجده، فيرجع بماله. قد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس)[٢٩٠].

وتتوالى الشهادات عن العدل والكفاية والرفاهيه التي عمت الجميع .. شهادات من جهات شتى طرحها موظفون من عصر عمر، وشهود عيان، ومواطنون .. ودونها رواة ومؤرخون ثقات. واكدها الباحثون في شتى العصور ولنستعرض بعضها فحسب، فربما فبه الكفاية للرد على مستشرقين من امثال دوزي وفان فلوتن وموللر وغيرهم من رواد المدرسة العلمانية في التاريخ، اولئك الذين يرون الدين والتقدم على طرفي نقيض. واسمعوا ما يقوله الشهود :

ابن كثير : كان منادي عمر ينادي كل يوم : اين الغارمون ؟! اين الناكحون اين المساكين ؟ اين اليتامى ؟ حتى اغنى كلا من هؤلاء[٢٩١].

ولي عمر سنتين ونصفا، فملأ الارض عدلا، وفاض المال حتى كان الرجل يهمه لمن يعطي الصدقة ؟ [٢٩٢].

السيوطي : قال عمر بن اسيد : والله ما مات عمر حتى جعل الرجل ياتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح حتى يرجع بماله كله، قد اغنى عمر الناس[٢٩٣].

ابن سعد : اخرج عمر ثلاث اعطيات لاهل المدينة في سنتين وخمسة اشهر[٢٩٤]. وقال متحدث من الكوفة : كل يوم، كان يجيىء خير من عمر !![٢٩٥].

ابن الجوزي : قدم على عمر بعض اهل المدينة فجعل يسال : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا .. فاجابوه : قاموا منه يا امير المؤمنين، واغناهم الله. وكان من اولئك المساكين من يبيع الحطب للمسافرين، فالتمس ذلك منهم بعد فقالوا : قد اغنانا الله من بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز[٢٩٦].

---

(٢٨٩) ابن عبد الحكم ، ص ٦٩.

(٢٩٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٢٤-١٢٥.

(٢٩١) البداية والنهاية ، ص ٩-٢٠٠.

(٢٩٢) المصدر السابق ، ص ٩-٢٣٩.

(٢٩٣) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٦.

(٢٩٤) طبقات ابن سعد ، ص ٥-٢٥٥.

(٢٩٥) المصدر السابق ، ص ٥-٢٧٦.

(٢٩٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٧٦-٧٧.

وكتب اليه بعض ولاته ان الناس لما سمعوا بولايتك تسارعوا الى اداء زكاة الفطر، فقد اجتمع من ذلك شيء كثير، ولم احب ان احدث فيها شيئا حتى تكتب الي برايك، فاجابه : ما حبسك اياها الى اليوم ! اخرجها حين تنظر في كتابي[٢٩٧].

وكتب ابن جحدم، عامل صدقاته : انه كان يجمع الصدقات من احياء تغلب ثم يقسمها على فقرائهم حتى ليصيب الرجل الفريضتين او الثلاث، فما يفارق الحي وفيهم فقير[٢٩٨].

ابن عبد الحكم : كان رسول عمر يقدم البصرة، فاذا سمع به تلقاه الناس، فليس يقدم الا بزيادة في عطاء، وقسم، او خير يامر به، او شر ينهى عنه، فلا يزال الناس يشيعونه حتى يدخل المسجد فيقرا ذلك الكتاب حتى قدم بريد نعيه، فلقيه الناس كما يلقونه، فاذا هو باك يخبر بموته فبكى الناس لبكائه لعظيم ما نزل بهم، ولعظيم مصيبتهم[٢٩٩]. وكتب الى عامله على الكوفة : كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك اموال بعد اعطية الجند، فاعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، او تزوج فلم يقدر على نقد. فكتب اليه العامل : انه قد بقي عندنا بعد ذلك !! فاجابه عمر : ان قّو اهل الذمة فانا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين !![٣٠٠].

وكتب اليه عدي بن أرطأة عامله على البصرة : انه قد اصاب الناس من الخير خير حتى لقد خشيت ان يبطروا. فاجابه عمر : ... مر من قبلك ان يحمدوا الله!![٣٠١].

وخطب عمر يوما فقال (.. وقد اعطاني من ذلك، وله الحمد في عاجل الدنيا، وجماعة من الشمل وصلاح ذات البين وسعة في الرزق، ونصر على الاعداء، وكفاية حسنة، حتى اغنى لاهل كل جانب من المسلمين جانبهم، ووسع عليهم الرزق. ولا يرى اهل كل ناحية الا انهم افضل قسما مما بسط الله لهم من رزقه ونعمه، من اهل الناحية الاخرى)[٣٠٢].

والتقى يوما بمسافر من اهل المدينة فساله عن حالها فاجاب : اني تركتها والغني فيها موفور والعائل مجبور[٣٠٣].

---

(٢٩٧) المصدر السابق ، ص ٨٣-٨٦.

(٢٩٨) المصدر السابق ، ص ٨٦-٨٧.

(٢٩٩) المصدر السابق ، ص ٦٧.

(٣٠٠) المصدر السابق ، ص ٦٨.

(٣٠١) المصدر السابق ، ص ٦٩.

(٣٠٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٧٧.

(٣٠٣) المصدر السابق ، ص ١٣١.

عبد العزيز الدوري : نجح عمر بن عبد العزيز في اجراءاته، لانه وضعها في اطار المفاهيم الاسلامية، وقد ثبتت الخطوط التي رسمها اسس تحديد الضرائب، ومنحت مفاهيمها[٣٠٤].

فلهاوزن : اما ما يزعمه البعض (مثل موللر) ان اموال الدولة في عهد عمر بن عبد العزيز قد تلاشت، كما يزول الشيء، باشارة سحرية، وان ما يتحصل من الخراج قد انحط دفعة واحدة، فاني لا اريد هنا ان اتعرض للكلام فيما اذا كان ذلك الزعم اكثر من ان يكون نتيجة خطأ، ولكنه على كل حال زعم لا يمكن ان يكون صحيحا بوجه من الوجوه، وذلك ان الاحوال المالية كانت سيئة في الايام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج، اما في عهد عمر فقد عادت الى حالة الصحة[٣٠٥].

***

ولنرجع معا صفحات قليلة الى الوراء، وننظر الى تلك الضمانات المالية واسعة النطاق، التي كفل بها عمر فئات عديدة من ابناء الامة الاسلامية .. الى الاموال الكثيرة التي امر عماله ان ينفقوها لرفع المستوى المعاشي لطبقات الامة، والى المبالغ التي خصصت لمشاريع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والى هذه العناية وهذا الحرص على ان تبلغ كفالة الدولة كل ابناء الامة عربا وغير عرب وغير مسلمين، وكل العاطلين والمرضى والمعتقلين والمسافرين والمدينين والفقراء وابناء السبيل وطالبي الزواج وحتى الاطفال ؟! ثم لنطلع – قبل ذلك – على رسالتي عمر الى ابي مجلز وعقبة بز زرعة الطائي حيث اعلن فيهما انه سيمدهما بالمبالغ اللازمة من ميزانية الدولة اذا لم يكف خراج اقاليمهم لتغطية المصاريف المحلية ... ترى .. هل ان هذه التكاليف المالية التي القى عمر عبئها على الميزانية المركزية، وهذه المشاريع الواسعة، كانت ستتحقق لو كان هنالك اي عجز تعاني منه ميزانية الدولة ؟! الا يدل هذا التوسع من قبل الخليفة على انه يعتمد على ميزانية مستقرة، غنية، مضمونة الموارد، بحيث يتقدم الى امته وعماله – بثقة ويقين – بكل هذه الانواع الفريدة العجيبة من الضمانات الاجتماعية ؟ ثم كيف يمكن تفسير تناقص خراج السواد – على سبيل المثال – في عهد الحجاج الى اربعين مليون درهم، بينما كان قد بلغ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مئة مليون ؟![٣٠٦] ومن ذا يقول ان عمر بن عبد العزيز لم ينتهج نهج ابن الخطاب ؟ كان يجب – وفق منطق فلوتن ودوزي وموللر وسائر الوضعيين – ان تفيض خزائن الحجاج ذهبا، وان تخلو خزائن العمرين،

---

(٣٠٤) دراسات ، ص ٣٣-٣٤.

(٣٠٥) الدولة العربية ، ص ٢٩٦.

(٣٠٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٣٢.

وتكنس، ويرش عليها الماء !! فما هو السر في حدوث هذه النتيجة المعاكسة سواء في عهد ابن الخطاب ام في عهد حفيده ان لم يكن العدل والتنظيم والايجابية ؟! اثم ليس من الكذب الذي يخجل منه الاميون – فضلا عن العلماء المؤرخين – ان ياتي مستشرق متخصص – كفان فلوتن – فيلقي نظرة جانبية مبتورة ومتعمدة على بعض وقائع التاريخ، ويصدر حكمه بان سياسة عمر بن عبد العزيز المالية هذه، لم تكن سوى (غلطة) ارتكبها بدافع من (رجعيته ومحافظته الدينية، وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر ابن الخطاب .. وان الحال كانت تتطلب علاجا اخر، غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن الخطاب)؟ .. ليس لهذا الكذب، وهذا الالتواء في فحص النصوص التاريخية الا الدافع الذي عودنا المستشرقون عليه في جل اعمالهم. التعصب ضد الاسلام متمثلا بمبادئه وقادته، ودوله وحضارته، والعمل الدائب – على حساب التاريخ والحقيقة – لصرف اذهان المسلمين عن اية دعوة ترى في شد الوقائع واليوميات الى القيم والاهداف التي طرحها القرآن والسنة : الطريق الوحيد للخلاص .. لان اية دعوة كهذه ستجابه – كما يؤكد المستشرقون – بالفشل ذاته الذي شهدته محاولة عمر بن عبد العزيز !!

وليس لنا – اذن – ان نصب اللوم على فان فلوتن وحده، وهناك كثيرون غيره، ساروا على ذات المنهج العلماني في معالجة قضايا التاريخ الاسلامي، فوقعوا في اخطاء ما انزل الله بها من سلطان. حتى لقد استفزت هذه الاخطاء احد المستشرقين انفسهم فانبرى لاعادة تقييم منهج عمر الاقتصادي ووضع الامور في اماكنها، والرد على هذه الاخطاء. من اجل ذلك نحب ان نختم هذا الفصل بحوار طريف بين المستشرقين انفسهم حول منجزات عمر الاقتصادية لكي تستكمل الصورة كافة جوانبها، ولكيلا يبقى هناك ظل قاتم دون ان تسلط عليه الاضواء.

يقول فلهاوزن : كان اصلاح الناحية المالية اول ما اتجهت اليه همة عمر، ولكن ليس من السهل ان نتبين بوضوح نوع اصلاحاته في ميدان نظام الخراج، والاراء التي جاء بها في هذا الشأن (الفرد فون كريمر) وتابعه اوجست موللر مشوبة باخطاء حقيقية[٣٠٧].

ماذا يقول كريمر وتابعه موللر ؟ انهما يقولان ان ذهن عمر بن عبد العزيز كان (بحكم سلطان الدين عليه، بعيدا عن كل ادراك لما تقتضيه الحكمة السياسية وانه وان كان لا يمكن النزاع في ان بعض ماوضعه من نظم قد ادى الى تقوية روح الاسلام في ذاته تقوية كبيرة، فان كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على افساد نظام الدولة من اساسه، بعد ان كانت قد اصبحت دولة دنيوية، والرومان، وهم اكفا الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة، انما قرروا المبدا الذي قرروه عن علم وهو انه لا دولة يمكن ان ان تعيش الا بالوسائل التي ادت الى قيامها. اما عمر بن عبد العزيز فقد انصرف عن الاصول المتمشية مع الواقع،

---

(٣٠٧) الدولة العربية ، ص ٢٦٣.

والتي وضعها خلفاء الامويين بعد عصر معاوية، واراد ان يستعيض عنها بتحقيق مبادىء مثالية استمدها من القرآن والحديث، حتى ولو كان هذا العمل الخليق بالثناء لا يمكن تنفيذه الا على اساس علم غير كامل بالظروف الواقعة (!!) ولكن عمر، وهو الخليفة الورع، كان متاثرا بمبادىء حاشيته الدينية الى حد انه لم يقم حتى بمحاولة اصطناع شيء من العقل عند تطبيق مافي القرآن من مبادى كبرى على احوال هذه الدنيا الناقصة، وكان تفكيره الساذج يقول له ان الله يريد كذا وكذا، وانه اذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه).

وبعد ان يستعرض موللر – نقلا عن كريمر – اجراءات عمر بشان الجزية والخراج والاعطيات مما الحق ببيت المال خسائر فادحة لا تعوض !! يقول (... والى جانب هذه الاجراءات التي اضرت ببيت المال اكبر الضرر جاء أمر آخر اصدره عمر، وقد اوحى به اليه احساس انساني بالعدالة، لكن لم يكن موفقا من ناحية عملية، وهو يقضي برد جميع الاموال التي ابتزت من الرعايا ظلما الى اصحابها. ولا نعرف ان كان هذا قد وقع مقصورا على احوال فردية. ولكن اكثر العمال خيانة ما كان يستطيع ان يتمنى فرصة اكثر مواتاة من هذه الفرصة لانتهاب الخزانة من غير ان يناله عقاب)[٣٠٨].

اترون ؟! حتى اكثر الاجراءات التصاقا بمفهوم العدل الاجتماعي، يفسرها موللر على انها فرصة للعمال الخونة في انتهاب الخزانة دون ان ينالهم عقاب. فهل سبق لنا – بعد اطلاعنا على برامج عمر الادارية والاقتصادية – ان شهدنا، ولو دليلا واحدا على هذا الانتهاب من قبل العمال ؟ .. ولا نريد ان نستمر في النقاش، وهذا فلهاوزن نفسه يناقش هذه الصورة الثنائية المصطنعة في تقويم منجزات عمر الاقتصادية والاجتماعية.

وفلهاوزن يتبع في هذه المناقشة اسلوبا اكثر دقة وعلمية، واحرص على الموضوعية من سائر المستشرقين الذين عالجوا الموضوع، لولا انه يقع في خطاين اولهما خطا عام، هو خطا منهج البحث الذي يسلكه الغربيون دائما في دراسة التاريخ والفكر الانساني لشتى الامم والحضارات والشعوب، وهو منهج يتمركز دائما على التراث والفكر والمواضعات الاوربية الممزوجة بصبغة ودوافع مسيحية لا يمكن تجاهلها، الامر الذي اوقعهم دائما في اخطاء يصعب تلافيها. وفلهاوزن عبر استعراضه وتحليله لتطور الامور المالية حتى عهد عمر بن عبد العزيز، فما بعد، يقع في اخطاء عديدة، بحكم التزامه هذا المنهج، وعلى راس تلك الاخطاء عدم ادراك طبيعة الارتباط بين الفقه الاسلامي المرن المتطور وبين الاسس العريضة والاطارات المفتوحة

---

(٣٠٨) فلهاوزن : الدولة العربية، هامش ١ ، ص ٢٦٣ فما بعد نقلا عن كتاب موللر (تاريخ الاسلام في الشرق والغرب) جزء ١ ، ص ٤٣٩ فما بعد ، والذي نقله بتصرف عن كتاب فون كريمر المسمى (تاريخ حضارة المشرق) جزء ١ ، ص ١٧٤ فما بعد.

التي يضعها القرآن والسنة، والتي اتاحت للفقهاء ورجال الفكر الاسلامي انشاء بناء فقهي مساير للتطورات الاجتماعية لا يدانيه بناء، في الوقت الذي نقرا فيه لفلهاوزن عبارة كهذه: (من عادة فقهاء الاسلام دائما انهم، اذا تقررت قاعدة ما شيئا فشيئا، تحت تاثير الحاجات او النزعات المتجددة حينا بعد حين، ارجعوها الى البدايات الاولى وجعلوا لها صبغة مقدسة بردهم اياها الى سنة النبي وسنة الخلفاء الاولين)[٣٠٩]. ولم يشا مترجم الكتاب[٣١٠]. ان يدع اقوالا كهذه تطلق على عواهنها، فيعلق على هذه العبارة قائلا (لا شك ان فيما يقوله المؤلف هنا – وفيما سبق – كثيرا من المبالغة، لان القواعد التي كانت جديدة في صورتها او تفاصيلها، لم تكن كذلك في اصولها ومصادرها الشرعية. وطبيعي ان يكون هنالك فرق بين الصورة القانونية الفقهية للاحكام، وبين صورتها في النصوص الاولى، او في السنة الاولى الماثورة عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، او بين الصور القانونية القديمة، وبين القواعد العامة التي تتضمنها النصوص من القرآن او السنة، وهذا معروف في كل العلوم الاسلامية، مما لا يجعل صنيع الفقهاء عملا متكلفا، او ادعاءا من غير استناد الى نص قراني او سنة نبوية، او الى ما يؤخذ منها من طريق القياس)[٣١١].

أما الخطأ الآخر لفلهاوزن فهو خطا شخصي. فمورخ بوزنه، يبحث الامور بهذه الدقة، وهذا التتبع الرائع، كان عليه ان يلم – على الاقل – بالمصادر الاساسية للموضوع. ذلك ان اعتماده يبدو منصبا على مصادر محدودة فحسب، على راسها الطبري والبلاذري وابن ادم (في كتابه عن الخراج) ثم ابن عبد ربه وابن عساكر – الى حد ما – رغم كونه من المتاخرين. هذا في الوقت الذي لا يمكن فيه لاي باحث عن اجراءات عمر في شتى المجالات ان تتكامل الصورة لديه، الا باضافة مصادر اخرى اكثر اهمية وارتباطا بالموضوع من المصادر انفة الذكر – على اهميتها – مثل سيرة عمر لابن عبد الحكم وسيرة عمر لابن الجوزي، وكتاب الطبقات لابن سعد، وتاريخ خليفة ابن خياط. فضلا عن اليعقوبي والمسعودي وابن الاثير وابن كثير وغيرهم. وهناك خطأ شخصي آخر يعود الى عدم فهم المستشرق للنصوص فهما كافيا[٣١٢].

ونعود الى مناقشة فلهاوزن لكريمر ومولر. انه بعد استعراض وتتبع دقيقين لخطوط النظام المالي منذ عهد عمر بن الخطاب الى عهد عمر بن عبد العزيز، وبخاصة فيما يتعلق

---

(٣٠٩) الدولة العربية ، ص ٢٧٣.

(٣١٠) الدكتور عبد الهادي ابو ريدة.

(٣١١) الدولة العربية ، هامش ٢ ، ص ٢٧٣، وانظر كذلك مناقشة المترجم لنظرة فلهاوزن الى الجزية ، ص ٢٦٧–٢٦٨ وهوامشها.

(٣١٢) انظر على سبيل المثال ، المرجع السابق ، الصفحات ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٦، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤ وهوامشها.

بالجزية والخراج، وبعد مناقشة كثير من الامور الفنية الخاطئة في هذا المجال، والتي غدت بديهيات يتداولها المؤرخون[٣١٣]، بعد هذا يقول (على الرغم من ان اشياء كثيرة لا تزال غامضة[٣١٤]، فان ثمة شيئا واحدا واضحا الى حد كبير، وهو ان المؤرخ يجلب على نفسه السخرية اذا نظر الى عمر نظرة استهزاء مقصود، وهذا هو ما بدأه دوزي، فاعطى بذلك الاشارة لغيره[٣١٥]... وليس من الضروري، بطبيعة الحال، ان يكون عمر قادرا على تحقيق كل ما اتجهت اليه نيته الطيبة، فمثلا يذكر بعض من لم ينصف ان الدليل الاكبر على عدم كفاءته السياسية انه ضيع الاموال. ولكنا قد عرفنا، فيما تقدم، حقيقة الامر في ذلك[٣١٦]. وبعد ان يستعرض فلهاوزن اجراءات عمر العملية بشان الجزية والخراج وموازنة المالية، بالتاكيد على الضريبة الاخيرة يقول (... وكذلك عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الاول من مناصبهم جمع الاموال لانفسهم، والاغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته ضعفين[٣١٧] ... ومهما كان الامر فان الاهتمام بالشؤون المالية ليس هو كل ما يعني الدولة (!!) ومن ذا الذي يكون عنده من الجراة ما يجعله ينكر على عمر انه اسقط عن البربر الجزية جزية الابناء – فقد كانوا يقدمون ابناءهم على سبيل الجزية – وانه خفف العبء عن نصارى نجران، وانه عمل على حماية الرعية من العمال، وانه حرص على الا تكون ادارة الامصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالا ماليا؟)[٣١٨].

ونمضي مع مقتطفات اخرى من رد (فلهاوزن)، انه رد مقنع ومغر، لانه ينبثق عن رؤية واضحة للتطور المالي في عصر الامويين، نمضي معه وهو يسعى الى ازالة الغبش الذي يشوه رؤية كثير من المستشرقين، وهو غبش لا يمكن رده باية حال من الاحوال الى حسن النية والتجرد وعدم الفهم !! (أما (فون كريمر) (واوجست موللر) فرأيهما ان عمر انما تدخل في

---

(٣١٣) انظر المرجع السابق ، الصفحات ٢٦٣-٢٩٤.

(٣١٤) ذكرنا قبل قليل ان فلهاوزن لم يرجع في بحثه عن عمر الى بعض المصادر التي لا يمكن الاستغناء عنها.

(٣١٥) يقول دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ، جزء ١ ، ص ١٣٨" تدهور– دخل الخزينة – اكثر زمن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز الذي لم يبال بالامر !! حتى لقد بعث اليه احد جباته رسالة يقول له فيها : لو استمر الامر على هذا المنوال طويلا في مصر لجلب الذميون ديانتهم ولاسلموا وقل الخراج في بيت المال. فاجابه عمر : وددت لو اسلموا فما بعث الله نبيه جابيا ولكن هاديا " وانظر آراء فان فلوتن فيما سبق.

(٣١٦) الدولة العربية ، ص ٢٩٤– ٢٩٥.

(٣١٧) انظر ما سبق لترى رأي موللر في هذه النقطة.

(٣١٨) الدولة العربية ، ص ٢٩٦.

الامور المالية دون اية ضرورة عملية، جريا وراء ما صوره له ورعه من مثل عليا خيالية، فافسد المجرى الطبيعي للمالية واخرجها عن الطريق الذي ادى بها اليه التطور السابق. وهما يزعمان ايضا انه لم تكن عنده اية فكرة عن الاحوال الواقعية. أما الحقيقة فهي بالأحرى ان المؤرخين الذين ينقدون اعمال عمرهم الذين يتصورون الاحوال الواقعة لذلك العصر تصورا خاطئا. فلقد كانت هذه الاحوال مضطربة ومحتاجة الى تنظيم جديد. ولم يكن عمر نفسه هو الذي احدث الاضطراب في نظام الخراج، بل كان الاضطراب موجودا من قبل، وما كان يمكن ان يستمر. ولم يكن الواجب الذي اراد عمر الاضطلاع به، واجبا خياليا موهوما، بل كان واجبا حقيقيا وملحا .. فاما القاعدة التي تمخضت عنها الحكمة الرومانية، وهي ان دولة لايمكن ان تعيش الا بالوسائل التي اعتمدت عليها في قيامها، هذه القاعدة التي يسوقها موللر في اخذه على عمر انحرافه عن سنة سلفه من خلفاء بني امية، فهي قاعدة يمكن ايضا ان تذكر في معرض النقد الخلفاء بني امية انفسهم. ذلك ان حكومتهم لم تكن باي حال من الاحوال سائرة على سنة حكومة النبي (صلى الله عليه وسلم) واصحابه. وهي وان كانت قد ارادت ان تتمسك بالاسلام، وما كان يمكنها ان تتنكر له، فان الاسلام لم يكن من شانه ان يؤيدها، بل ان يقوض الاساس الذي قامت عليه)[٣١٩]. ويختتم (فلهاوزن) مناقشته قائلا (.. ولا يمكن التكهن بما كان عمر بن عبد العزيز سيحقق من اعمال، لان خلافته لم تدم الا نحو عامين ونصف ...)[٣٢٠].

(٣١٩) الدولة العربية ، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٣٢٠) المرجع السابق ، ص ٣٠١.

الفصل الرابع

الادارة والتخطيط

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ

أَقَامُوا الصَّلَاةَ

وَآتَوْا الزَّكَاةَ

وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ

وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ .. ..} الحج ٤١

هنا، في ميدان الادارة، يبدو البون شاسعا بين الانقلابات العقيدية الشاملة وبين تلك التي لا تقوم على برنامج عقيدي اصيل شامل، بين السياسيين العقيديين وبيم محتر في السياسة، بين اولئك الذين يعتزمون شيئا لامتهم، والذين لا يعتزمون الا اشياء تافهة محدودة لانفسهم ومحسوبيهم .. وهنا يبدو عمر بن عبد العزيز، كما كان في كل الجبهات، وكما هو حال كل الذين يتحملون المسؤولية من المسلمين : حركة دائبة لتغيير كل الاوضاع والانقلاب عليها، وبصر طامح تغطي رؤياه ابعاد العالم الاسلامي من حدود الصين الى جبال البيرنيه ومن ابواب القسطنطنية الى اعماق الصحراء الكبرى. يعزل ويولي، يهدم ويبني، ويضع المسؤولين الذين يتحملون الامانة في كل اقليم من اقاليم الدولة. ثم هو لا يقف عند هذا فحسب، بل يظل ينظر – كجده العظيم – الى هؤلاء المسؤولين بعينين لا تغمضان، يشد اعصابهم ابدا الى الحق والعدل، ويضع نصب اعينهم دوما شريعة الله، وسعادة الامة. ان عمر بن عبد العزيز هنا – كبطل من ابطال التاريخ – لا تعجزه (الظروف الراهنة)، ولا يصده ركام عقود طويلة من اعمال وتقاليد الذين سبقوه، وان (البيروقراطية) هذا الغول الذي يجثم على صدور اكثر الدول تمدنا وتحضرا، ويكسر إرادة أشد الانقلابيين عزما وتصميما، هذه (البيروقراطية) سرعان ما تسلم قيادها ليدي عمر المؤمنتين الماهرتين المريدتين .. ومن ثم تعلو ارادته على كل الارادات، ويصنع ما يعيد الى الامة ارتباطها الحقيقي بالله.

يبدأ عمر بن عبد العزيز الانقلاب من الداخل، من اعماق البلاط، ذلك الذي كان قد غدا منصة للخطابة، و(سوق عكاظ) يجتمع فيها الشعراء ليعرضوا فنهم على الخلفاء، يقدمون مديحهم وهجاءهم ويرتزقون .. ومن حول هذا البلاط جدران وتقاليد وبروتوكولات فارسية وبيزنطية تحجب الخلفاء عن مطاليب امتهم ومشاعرها. يسد عمر الابواب في وجوه الشعراء المرتزقة[٣٢١] ويعود فيفتحها على مصراعيها امام كبار علماء الامة وربانيّيها كي يتدفق قلب الدولة الاسلامية ابدا بدماء الايمان، وينبض دوما بالروح التي صنعت هذه الامة وبعثتها الى العالم، وكي يظل فكر عمر في حوار دائم مع قادة الفكر وممثلي الامة : يعلمهم ويعلمونه، يوجههم ويوجهونه، يستشيرهم ويشيرون عليه. وتلك هي طبيعة الخلافة الراشدة بما انها تنبثق عن عقيدة وشريعة، وتجابه ظروفا واوضاعا حية متطورة. ومن ثم يغدو اتصال الخليفة بكبار المتفقهين امرا ضروريا اذا ما اريد للدولة ان تحكم بما انزل الله.

أما الجدران والبروتوكولات التي وقفت حائلا بين الخلفاء وجماهير امتهم، فقد اسقطها عمر بن عبد العزيز وفتح الطريق مباشرة اليه، الى قلبه ووجدانه : امام كل المظلومين والمرهقين

---

(٣٢١) عن ابعاد عمر بن عبد العزيز للشعراء المرتزقة وتقريبه للعلماء انظر : ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ١٦٦،٧٦،٧٤، ١٧١.

والباحثين عن فرصهم ومستقبلهم المشروع. ليس هذا فحسب بل انه اعلن عن مكافاة مالية لكل مسلم يشد الرحال من مكان بعيد لكي ياتي دمشق ويقول للخليفة كلمة الحق او يطالب برد مظلمة !![٣٢٢].

ثم يخطو عمر الخطوة التالية، ها هو، بعد ان فجر القلب بالدماء الحقيقية الحارة، يزيل كل السدود والصمامات من شرايين الدولة لكي يصل اليها الدم : نقيا فوارا، الى كل اطرافها، فيعيد اليها حيويتها ودفقها الايماني العجيب وان هذا لا يتم قطعا، الا باقالة كل ولاة السوء الذين كانوا يقفون بين جماهير الامة وبين اهدافها المشروعة، وحقوقها العادلة ؛ وتشهد السنة الاولى من خلافة عمر (٩٩هـ) اجراءات واسعة النطاق في هذا المجال : عزل يزيد بن المهلب عن العراق وجعله قسمين اداريين، ولى احدهما – وعاصمته الكوفة – عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وولى الاخر – وعاصمته البصرة – عدي بن ارطاة الفزاري، وولي المدينة ابا بكر محمد بن عمرو بن حزم ومكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وخراسان وسجستان الجراح ابن عبد الله[٣٢٣]. والسند عبد الملك بن مسمع بن مالك عاملا من قبل عدي بن ارطاة، ثم عزل وولي عمرو بن مسلم الباهلي، وولى البحرين صلت بن حريث، عاملا من قبل عدي بن ارطاة، ثم عزل وولي عبد الكريم بن المغيرة الباهلي، وولى عمان سعيد بن مسعود المازني عاملا من قبل عدي، ثم ما لبث عمر ان ولى من قبله – مباشرة – عمرو بن عبد الله الانصاري. وولى اليمامة زرارة ابن عبد الرحمن، واقر عروة بن محمد على اليمن. وفي ارمينية واذربيجان عين عبد العزيز بن حاتم بن النعمان ثم عزله وعين عدي بن عدي فقام هذا بتعيين سوادة ابا الصباح بن سوادة الكندي عاملا من قبله على الجزيرة الفراتية. وولى عمر دمشق عبد بن الحساس العذري، وحمص يزيد بن حصين السكوني، وقنسرين الوليد بن هشام بن الوليد بن عقبة، والاردن عبادة بن نسي الكندي، وفلسطين النضر بن ابرهة بن الصباح، ومصر ايوب بن شرحبيل بن ابرهة بن الصباح. واما افريقية فقد ولى عليها اول الامر عبد الله بن مهاجر (المولى الانصاري) ثم عزله وولى اسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم[٣٢٤] وفي الاندلس ولى السمح بن مالك الخولاني بعد ان اطمان الى دينه وامانته[٣٢٥].

---

(٣٢٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٧.

(٣٢٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ص ٦-٥٥٤.

(٣٢٤) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ١-٣٢٩-٣٣٠، الطبري ٦-٥٥٤، ٥٥٦.

(٣٢٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٥-٥٥.

ولم تقف هذه الاجراءات الادارية عند طبقة الولاة بل تعدتها الى كافة الطبقات : قضاة وكتابا، وقادة حرب وعمال خراج وصدقات، وقادة شرطة وحرس، وحجابا واضحا بخاتم[٣٢٦]. ففي القضاء اختار عمر العناصر التي تتميز بالفقه والايمان العميق، والجراة في الحق، فولى قضاء الكوفة عامرا الشعبي، وقضاء البصرة الحسن البصري، غير ان الاخير طلب من والي البصرة اعفاءه من وظيفته كي يتفرغ لمهامه العلمية، فاعفاه عدي وولى مكانه اياس ابن معاوية بن قرة المزني[٣٢٧]. وولى على قضاء المدينة عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر[٣٢٨]. وعين عمر على شرطته يزيد بن بشر بن يزيد الكلبي، وعلى خراجه وجنده صالح بن جبير الغداني، وعلى خاتمه نعيم بن سلامه، وعلى حرسه ابن ابي عياش الالهاني، ثم عزله واستعمل عمرو بن المهاجر (مولى الانصار). واتخذ ليث بن ابي رقية كاتبا له، وحبيش – مولاه – حاجبا[٣٢٩].

ويبدو جليا من استعراض اسماء الولاة والقضاة وسائر الموظفين الذين اختارهم عمر بن عبد العزيز، حرصه على الاعتماد على اكثر العناصر كفاءة وعلما وايمانا وقبولا لدى جماهير المسلمين. ولم يلزم نفسه ابدا بانتقاء العناصر الادارية من حزب بني امية الحاكم، بل على العكس تجاوز رجال هذا الحزب على الرغم مما يمتلكه بعضهم من كفاءات ادارية، رغبة منه في كسر الاحتكار الاداري، وتحطيم البيروقراطية الاموية، والانفتاح على الصفوة من ابناء الامة عربا وموالي. ويسرد الامام الاوزاعي حوارا دار بين عمر وبين اشراف بني امية يؤكد رغبة الخليفة وعزمه على التزام هذه السياسة. فقد قال عمر لهؤلاء الاشراف يوما : اتحبون ان اولي كل رجل منكم جندا ؟ فاجابه احدهم : لم تعرض علينا ما لا تفعله ؟! فقال عمر : اترون بساطي هذا ؟ اني لاعلم انه يصير الى بلاء وفناء واني اكره ان تدنسوه بارجلكم، فكيف اوليكم ديني ؟ اوليكم اعراض المسلمين وابشارهم ؟ هيهات لكم هيهات !! فقالوا له : لم ؟ اما لنا قرابة ؟ اما لنا حق ؟ اجاب عمر : ما انتم واقصى رجل من المسلمين عندي في الامر الا سواء!![٣٣٠].

---

(٣٢٦) خليفة بن خياط ١-٣٣١ -٣٣٢، الطبري ٦-٥٥٤، ٥٥٨، ٥٦٠ ، ٥٦١.

(٣٢٧) الطبري ٦-٥٥٤. (في تاريخ خليفة خلاف عما اورده الطبري فيما يتعلق بالقضاة حيث يذكر ان الذي تولى قضاء الكوفة هو القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، واما في البصرة فيذكر ان عمر كتب الى عامله : ان اجمع ناسا ممن قبلك فشاورهم في اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني واستقض احدهما. فجمع عدي ناسا فحلف القاسم ان اياس اعلم بالقضاء واصلح له منه، فولاه عدي !! وما لبث اياس ان غادر البصرة في مهام خاصة فولى عدي الحسن البصري على قضائها ١-٣٣٠-٣٣١).

(٣٢٨) خليفة بن خياط ١-٣٣١.

(٣٢٩) المصدر السابق ١-٣٣١-٣٣٢.

(٣٣٠) السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٦.

اننا لا نجد، خلال استعراضنا للقوائم الادارية، انفة الذكر، سوى اسم او اسمين لموظفين من بني امية، اما الاخرون جميعا فقد تم انتقاؤهم اعتمادا على مقياس واحد لم يكن عمر ليفرط به ولو تخطفته الذئاب : التقوى والكفاءة ، حتى ان المسعودي يذكر – على وجه الاجمال – ان عمر صرف عمال من كان قبله من بني امية، واستعمل اصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته[٣٣١] فذلك هو هدف عمر بن عبد العزيز : ان يسلك عماله طريقته، ومن ثم يتحقق فعلا البرنامج الانقلابي الذي جاء به يوم تولى الخلافة، مستمدا من القرآن والسنة وتسري الثورة الى الاقاليم.

من أجل هذا ادرك عمر بن عبد العزيز مدى الخطورة التي تتعرض لها ثورته هذه بتسنّم عناصر غير اسلامية بعض مناصب الدولة الادارية، واسرع باصدار منشور عممه على سائر عماله جاء فيه (... ان المسلمين كانوا فيما مضى اذا قدموا بلدة فيها اهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير، فكانت لهم في ذلك مدة. فقد قضاها الله بامير المؤمنين فلا اعلم كاتبا ولا عاملا في شيء من عملك على غير دين الاسلام الا عزلته واستبدلت مكانه رجلا مسلما .. فافعل ذلك واكتب الي كيف فعلت)[٣٣٢]. وفي منشور اخر، عمم ايضا على العمال، وضح عمر اهداف منشوره الاول بعزل غير المسلمين جاء فيه (... ان الله عز وجل اكرم بالاسلام اهله وشرفهم واعزهم، وضرب الذلة والصغار على من خالفهم، وجعلهم خير امة اخرجت للناس. فلا تول امور المسلمين احدا من اهل ذمتهم وخراجهم[٣٣٣] فتبسط عليهم ايديهم والسنتهم فتذلهم بعد ان اعزهم الله، وتهينهم بعد ان اكرمهم الله تعالى، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم، ومع هذا فلا يؤمن غشهم اياهم !! فان الله (عز وجل) يقول : **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }** (آل عمران : الآية ١١٨) **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }**(المائدة : الآية ٥١)[٣٣٤].

ان التجانس العقائدي بين جميع المشرفين على مناصب الدولة والعاملين في اجهزتها الحساسة، امر لازم لتحقيق البرنامج الاداري الذي اعتزم عمر تنفيذه، والذي اقامه على قاعدتي القرآن والسنة، فضلا عن ان هذا الاجراء امر بديهي في كثير من الدول التي تسعى الى تحقيق

---

(٣٣١) مروج الذهب ٢–١٦٧–١٦٨، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ١–٣٢٩–٣٣٠.

(٣٣٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ، ص ١٥٨–١٥٩.

(٣٣٣) ربما يقصد بهم موظفو الخراج من الفرس وغيرهم الذين بقوا على دياناتهم القديمة.

(٣٣٤) ابن الاثير : الكامل ٥–٦٦.

انقلابيتها وفق برنامج او عقيدة محددة مستقلة، فان وجود عناصر غير متشبعة بالمفاهيم الاسلامية، يشكل خطرا مباشرا على اهداف الانقلاب، فكيف بوجود عدد من غير المسلمين ؟ الامر الذي لا ريب وان يؤدي الى عدد من النتائج العكسية التي استعرضها عمر في منشوره التوضيحي الثاني.

لم يكتف عمر بعزل الولاة والموظفين السابقين وتولية اخرين يعتمد عليهم في تنفيذ اهدافه الشاملة، بل وضع هؤلاء جميعا تحت مراقبة شديدة دائبة كي يظلوا يحملون مسؤوليتهم ازاء الاقاليم والاعمال التي ولوا عليها، وكي لا تصاب بعض انحاء الدولة بالشلل من جرّاء توقف عمالها عن اللحاق بالخطوات الواسعة التي كان عمر يقطعها صوب الامام، ويفرض على ولاته ان يقطعوها !! فلم تمض سنة وخمسة اشهر على توليته للجراح بن عبد الله على خراسان حتى اصدر امره بعزله وتعيين عبد الرحمن بن نعيم القشيري. وكان احد الموالي قد شخص الى الخليفة في دمشق وقال له :

– يا امير المؤمنين : عشرون الفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد اسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج[٣٣٥] ، واميرنا عصبي جاف يقوم على منبرنا فيقول: اتيتكم حفيا، وانا اليوم عصبي ! والله لرجل من قومي احب الي من مائة من غيرهم ...

كان هذا المولى احد اعضاء ثلاثة في وفد طلبه عمر من خراسان ليطلع منه على جلية الاخبار، اما العضوان الاخران فكانا عربيين، وكانا قد تكلما والاخر ساكت. ويلاحظ صمته فليتفت اليه :

– اما انت من الوفد ؟

– بلى.

– فما يمنعك من الكلام ؟

وما ان ينهي المولى كلامه – آنف الذكر – حتى تكسو وجه عمر ملامح البشر والارتياح ويعلن (اذن مثلك فليوفد !!)[٣٣٦]. انه يريد من يطلعه على ما يجري فعلا في الاقاليم، لكي يدرك من كلام المظلوم ووجدانه المحزون المدى الاخير لما يلحق بعض جماهير امته من اذى على ايدي ولاته، ومن ثم لكي يتخذ الاجراء السريع الذي يغطي هذا المدى.

ويسرع عمر – دون ابطاء – فيكتب الى الجراح : (انظر من صلى من قبلك الى القبلة فضع عنه الجزية) ويتلفت الى حاشيته ومستشاريه :

---

(٣٣٥) يعني – هنا – الجزية، وكثيرا ما يرد عدم التفريق هذا بين الجزية والخراج في عدد من المصادر، ولكن يتضح من سياق الكلام ما المقصود بكل منهما.

(٣٣٦) الطبري ٦–٥٥٨–٥٦٠.

– ابغوني رجلا صادقا اسأله عن خراسان (اي اوليه اياها).

فيعرضون عليه مجموعة من الاسماء، فيقع الاختيار على اثنين منهم، ويعزل الخليفة عامله السابق، ويكتب الى اهل خراسان (اني استعملت عبد الرحمن بن نعيم على حربكم وصلاتكم، وعبد الرحمن بن عبد الله القشيري على خراجكم، من غير معرفة مني بهما ولا اختيار (!!) الا ما اخبرت عنهما فان كانا على ما تحبون فاحمدوا الله، وان كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله)[٣٣٧] هذا، ثم ان الجراح، لم يحتلب منصبه يوما لمصلحة خاصة، حتى انه عندما ترك خراسان، خطب اهلها قائلا (يا اهل خراسان جئتكم في ثيابي هذه التي علي وعلى فرسي، لم اصب من مالكم الا حلية سيفي)[٣٣٨]. ولكن الخليفة العظيم، الذي كان يبحث عن الحق والعدل في كل مكان، كان بامكانه ان يطارد الظلم ويعثر عليه في كل مكان، حتى ولو لم يكن ظلما مباشرا، كأن يعتصر الحاكم دماء رعيته لحسابه الشخصي، فهناك انواع اخرى لا يحصيها العد من الظلم، وهذا الوالي رغم انه لم يفد شخصيا من ولايته، الا ان عصبيته لقومه، وحرصه غير العادل على منفعة مالية الدولة، جعلت عمر يسرع الى عزله لما في سلوكه هذا من مساس بالقيم التي كان عمر يكافح دونها.

إن اخوف ما كان يخافه عمر – وهو يطارد الظلم كي يزيحه من على وجه الارض ومن اعماق النفوس – هو ان يسلك موظفوه اساليب البطش والتنكيل والارهاب الذي يقتل النفوس ويميت فيها كل معاني الحرية والتطلع المفتوح الى الافاق التي جاء الاسلام، بثورته التحريرية الشاملة، لكي يوسع مداها في عالم الانسان الداخلي وفي ارضه وسمائه .. ان الكبت والاذلال اللذين طاردهما عمر بن الخطاب خوفا على الامة الاسلامية ان تذل وتتنازل عن اهدافها الكريمة يعود حفيده – اليوم – كي يستمر في مطاردتهما لاكمال هدف جده العظيم، ويغسل ضمائر الناس من كل ما من شانه ان يحيطها برين من الحس الثقيل والخوف، وهل اقدر من الاذلال والارهاب على سحق وجدان الناس وضمائرهم واحاطتهما بهذا الحس الثقيل وهذا الخوف؟!

ويتلقى عمر يوما رسالة من عامله على خراسان يقول فيها (اني قدمت خراسان فوجدت قوما قد ابطرتهم الفتنة فهم ينزون فيها نزوا، احب الامور اليهم ان تعود (اي الفتنة) ليمنعوا حق الله عليهم، فليس يكفهم الا السيف والسوط، وقد كرهت الاقدام على ذلك الا باذنك) ويجيبه الخليفة (يا ابن ام الجراح، انت احرص على الفتنة منهم (!!) لا تضربن مؤمنا ولا معاهدا سوطا إلاّ في حق، واحذر القصاص فانك صائر الى من يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور، وتقرا

---

(٣٣٧) الطبري ٦-٥٦٠-٥٦١.

(٣٣٨) المصدر السابق، نفس الصفحة.

كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها)[٣٣٩] وكتب الى العامل نفسه، بعد ان اعلمه هذا عن قيامه بتعيين احد العمال المشتهرين بالارهاب (لاحاجة لي برجل قد صبغ يده بدماء المسلمين، اعزله)[٣٤٠]. وكان عمر يمنع من تولية اي موظف يكشف سجل اعماله الماضية عن كونه مارس ظلما وارهابا[٣٤١].

لقد كان المثل الاعلى للادارة الصالحة في نظر عمر هي تلك التي تنشر الامن في البلاد، وتزرع المودة والثناء في قلوب الرعية. ولن يتم هذا الا باكتساح كل بذور الخوف من القلوب. وكان يقول ان عيون الحكام لن تقّر الا في هذا : (استفاضة الامن في البلاد، وظهور مودة الرعية لهم، وحسن ثنائهم عليهم)[٣٤٢]. ويحدثنا يحيى الغساني قائلا : لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من اكثر البلاد سرقة ونقبا، فكتبت اليه اعلمه حال البلد واساله : االخذ الناس بالظنة واضربهم على التهمة، ام اخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ؟ فكتب الي ان اخذ الناس بالبينة، فان لم يصلحهم الحق فلا اصلحهم الله. ويستمر هذا الوالي في حديثه قائلا : ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من اصلح البلاد واقلها سرقة ونقبا!![٣٤٣].

***

حتى اولئك الذين يقومون باصلاحات جدية في مجال الادارة، ويطيحون بالرؤوس القديمة المستغلة لكي ياتوا بمن يستطيع ان ينسجم مع البرنامج الجديد، حتى هؤلاء، كثيرا ما كانوا يغفلون، وهم في فورة التبديل والتغيير، عن اخطاء المعزولين واستغلالهم وكسبهم الشخصي على حساب شعوبهم، ثم لماذا يثيرون مشاكل وعقبات جديدة ماداموا قد اطاحوا باولئك المستغلين الى حيث لا رجوع ؟ لكن عمر لا يكتفي بهذا الجانب من التغيير والاصلاح .. انه ينظر بعينين مفتوحتين الى الجانب الاخر، ويضع يديه على كل الذين ظلموا واستغلوا وكسبوا على حساب امتهم، اذا كان في ذلك مصلحة مرتجاة تعود على الامة بالخير، وتسترد الى خزينتها العامة مالا مسروقا !! وها هو عمر يامر بالقاء القبض على والي العراق السابق : يزيد بن المهلب بن ابي صفرة، ويعلن : اني ابغض يزيد واهل بيته لانهم جبابرة، ولا احب مثلهم. وعندما يؤتى بيزيد

---

(٣٣٩) الطبري ٦-٥٦٠-٥٦١.

(٣٤٠) ابن الجوزي ، ص ٨٦.

(٣٤١) المصدر السابق ، ص ٨٩.

(٣٤٢) المصدر السابق ، ص ٨٥.

(٣٤٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٧.

مكبلا الى عمر يساله الخليفة عن الاموال التي كان قد كتب بها الى سليمان بن عبد الملك – الخليفة المتوفي – فيجيبه يزيد :

– كنت من سليمان بالمكان الذي قد رايت، وانما كتبت الى سليمان لاسمع الناس به. وقد علمت ان سليمان لم يكن لياخذني بشيء ولا بأمر اكرهه. ويجيء جواب الخليفة : ما أجد في امرك الا حبسك، فاتق الله واد ما قبلك فانها حقوق المسلمين، ولا يسعني تركها !! ومن ثم يرسل بيزيد الى السجن، ولا يمضي وقت طويل حتى يقدم ابنه (مخلد) من خراسان، وفي طريقه يوزع الاموال على القرى والمدن كي يستميل اهاليها. ثم يصل دمشق ويقابل الخليفة ويقول :

– ان الله يا امير المؤمنين صنع لهذه الامة بولايتك عليها، وقد ابتلينا بك، فلا نكن اشقى الناس بولايتك، علام تحبس هذا الشيخ ؟ انا اتحمل ما عليه فصالحني على ما اياه تسأل.

– لا !! الا ان تحمل جميع ما نساله اياه !!

– يا امير المؤمنين ان كانت لك بينة فخذ بها، وان لم تكن بينة فصدق مقالة يزيد، والا فاستحلفه فان لم يفعل فصالحه (على مقدار من المال).

– ما اجد الا اخذه بجميع المال !!

ويخرج مخلد بن يزيد بن المهلب دهشا لشدة عمر وصلابته في الحق ويعلن للواقفين هناك : هذا – يعني عمر – خير عندي من ابيه !! ولما ابى يزيد ان يؤدي الى عمر الحقوق المترتبة عليه، امر الخليفة بنفيه الى جزيرة (دهلك) النائية في البحر الاحمر، لكي يرهب الذين يثرون على حساب الناس. فاركب يزيد جملا ووجه صوب الساحل تحت حراسة مشددة. وبعد ايام دخل على عمر احد موظفيه وقال : يا امير المؤمنين اردد يزيد الى سجنه – في الشام – فاني اخاف ان امضيته – الى منفاه – ان ينتزعه قومه، فاني قد رايت قومه عضيدا له. ورغم ان عمر استجاب لهذا الطلب ورد يزيدا الى الشام، الا انه لم يتهاون لحظة في ابقائه رهن الاعتقال حتى يؤدي ما عليه(٣٤٤).

ودائما كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يرسل الى عماله وموظفيه رسائل، يشدهم فيها الى القيم التي عليهم ان يحرسوها كمسلمين، والاهداف التي عليهم ان يحثوا الخطى اليها كمسؤولين امام الله، والاساليب التي يجب ان لايحيدوا عنها كممثلين للامة الوسط، والكدح المتواصل الشاق الذي يجب ان يلتزموه امرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، مؤكدا خلال ذلك كله ضرورة ارتباط العلم بالعمل، اذ ان افتقاد اي منهما سوف يعرض كل الاهداف السالفة للضياع، ومذكرا بان تقوى الله هي القاعدة الكبرى التي يجب ان يصدر عنها جميع المسؤولين.

---

(٣٤٤) الطبري ٦–٥٥٦–٥٥٨.

ولم ينس عمر – لحظة – وهو يعلم عماله ان القاعدة الاساسية لحركتهم واعمالهم يجب ان تنبثق دوما عن القرآن والسنة، بما انهم موظفون ملتزمون يعملون في دولة عقيدة لا في دولة احتراف. ومن ثم فالكتاب الاول الذي عممه عمر على عماله، اكد فيه هذه القاعدة (ان تتبعوا كتاب الله وسنة نبيه، وان تجتنبوا ما مالت اليه الاهواء والزيغ البعيد. ومن عمل بغيرهما فلا كرامة ولا رخصة له في الدنيا والاخرى .. ولعمري ان تموت نفسي اول نفس احب الي من ان احملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم .. فانه ليس بعد الحق الا الباطل، ولا بعد البصر الا العمى)[٣٤٥]. وبلغ عمر من تاكيده على هذه القاعدة الكبرى انه كان يقول (يا ليتني قد عملت فيكم بكتاب الله وعملتم به، فكلما عملت فيكم بشيء وقع مني عضو، حتى يكون اخر شيء منها خروج نفسي)!![٣٤٦]. صورة رائعة وعجيبة من عجائب الايمان والمسؤولية لحاكم الارض وهو يعلن – بحماس عميق – عن استعداده لان تتساقط عنه اعضاؤه واحدا بعد اخر، ازاء كل عمل ينبثق عن القرآن، وكل تطبيق يستلهم السنة، حتى تخرج نفسه !! ترى اكان ذلك مجرد كلام يتغنى به خليفة في لحظة من لحظات تامله واعجابه، كما يفعل الكثيرون من قادة الدول عندما يدبجون اقوالا رائعة وكلمات طنانة تغزلا بدساتيرهم ونظرياتهم واعجابا ؟! حاشا لعمر بن عبد العزيز ان يكون كذلك وها هي شهادة معلم الامة مالك بن انس تسد الطريق على كل افتراض .. يقول مالك معلقا على تاكيد عمر على العمل بكتاب الله وسنة رسوله (عليه السلام): (اعجبني عزم عمر في ذلك)[٣٤٧]. كلمات قليلة، لكنها تعني الكثير : رفض مطلق للثنائية بين الفكر والعمل، وتوحد عجيب في حركة الخليفة المسؤول بين العقيدة والتطبيق.

ويظل عمر يكتب الى عماله مؤكدا هذا الرفض للثنائية وهذا التوحد في الحركة، مذكرا اياهم ان الخلفيّة التي يجب ان يستند اليها هذا كله هي التقوى وان الحادي للسير دائما صوب الامام هو الحق والعدل. فيكتب الى واليه على خراسان (اما بعد : فكن عبدا ناصحا لله في عباده، ولا تاخذك في الله لومة لائم، فان الله اولى بك من الناس، وحقه عليك اعظم. فلا تولين شيئا من امر المسلمين الا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم واداء الامانة فيما استرعي. واياك ان يكون ميلك الى غير الحق، فان الله لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهبا، فانه لا ملجأ من الله الا اليه)[٣٤٨].

---

(٣٤٥) ابن عبد الحكم ، ص ٧٨.

(٣٤٦) المصدر السابق ، ص ١٤٧.

(٣٤٧) المصدر السابق ، ص ٤١.

(٣٤٨) الطبري ٦-٥٦١-٥٦٢.

وفي رسالة اخرى اليه يقول (ان العلم والعمل قريبان فكن عالما بالله عاملا له، فان اقواما علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالا)[٣٤٩].

وكان عمر بن عبد العزيز يحس ان المحافظة على شكل الارتباط في المجتمع الاسلامي، ونقاء صورته الخارجية، هو جزء اصيل من مهمة الخلافة الراشدة وانه يجب على الموظفين والعمال وسائر الاداريين ان يعملوا على بقاء صورة المجتمع المسلم نظيفة، نقية، خالصة من الشوائب، بما انه المجتمع الذي يتحرك بشريعة الله وهديه، وان ذلك كله لا يتم الا بتنفيذ قاعدة (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر). ومن ثم تتوالى رسائله على عماله يعلمهم فيها ان تكون حركتهم ملتزمة دوما هذه القاعدة العريضة التي عليها تقوم الحضارات وبدونها تتدهور وتنهار (انه قد بلغني انه قد كثر الفجور فيكم، وامن الفساق في مدائنكم، وجاهروا من المحارم بامر لا يحب الله من فعله، ولا يرضى المداهنة عليه. كان لا يظهر مثله في علانيته قوم يرجون لله وقارا، ويخافون منه غيرا. وهم الاعزون الاكثرون من اهل الفجور، وليس بذلك مضى امر سلفكم، ولا بذلك تمت نعمة الله عليهم)[٣٥٠]. رؤية واضحة للاساس الاخلاقي الذي بعث العرب من جاهليتهم واعطاهم مقود الامم والشعوب والحضارات. واحساس عميق بان هذا الاساس الاخلاقي، اذا ما انهار يوما – والانهيار يبدا بسيطا ثم ياخذ بالاتساع اكثر فاكثر – واذا ما استبدل به الفجور – والفجور يبدا تافها ضئيلا ثم ما يلبث ان يطغى على كل ساحات العمل والتصور والشعور – اذا ما حدث هذا وذاك، فاذن للامة ان تتعرض لنقمة الله وللحضارة ان تقف وجها لوجه امام غيره !! تلك هي سنة الله في التاريخ (ولن تجد لسنة الله تبديلا) (واذا المعاصي ظهرت ولم يغيروا، اخذت العامة والخاصة)[٣٥١]. فليتعقب عمر اذن هذا الانحراف من بداياته، وليطارد الفجور في ابسط صوره، كيلا يغدو السيل – يوما – فيضانا جارفا يحطم الحواجز والسدود، ويغرق المزارع والقرى، ويطغى على معالم العمران .. وليتحرك عمر اذن على قاعدة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولينفخ في عماله روح الحركة وفق هذه القاعدة، وليعلن للمنحرفين عن الصراط ان العقاب الصارم سينزل على رؤوس الملعونين (.. فانا من نجده يشرب من الخمر شيئا بعد تقدمنا اليه فيه، نوجعه عقوبة في ماله ونفسه، ونجعله نكالا لغيره، ومن يستخفي بذلك منا فان الله اشد عقوبة واشد باسا واشد تنكيلا .. وقد اردت بالذي نهيت عنه من شرب الخمر .. اتخاذ الحجة عليكم اليوم وفيما بعد اليوم)[٣٥٢]. وكتب الى عماله

---

(٣٤٩) المصدر السابق ٦-٥٦٧.

(٣٥٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٦٠-١٦٣.

(٣٥١) ابن الجوزي ، ص ٢١٤.

(٣٥٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٠٢.

(ان اقامة الحدود عندي كاقامة الصلاة والزكاة)[٣٥٣] واصدر اوامره بالا يدخل اهل الذمة بالخمر امصار المسلمين فكانوا لا يدخلونها[٣٥٤]. وشوهد بخناصرة قريبا من قنسرين يامر بازقة الخمر ان تمزق وبالقوارير ان تكسر[٣٥٥]. وكتب الى احد عماله (ان استوثق من اهل الدعارات فان الحبس لهم نكال، واجعل للنساء حبسا على حدة)[٣٥٦]. ونفى جماعة من بني عقيل الى اليمن وكتب الى عاملها (... بئس القوم كانوا في الجاهلية والاسلام، وكان افضلهم في انفسهم شر خلق الله دينا ونفسا !! فاذا اتاك كتابي هذا فانزلهم من نواحي ارضك بشرها، بقدر هوانهم على الله عز وجل)[٣٥٧].

ولم يتهاون عمر حتى تجاه التقاليد والاعراف التي تند عن روح الاسلام وصورته المشرقة للعلاقات الاجتماعية، وارسل الى عماله يندد بهذه التقاليد والاعراف التي اخذت تفشو في المجتمع الاسلامي، كالنياحة على الاموات وما يرافق ذلك من مراسيم جاهلية بشعة لا تنسجم وصورة هذا المجتمع، وامر هؤلاء العمال ان يتقدموا الى اصحاب شرطهم (فلا يقرّوا نوحا في دار ولا طريق، فان الله قد امر المؤمنين عند مصائبهم بخير الامرين في الدنيا والاخرة فقال : (والذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون. اولئك عليهم صلوات من ربهم ، ورحمة، واولئك هم المهتدون) ...)[٣٥٨].

الا ان الشدة في العقوبة، وانزال العقاب بالمنحرفين، لم تدفع عمر يوما الى الجور والانحراف، ولو شبرا واحدا، عن العدل الذي ماحاد عنه يوما. فها هو يكتب الى عماله ان ينظروا في امر السجون، وان يكتبوا للمعتقلين برزق الصيف والشتاء، وان يستوثقوا من مريضهم، ممن لااحد له ولا مال، وان لا يتعدوا في العقوبة ...)[٣٥٩].

***

سد عمر بن عبد العزيز على عماله وموظفيه كل نافذة او ثغرة يمكن ان يتسللوا منها الى استغلال مناصبهم، او توجيه ظلم الى احد من ابناء الامة الاسلامية، او اغتصاب حق فرد من افرادها. وتشدد في ذلك، متقصيا كل شبهة يمكن ان تؤدي بشكل من الاشكال الى نوع من انواع الظلم والاستغلال فبدأ برفع اجورهم الى الثلاثمائة دينار سنويا ليحقق لهم الكفاية ويغنيهم

---

(٣٥٣) ابن سعد : طبقات ٥-٢٧٨.
(٣٥٤) المصدر السابق ٥-٢٦٩.
(٣٥٥) المصدر السابق ٥-٢٦٩.
(٣٥٦) المصدر السابق ٥-٢٦٢-٢٦٣.
(٣٥٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٢٤.
(٣٥٨) المصدر السابق ص ١٠٦-١٠٧.
(٣٥٩) ابن سعد ٥-٢٦٢-٢٦٣.

عن الخيانة في الوقت الذي لم يفرض لنفسه فيه سوى نفقة يومية لا تزيد على الدرهمين[٣٦٠] وحرم على العمال قبول اية هدية من الهدايا كيلا تكون بابا لتقديم الرشاوى من قبل ذوي الحاجات. كما الغى هدايا اعياد النوروز والمهرجان الفارسية[٣٦١]. ومنع عماله من مزاولة اي نشاط تجاري كيلا يصرفهم عن مهامهم الادارية من جهة، ولا يدفعهم الى استغلال مناصبهم خلال هذا النشاط من جهة اخرى وكتب اليهم يقول (نرى ان لا يتجر امام، ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه، فان الامير متى يتجر يستاثر ويصب امورا فيها عنت، وان حرص على الا يفعل)[٣٦٢]. كما نهى عماله عن نظام السخرة المتبع فيما مضى من عهود وقال (ونرى ان توضع السخر عن اهل الارض، فان غايتها امور يدخل فيها الظلم)[٣٦٣].

ومن جهة اخرى، راح عمر يصدر اوامره المتلاحقة وتعليماته الدائبة الى عماله ان يوسعوا خدمات الدولة لجماهير الامة، وان يوفروا للمرضى والمحتاجين والمسافرين : المسكن والملبس والمطعم، والدليل الذي يتيح لهم قطع رحلتهم دون اية صعوبات. ويكتب الى احد عماله ان اعمل خانات في بلادك، فمن مر بكم من المسلمين فاقروهم يوما وليلة، وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين، فان كان منقطعا به فقووه بما يصل به الى بلده[٣٦٤].

وكان عمر ينظر الى جميع مواطني الدولة الاسلامية، مسلمين وذميين ومجوس كابناء يجب ان يرعاهم ويتيح لهم الحرية الكاملة لاداء شعائرهم اسوة بعهد رسول الله (عليه السلام) وخلفائه الراشدين، وصدورا عن توجيهات القرآن الكريم. فكان يؤكد على عماله ضرورة مراعاة اصحاب الديانات غير الاسلامية وان لا يهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحوا عليه[٣٦٥].

ومن اجل ان يضمن عمر بن عبد العزيز قيام عماله بمهامهم على الوجه الصحيح، والتزامهم برنامجه العظيم بدقة، جعلهم مسؤولين امامه مباشرة، وطلب منهم ان يراجعوه في جل ما يقدمون عليه (وان لا يعجلوا دونه بقطع ولا صلب) حتى يعرضوه عليه ليروا رايه فيه[٣٦٦]. وبهذا تمكن عمر من شد اعناق عماله الى خليفتهم، والزامهم تطبيق برنامجه الواسع واستلهام روحه في التفاصيل والكليات .. ولم يفسح لهم المجال – ابدا – لكي يتصرفوا وفق اهوائهم، او يتجهوا وفق ما يريدون.

---

(٣٦٠) ابن عبد الحكم ، ص ٤٦.

(٣٦١) الطبري ٦-٥٦٩.

(٣٦٢) ابن عبد الحكم ، ص ٩٩.

(٣٦٣) المصدر السابق ، ص ٩٩.

(٣٦٤) الطبري ٦-٥٦٧.

(٣٦٥) المصدر السابق ٦-٥٧٢.

(٣٦٦) المصدر السابق ٦-٥٦٩.

***

وليس لنا ان نختتم هذا البحث عن ادارة عمر بن عبد العزيز دون ان نشير الى الملامح الاساسية التي كانت شخصيته الادارية تتميز بها، تلك الملامح التي تتجلى في اربع خصال : الايجابية، الواقعية، المرونة، والذكاء، والتي مكنت عمر من تحقيق هذه المنجزات العظيمة في فترة قصيرة.

وتتبدى ايجابية عمر اكثر ما تتبدى في حرصه على الزمن، بالاحرى في سباقه مع الزمن. انه مسؤول. وان امامه مهام عظاما تنتظر البت والتصميم والتنفيذ. وان في وجدانه كذلك مطالب عظيمة من الشوق واللهفة الى ان ينفرد بنفسه وان يقضي الساعات الطوال يتبتل الى الله ويشبع حبه له وشوقه اليه ... وامام هذا وذاك يقف الموت الذي لا يعرف الانسان متى ينزل فينتزع الساعات والايام والسنين منه، ويفقده فرصة العمر .. كان عمر يدرك بحصافته مغزى وجوده داخل هذا المثلث الذي وضعته المسؤولية فيه : المهام العظيمة لامة تمتد من بحر الصين الى بحر الظلمات، والاشواق الملهوفة لانسان رفعته تجربته الداخلية الى قمة التصوف، ثم الموت الذي يتهدد في كل لحظة الفرصة الوحيدة لانجاز مهام الامة العظيمة وارتواء الاشواق!!

لكن عمر بن عبد العزيز لم يتخل لحظة واحدة عن الصمود ازاء هذا الوضع الحرج، ووقف كالابطال، بعزيمته الصلبة، يعمل على كلتا الجبهتين الخارجية والداخلية، دون ان يخل بمطالب اي منهما .. وينتظر الموت. ان هذا الفهم من جانب عمر لفكرة الزمن وفرصة العمر المحدودة، جعلته يتمرد منذ اللحظة الاولى على ما يمكن ان نسميه (روتين البيروقراطية) الذي ضيع في كثير من الدول الساعات والايام والسنين، وظلت مئات من القضايا معلقة، والوف من المشاكل تنتظر الحل ولا احد يجرؤ على البت فيها خوفا من (الروتين) ولا احد يقول لنفسه : ان الموت ربما سينزل هذه اللحظة، وان فرصة الحياة اثمن من التشبث بالشكليات. انظروا :

ها هو ذا عمر، بعد ان تم دفن سلفه سليمان، يدعو بدواة وقرطاس ويكتب على جناح السرعة، ثلاثة كتب امضاها وانفذها الى جهاتها فورا، ويتساءل الناس، ويقول بعضهم لبعض: ما هذه العجلة ؟ اما كان يصبر الى ان يرجع الى منزله ؟ هذا حب السلطان، هذا الذي يكره ما دخل فيه !! ولم يعلم هؤلاء جميعا ان عمر لم تكن به عجلة ولا محبة لما صار اليه، ولكن حاسب نفسه، ورأى ان تاخير ذلك لا يسعه[٣٦٧]. ويكتب الى عامله على اليمن : (انك تردد الي الكتب، فنفذ ما اكتب به اليك من الحق، فانه ليس للموت ميقات !!)[٣٦٨] ويروي ابن سعد كيف

---

(٣٦٧) ابن عبد الحكم ، ص ٣٦-٣٧.

(٣٦٨) ابن سعد ٥-٢٩٤.

ان عمر بن عبد العزيزكان اذا صلى العشاء جلس لرد المظالم .. فاذا اصبح جلس في رد المظالم!![٣٦٩]. وبلغ من انهماكه في العمل انه لم يتح له الحج او العمرة طول خلافته رغم شوقه اليه[٣٧٠]. ليس هذا فحسب بل انه لم يتح له حتى الاجتماع بزوجه، الامر الذي يعد من ضروريات الحياة الزوجية، وعندما عوتب على ذلك اجاب : كيف يستطيع رجل ان ياتي ذاك وامر امة محمد في عنقه الله سائله عنها يوم القيامة؟![٣٧١]. واذ راى اهلوه واخوته انه لا يرحم نفسه، وانه يقتطع ساعات راحته ليضيفها الى ساعات كده. تقدم اليه احدهم قائلا : يا امير المؤمنين لو ركبت – في نزهة – فتروحت ! اجابهم : فمن يجزي عني عمل ذلك اليوم ؟ قال : يجزيه من الغد. اجاب عمر : فدحني عمل يوم واحد، فكيف اذا اجتمع علي عمل يومين ؟[٣٧٢].

لا جدال في ان عمال عمر، الذين احسن اختيارهم، كانوا كخليفتهم يصلون الليل بالنهار. ويذكر ابراهيم بن جعفر انه راى اباه : ابو بكر بن محمد (عامل المدينة) يعمل بالليل كعمله بالنهار لاستحثاث عمر اياه !![٣٧٣]. وتبدت رغبة عمر في الحرص على الزمن وضرب (الروتين) – مرة اخرى – عندما كتب الى عامله بالمدينة ان يقسم مبلغا من المال في ولد علي (رضي الله عنه) فرد عليه هذا ان ولد علي (رضي الله عنهم) قد تفرقوا في عدة قبائل من قريش ففي ايهم يكون العطاء ؟ ومن ثم تلقى جواب عمر : لو كتبت اليك في شاة تذبحها لكتبت الي اسوداء ام بيضاء ؟! اذا اتاك كتابي هذا فاقسم في ولد علي من فاطمة (رضي الله عنهم).. فطالما تخطتهم حقوقهم[٣٧٤]. وواضح من جواب عمر انه يريد من عماله – تمشيا مع فكرته في الحرص على الزمن – ان يكونوا اكثر تحررا في ادارتهم، والا يتشبثوا بحرفيه الاوامر، وان يجتهدوا في تنفيذ ما يصدر اليهم باسرع وقت مستطاع.

ان عمر في عمله المتواصل هذا، في كده وكدحه، في وصله الليل بالنهار من اجل البت في قضايا ومشاكل الامة، اعطى المثل الاعلى الواقعي على ايجابية المسؤول المسلم، وتكوينه العملي، وتوازنه العجيب بين التجربة الداخلية والسلوك والانجاز الخارجي. فعمر، هذا الذي قضى الساعات الطوال يتبتل الى الله، ويذرف الدموع في ساحته، ويضطرب قلبه حبا وخوفا .. عمر نفسه يقدم تلك الامثلة الحاسمة على تكوينه العملي وعلى ان المسلم اذا ما تحمل مسؤولية في يوم من الايام، فان ادراكه الايماني المسؤول يرفض ان يجنح يوما باتجاه الداخل مهملا

---

(٣٦٩) المصدر السابق ٥–٢٥٦.

(٣٧٠) ابن كثير : البداية والنهاية ٩–١٨٩.

(٣٧١) ابن سعد ٥–٢٩٣.

(٣٧٢) ابن عبد الحكم ، ص ٥٧.

(٣٧٣) ابن سعد ٥–٢٥٦.

(٣٧٤) المسعودي : مروج الذهب ٣–١٨٤–١٨٥.

الحركة في الخارج على سطح الواقع والعمل والسلوك، او ان يميل يوما باتجاه الخارج مهملا تجربته الباطنية وتيار ايمانه العميق وحسه الديني الذي هو بمثابة الاساس لكل حركة وانجاز في الخارج. ومن ثم – وهذا هو المهم – يتقدم عمر، ليرد بتوازنه هذا، على كل المتمزقين نفسيا وفكريا، والذين تاخذهم الدهشة كيف ان انسانا بلغ قمة تجربته الروحية، وسبر اغوارها الباطنية، يتحمل مسؤوليته كاملة تجاه الخارج، فلا ينسى هذه المسؤولية لحظة بل يتقدم ليتصدى لها بعزيمة تكسر الصخر وتفل الحديد ؟! ذلك، ثم ان تجربته الروحية – لودرى هؤلاء – هي التي يبني عليها الاسلام صرح حضارته السامق في امداء الزمان والمكان.

ان هذه الصورة عن ايجابية عمر وواقعيته، تنقلنا بالضرورة الى الجانب الاخر منها : المرونة والذكاء. يدخل ابنه عليه يوما وهو في قائلته، فيوقظه، ويدور بين الابن والاب هذا الحوار :

الإبن : ما يؤمّنك في منامك، وقد رفعت اليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟

الأب : يا بني ان نفسي مطيتي، ان لم ارفق بها لم تبلغني !! اني لو اتعبت نفسي واعواني لم يك ذلك الا قليلا حتى اسقط ويسقطوا !! واني لاحتسب في نومتي من الاجر مثل الذي احتسب في يقظتي !! ان الله جل ثناؤه، لو اراد ان ينزل القرآن جملة لانزله، ولكنه انزل الاية والايتين، حتى استكن الايمان في قلوبهم ..

الإبن : ؟؟

الأب : يا بني .. ما مما انا فيه امر هو اهم الي من اهل بيتك (الامويين) هم اهل القدرة والعدد، وقبلهم ما قبلهم. فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي. ولكني انصف الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءه، فيكون انجح له[٣٧٥].

ويعرض ابن عبد الحكم قطعة اخرى من حوار ثان بين الاب والابن، تكمل القطعة الاولى التي قدمها لنا ابن الجوزي، يسأل الإبن آباه : لماذا توخر بعض الامور ؟ فيجيب الاب : والله ما استطيع ان اخرج لهم شيئا من الدين الا ومعه طرف من الدنيا استلين به قلوبهم خوفا ان ينخرق علي منهم مالا طاقة لي به !![٣٧٦].

في هذين الحوارين يقدم لنا عمر فقهه الحاذق في ادارة الحركات الانقلابية وتسيير البرامج التي تستهدف اسقاط الظلم والاستغلال ونشر العدل والمساواة (اني لو اتعبت نفسي واعواني لم يك ذلك الا قليلا حتى اسقط ويسقطوا). ان طاقة الانسان محدودة، وان القابلية على تحمل الجد الصارم لها حدودها هي الاخرى. والانسان في تقبله لالتزاماته في حاجة ضرورية

---

(٣٧٥) ابن الجوزي ، ص ١٠٦.

(٣٧٦) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠.

الى وقت كاف لتمثل هذه الالتزامات من الداخل وتحويلها الى مبادىء وقيم ممزوجة بدم الانسان واعصابه، ومتشكلة في بنيته وخلاياه. وبدون هذا لن تجتاز هذه الالتزامات حدود الانسان الباطنية، وستظل هناك مكدسة على اعتاب الحس الخارجي، وطالما ظل هذا التكديس يزداد ثقلا يوما بعد يوم، فسوف ياتي يوم – لا محالة – يسقط فيه الانسان تحت وطاة هذا الثقل المتزايد غير المتمثل، كالطعام الذي لا تستسيغه الاجهزة الهضمية ولا تتمثله الخلايا .. من اجل ذلك انزل الله قرانه مفرقا ليقراه الرسول العظيم على الناس على مكث، ومن اجل ذلك نزل القرآن – هكذا – تنزيلا .. ولم يعط لمحمد (صلى الله عيه وسلم) نظرية كاملة محفوظة بين دفتي كتاب. كان المسلمون الاولون يتلقون الاية والايتين في مناسباتها الحيوية، ومن ثم يجدون امامهم من الوقت ما يتيح لهم تمثل هذه الايات وتحويلها في بنيانهم وكينونتهم الى دم واعصاب. بينما ظلت كل الجماعات الاخرى التي تلقت مبادىء ونظريات جاهزة، معروضة في كتاب، ظلت تنوء بها كحمل ثقيل لا يتعدى وجود الانسان الخارجي. وما اروع القرآن الكريم، وما اشد اعجازه، عندما يصور هذا التكديس الذي مارسه احبار بني صهيون تجاه شعبهم، بان كلا منهم غدا (كالحمار يحمل اسفارا) .. الحمار الذي لا يعي ما يحمل ولا يتمثل ما تقوله سطور الاسفار .. وانى للحمار ان يعي ويتمثل وهو لا يستطيع حتى مجرد القاء نظرة على ما يحمله من اسفار ؟!

هكذا ينبثق فقه عمر الاداري، بمفهومه العقيدي، عن تصور كامل لابعاد الحركة الاسلامية، وطبيعة سيرها من يوم انقلابها على عهد رسولها العظيم (عليه السلام).

وماذا يلفتنا بعد، من حوار عمر مع ابنه ؛ تلفتنا عبارته (... لكني انصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون انجح له). ان عمر هنا يؤكد على فاعلية (الانجاز) وعلى دوره في تحقيق الانقلاب .. فكثيرون هم اولئك الذين طرحوا اقوالا اعلنوا فيها عن عزمهم على احداث ثورة حقيقية، انقلاب يجتث كل الجذور العفنة، ويبدا بالزرع من جديد .. لكن هؤلاء ما لبثوا ان سقطوا وسقطت مبادؤهم لانهم كما قلنا : طرحوا اقوالا .. اما عمر، هذا الفقيه الحاذق، فانه يريد ان يطرح افعالا. ولا يطرحها هكذا بالعنف والاكراه ودونما تخطيط، وانما ينصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما، حتى يسري الانقلاب في نفوس الامة انى كانت، سريان النار في الهشيم. ثم ان عمر، هذا الذكي المرن، لم يشأ ان (يخرج شيئا من الدين الا ومعه طرف من الدنيا يستلين به القلوب)، ولا يمكن لاحد ان يقول ان هذا يمثل تنازلا من عمر بن عبد العزيزعن اهداف ثورته الشاملة، صوب اصلاح جزئي يقوم على الترقيع .. لانا ما عرفنا عمر، منذ حمل مسؤولية امته، يسعى الى التنازل، ولو شبرا واحدا، عن الاهداف التي طرحها القرآن والسنة. ولكنه هنا يقدم فقه الاسلوب، الاسلوب، الحيوي الذي تتاتى به تلك الاهداف كاملة .. ان الضغط

المستمر يولد الانفجار، ومهما كان سخف هذا الانفجار وعبثه، فانه لابد ان يحرق ويدمر .. واذا كان بامكان القادة والمسؤولين تجاوز هذا الحريق وهذا الدمار عن طريق التزام اسلوب حيوي ينسجم وبنية الانسان النفسية، فلماذا لا يسلكونه ؟!. لقد قال له ابنه يوما : يا امير المؤمنين انقد لامر الله وان جاشت بي وبك القدور. فماذا كان جواب الخليفة المرن : يا بني : ان بادهت الناس بما تقول احوجوني الى السيف، ولا خير في خير لا يحيا الا بالسيف، لا خير في خير لا يحيا الا بالسيف !![٣٧٧].

ان خليفة بهذه المرونة وهذا الذكاء لا يمكن ان يخدع عن اهدافه يوما. وما اروع ان نقرأ معا هذه الحادثة : كتب اليه عامله الوليد بن هشام – وكان مرائيا – خديعة منه للخليفة، وتزينا بما هو ليس عليه : اني قدرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهما، ورزقي – هذا – يزيد على ما احتاج اليه. فان راى امير المؤمنين ان يحط فضل ذلك !! قرا عمر الكتاب وادرك مراميه في لحظة فالتفت الى جلسائه قائلا : اراد الوليد ان يتزين عندنا بما لا اظنه عليه، ولو كنت عازلا احدا عن ظن لعزلته !! ثم ما لبث ان امر فعلا بخفض راتبه الى الحد الذي طلبه هو !! وكتب الى يزيد بن عبد الملك – ولي عهده – ان الوليد كتب الي كتابا اكثر ظني انه تزين – فيه – بما هو ليس عليه. ولو امضيت شيئا على ظني ماعمل لي ابدا، ولكنني اخذ بالظاهر، وعند الله علم الغيوب !! فانا اقسم عليك – ان حدث بي حادث وأفضى امر الخلافة اليك، فسالك ان ترد اليه رزقه، وذكر انني نقصته – الا يظفر منك بهذا ابدا، فانما خادع به الله، والله خادعه. وما ان توفي عمر حتى صدق حدسه، اذ ما لبث الخليفة الجديد ان تلقى كتابا من الوليد يعلمه فيه ان عمر قد نقصه وظلمه !! فغضب وامر بعزله وتغريمه كل ما جرى عليه من رواتب وارزاق منذ تعيينه حتى عزله، ولم يل بعد ذلك عملا حتى وفاته!![٣٧٨].

وشبيه بهذه الحادثة ما قام به عمر من عزل يزيد بن ابي ميسلم، عامله على افريقية، لما كان يمارس من الظلم والجور والتجبر، رغم انه كان يغطي اسلوبه هذا بالاكثار من الذكر والتسبيح !! فكان يامر بالقوم فيحضرون بين يديه ويطلب تعذيبهم وهو يقول : سبحان الله والحمد الله، شد يا غلام موضع كذا وكذا ... ولكن هذا الزيف وهذا الخداع لم يفت الخليفة الذكي فكان كتاب عزل العامل من اول الكتب التي اصدرها اثر تسلمه الخلافة[٣٧٩].

---

(٣٧٧) ابن الاثير : الكامل ٥–٦٥–٦٦.

(٣٧٨) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٣.

(٣٧٩) المصدر السابق ، ص ٣٨.

ومـن قبـل كـان جـده العظـيم، عمـر بـن الخطـاب يقـول (لسـت بالخـب[٣٨٠] ولا الخـب يخدعني) .. وانى لمسؤول مسلم، ينظر بنور الله، ان يخدع، او ان يؤخذ عليه الطريق على حين غرة ؟!

(٣٨٠) الخب : المخادع.

الفصل الخامس

التربية والتثقيف

{ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ

لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا

إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}

التوبة ١٢٢

لـم يتـرك عمـر بـن عبـد العزيـز ميـدانا مـن ميـادين العمـل والكفـاح الا ادلـى بـدلوه فيه : رسم المشاريع، وحدد الخطط، واشار الى الاهداف .. وسار بما يحيط به من امكانات امة متحضـرة فتيـة، حثيثـا، صـوب تلـك الاهـداف. ان الشخصـية الايجابيـة الفعالـة (للمسـؤول المسلم) تتبدى، هكذا، واضحة في حياة عمر. انه يريد ان يصبغ كل جبهة بصبغة الله، وان يشد كـل فاعليـة الـى مصـادرها الاصـيلة مـن القـرآن والسـنة، وان يرسـي اسـس الدولـة الاسـلامية وحضارتها على قواعد العقيدة التي تقوم على شهادة (لا اله الا الله، محمد رسول الله).

وها نحن معه .. لحظات .. وهو يعمل – مع مربي الامة ومعلميها – في ميدان التربية والتوجيه والتثقيف .. ودائما ننطلق مبتدئين بوجوده هو .. فتلك هي القاعدة التي اكدها الرسول عليه السلام طيلة ثلاث عشرة سنة من عمر الدعوة : ان يبدا الانسان ثورته من الداخل، ان يقوم بعملية تغيير داخلي سماها الرسول (عليه السلام) : الجهاد الاكبر. ومن ثم يعلن ثورته على القيم والاوضاع والقيود الخارجية .. وسيرى انذاك فقط، كيف ستؤتي ثورته، اكلها، وكيف سيشهد التـاريخ انقلابـا حقيقيـا تتـوازن فيـه القـيم الخارجيـة والباطنيـة علـى السـواء .. وكيـف ان الثـورة الاصـيلة فـي كـل ميـدان هـي تلـك التـي تقـوم علـى مـا يمكـن ان نسـميه (التغييـر الـداخلي – الوجداني) .. وان اية ثورة لا تقوم الا على الفراغ، وعلى ارادة التحطيم الخارجي فحسب، دون احداث هذا التغيير الداخلي، لن تنتهي الا بالفشل، لان الله (سبحانه وتعالى) : **{ لَـهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ }** (الرعد : الآية ١١). وما كان لعمر – اذن – هنا في ميدان التربية والتثقيف الا ان يبدأ عملية التغيير الداخلي هذه في نفسه هو، بمعنى اخر : ان يكون مثقفا كي يمارس التثقيف، وان يكون (القدوة الحية الصالحة) كي يمارس التربية.

وقد عرفنا في تجوالنا عبر الصفحات الماضية، كيف تحققت (القدوة الحية الصالحة) في حياة عمر، ونستطيع الان ان نخمن ماذا يمكن ان يحدثه اي توجيه تربوي يمكن ان يمارسه عمر تجاه امته، بل تجاه امم الارض وقادتها وحكامها. ونحن لازلنا نذكر قول البلاذري في (فتوح البلدان) .. (كتب عمر بن عبد العزيز الى ملوك الهند، يدعوهم الى الاسلام والطاعة، على ان يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم – وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه – فاسلموا وتسموا باسماء العرب) !!

ونضيف الان رواية الطبري حيث يقول (كان الوليد – بن عبد الملك – صاحب بناء، واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه، فانما يسال بعضهم بعضا عن البناء والمصانع. فولي سليمان – بن عبد الملك – فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسال

بعضهم بعضا عن التزويج والجواري، فلما ولي عمر بن عبد العزيز، كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ؟!)[٣٨١].

ولنا ان نتصور – بعد هذين الشاهدين – الاثر الكبير الذي تركه الخليفة القدوة في حياة الناس الذين عاصروه .. انه استطاع – عن طريق انتصاره في الداخل – لا ان يكسب حكاما وشعوبا الى الاسلام فحسب، بل – وهذا هو الانتصار الحقيقي – ان يعيد الامة الاسلامية نفسها الى تجربتها الروحية والفكرية، وارتباطها الجماعي الدائب – عبر الايام والليالي – بالله : صلاة وصياما وتلاوة قران وذكرا لله، وتفكيرا في خلقه، وايمانا حيا دفاقا يتفجر في وجدانهم عبر هذا الاتصال الدائب بالله وملكوته. وتلك هي القاعدة – او الخلفية – التي هيأت للامة الاسلامية في عهد الرسول (عليه السلام) وخلفائه الراشدين ان تصنع المستحيل، وان تنتقل بمدنية العالم خطوات كبيرة الى الامام بعد ان صبغتها بصبغة الله، ورفعت في ميادينها راية (لا اله الا الله) .. ان سليمان بن عبد الملك – مثلا – لم يكن القدوة الصالحة، لانه لم يتمكن من الانتصار في معركة الذات، فظل الطعام والنساء يستعبدانه حتى رمقه الاخير .. والناس على دين ملوكهم .. وسرعان ما ينتشر تقليد جماعي يجعل اهتمامات ابناء الامة تنصب على النساء والطعام .. اما هنا، في عهد الخليفة الذي اجتاز معركة الذات بنجاح منقطع النظير فان القدوة الصالحة الحية تحققت فعلا، واتت اكلها في حياة الناس.

ولنا الان ان نعرف شيئا عن عمر (المثقف) لكي نستعرض – من ثم – بعض مشاريعه ومنجزاته في هذا الميدان. لقد هيات الظروف لعمر – مذ كان طفلا يرعاه ابوه عبد العزيز بن مروان امير مصر – اوضاعا ممتازة للتعليم والتثقيف، وكان هو قد اعرب عن حرصه على العلم وحبه للادب منذ تفتح وعيه للحياة[٣٨٢] ، فقد عكف – منذ صباه وهو بعد في مصر – على مجالسة الصحابة والتابعين ورواه الحديث والاستماع الى الشعر والادب، حتى قيل ان مجلسه كان ندوة للفقهاء والعلماء والادباء. وحفظ القرآن وهو بعد صغير، ثم ما لبث ابوه ان ارسله الى المدينة لطلب العلم، فتفقه في الدين، وروى الحديث، وعكف على دراسة الادب ونظم الشعر[٣٨٣] ، كما قام باتصالات عديدة بشيوخ المدينة، تمكن عن طريقها ان يبلغ شاوا بعيدا في ميادين الفقه والحديث[٣٨٤].

---

(٣٨١) تاريخ الرسل والملوك ٦–٤٩٧.

(٣٨٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٩–١٩٣.

(٣٨٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ١–٣٢٥.

(٣٨٤) علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ، ص ٣٠٨.

ظل عمر يعمل في هذا الميدان، وينهل من موارد المعرفة الاسلامية : فقها وقرانا وحديثا، وتفسيرا وعقائد وتشريعا، حتى بلغ من علو كعبه واستبحاره في العلم ان قيل : كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلاميذه[٣٨٥]، وحتى قال عنه الذهبي في(تذكرة الحفاظ) (كان عمر يقرن بالزهري في علمه[٣٨٦])، وقال مجاهد (اتيناه لنعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه[٣٨٧]!!) وقال ميمون بن مهران (كان عمر معلم العلماء[٣٨٨])، وقال رجاء بن حيوة (ما رأيت افصح من عمر) [٣٨٩] ، وقال احد عماله (ما التمسنا علم شيء الا وجدنا عمر اعلم الناس باصله وفرعه[٣٩٠])، ويبلغ من تقدير الامام احمد بن حنبل (رضي الله عنه) لعمر ان يقول عنه (لا ادري قول احد من التابعين حجة الا قول عمر[٣٩١])، ويحكي الليث كيف ان احد اصحابه راى سليمان ابن يسار خارجا من عند عمر، فساله : أمن عند عمر خرجت ؟ قال : نعم ! قال : تعلمونه ؟ قال: نعم ! قال : هو والله اعلمكم !![٣٩٢].

ولولا الخلافة وتكاليفها، لكان عمر قد قطع خطوات واسعة اخرى في هذا الميدان، ولاصبح من العلماء المعدودين ومن الفقهاء المشهورين[٣٩٣]. ورغم ذلك فان عمر ما ان تولى اعباء مهمته كخليفة للمسلمين، حتى بدا بتحويل مركز حكمه الى ساحة يجتمع فيها علماء الامة وربانيوها، وابعد كل الشعراء والمرتزقة الذين كان البلاط يعج بهم .. ومن ثم بدأ نشاطا واسع النطاق في هذا الميدان، ابرزه تلك العناية العظيمة التي اولاها (علم الحديث) الذي يمثل السند اليقيني الثاني لعقيدة المسلمين وشريعتهم ووجودهم. يقول الندوي : (وقد اراد الله ان يكون له فضيلة السبق في هذا الميدان، كما كان لجده العظيم عمر بن الخطاب فضيلة السبق لجمع القرآن – فانه رضي الله عنه هو الذي اشار على ابي بكر الصديق رضي الله عنه بجمعه – وقد كتب عمر بن عبد العزيز الى احد كبار علماء الحديث، واوعية العلم في عصره : ابي بكر بن محمد بن حزم ان (انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فاني خفت درس العلم وذهاب العلماء)، واشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة ابنة عبد الرحمن

---

(٣٨٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ ١–٣٢٥.

(٣٨٦) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ص ١٠٦.

(٣٨٧) المصدر السابق، نفسه الصفحة.

(٣٨٨) ابن سعد : طبقات ٥–٢٧١.

(٣٨٩) ابن كثير : البداية والنهاية ٩–١٨٣.

(٣٩٠) المصدر السابق ٩–١٩٤.

(٣٩١) المصدر السابق ٩–١٩٢.

(٣٩٢) المصدر السابق : البداية ٩–١٩٤.

(٣٩٣) الندوي : رجال الفكر والدعوة في الاسلام ، ص ٤٣.

الانصارية وقاسم بن محمد بن ابي بكر، لأهميتهما. ولم يكتف – رحمه الله – بابي بكر بن حزم، بل كتب الى عماله بالاقاليم : (انظروا الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه ..)[٣٩٤]. كما اصدر منشوراً يامر فيه اهل العلم ان ينشروا العلم في مساجدهم (فان السنة كانت قد اميتت)[٣٩٥]. ومن ثم فان المسلمين سيظلون مدينين لعمر في هذا الميدان العظيم: حيث اقبل على تدوين العلوم الاسلامية المتمثلة بالحديث، بعد ان تعرض للضياع، لانصراف الناس الى السياسة والادارة والحروب[٣٩٦].

لم يكن عمر بالانسان الذي تستهويه المشاريع الكبرى فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه .. بل هو – بما عرف عنه من عملية ابجابية – سرعان ما يحيل الخيال الواسع هذا الى واقع يشهده التاريخ، فيمهد له الظروف، ويحيطه بالضمانات العملية، ويهيء له من الاسباب ما يجعله يستحيل الى واقع مشهود .. وها هو في مجال هام كهذا يضع ما يسمى اليوم بـ (قانون التفرغ)، حيث تتولى الدولة كفالة عدد من العلماء والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لانجاز المشاريع الفكرية التي يعكفون عليها اختيارا او بتوجيه من الدولة .. فيجري الارزاق على علماء الجمع والحديث هؤلاء، ويرتب لهم الرواتب ليتوفروا على نشر العلم ومؤونة الاكتساب، فكان يمنح من بيت المال مبلغا قدره مائة دينار لكل من انقطع الى مسجد جامع، في اي بلد اسلامي، لغرض التفقه ونشر العلم، وتدريس القرآن وتلاوته[٣٩٧]. وكتب الى والي حمص : (انظر الى القوم الذين نصبوا انفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين – حين ياتيك كتابي هذا – وان خير الخير اعجله والسلام)[٣٩٨]. وفي رسالة اخرى لوالي حمص، يزيد الخليفة مشروعه هذا توضيحا : (مر لاهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم، لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الاحاديث)[٣٩٩].

ويذكر محمد بن عبد الحكم ان عمر بن عبد العزيز بعث يزيد بن ابي مالك والحارث بن محمد الى البادية ليعلما الناس السنة، واجرى عليهم الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال : ما كنت لاخذ على علم علمنيه الله اجرا. فذكر ذلك لعمر فقال : ما نعلم بما صنع يزيد باسا، واكثر

---

(٣٩٤) الندوي ، ص ٤٢–٤٣، عن تاريخ اصبهان لابي نعيم.

(٣٩٥) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٩٤.

(٣٩٦) المصدر السابق ، ص ٤٢.

(٣٩٧) ابن كثير ٩–٢٠٧.

(٣٩٨) ابن الجوزي : سيرة عمر ، ص ٩٥.

(٣٩٩) المصدر السابق ، ص ١٠٣.

الله فينا مثل الحارث[٤٠٠]. وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب ان يتحلى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية، وعدم جمود على الاشكال، حيث اعلن ان اخذ الاموال لقاء الخدمات العلمية امر لا باس به، وسأل الله – من جهة اخرى – ان يكثر اولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون اجر الا اجر الله !!

ونشهد موقفا اخر من المواقف التي تعبر عن هذه المرونة لدى استدعائه عامله على خراسان، اثر سماعه انباء تشير الى عدم التزام هذا العامل العدل الكامل مع اهالي خراسان. فقد اسرع هذا بمغادرة ولايته تنفيذا لامر الخليفة. وعندما وصل دمشق، وراى الخليفة على وجهه سيماء التعب والاجهاد ساله : متى خرجت ؟ اجابه : في شهر رمضان، فرد عليه الخليفة : قد صدق من وصفك بالجفاء !! هلا اقمت حتى تفطر، ثم تخرج ؟![٤٠١]. ثم لنتامل معا قول عمر: (ما يسرني لو ان اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا، لانهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة!!)[٤٠٢].

لم تشغل اعباء الخلافة عمر بن عبد العزيز عن توجيه الاهتمام الكافي في ميدان التربية والتعليم، فهو لم يكتف بتوجيه العلماء الى اداء المهام الاساسية الملقاة على عاتقهم، وتهيئة الظروف العملية لانجاز هذه المهام، بل اسهم بنفسه في تقديم معطياته العلمية للامة الاسلامية في شتى فئاتها : فعقد مجالس الحديث، وروى عن المحدثين الثقات من التابعين : ابيه وانس وعبد الله بن جعفر بن ابي طالب وابن قارط ويوسف بن عبد الله بن سلام وعامر بن سعد وسعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير وابي بكر بن عبد الرحمن والربيع بن سمرة واخرين. ونقل عنه الحديث علماء كبار من التابعين كالزهري ومحمد بن المنكدر ويحيى بن سعيد الانصاري ومسلمة بن عبد الملك ورجاء بن حيوة وآخرون[٤٠٣]. كما قام بجمع الاحاديث الموثوقة المسندة، ودونها في (مسند) يعرف باسمه حتى اليوم، وبعث برسالة الى عماله اوصاهم فيها بالاحتياط في تنفيذ العقوبات، وشرح لهم نظام التعزير الاسلامي[٤٠٤]. وكتب الى احد عماله (ان للايمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا، فمن استكملها استكمل الايمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان. فان اعش فسابينها لكم حتى تعملوا بها، وان مت فما انا على صحبتكم بحريص)[٤٠٥].

---

(٤٠٠) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ، ص ١٦٠.

(٤٠١) الطبري : تاريخ ٦–٤٦٠.

(٤٠٢) ابن الجوزي : سيرة عمر ، ص ٢٣٨.

(٤٠٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٢.

(٤٠٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ، ص ٨١–٨٣.

(٤٠٥) صحيح البخاري، كتاب الايمان.

وكان يقتطع من اوقات راحته في الليل، ساعات لاقامة الندوات العلمية، وفتح باب النقاش الحر، الذي ادرك عمر كم هو حيوي للتوصل الى الحقائق المجردة. وقد اعرب عن ادراكه العميق لما يتاتى عن التقاء الافكار من نتائج فكرية ايجابية، عندما ساله رجاء بن حيوة : يا امير المؤمنين، نهارك كله مشغول، وهذا جزء من الليل وانت تسمر معنا ؟! وجاءه الجواب من معلم العلماء (يا رجاء، ان ملاقاة الرجال تلقيح لالبابها، وان المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة، لا يضل معهما راي، ولا يقعد معهما حزم)[٤٠٦]. (وجدت ملاقاة الرجال تلقيحا لالبابها)، لقد اصاب عمر كبد الحقيقة : ان صدام الافكار بالافكار، ومقارعة الحجة بالحجة، وتقابل البرهان بالبرهان يحرك الفكر، ويعمقه، وفوق هذا وذاك يحدث لقاحا وتمخضا عن مزيد من الافكار ..

ادرك عمر المثقف، المسؤول، قوة الكلمة، وانها اذا ما انبثقت عن قلب يتفجر بالايمان، بالحكمة والموعظة الحسنة، غدت اعظم نفعا واكثر فاعلية من كثير من الوسائل الاخرى التي يتوسل بها المرشدون لتوجيه الناس صوب ساحات الخير واليقين .. وكتب الى القرظي، احد معلمي الامة (ان الموعظة كالصدقة، بل هي اعظم اجرا وابقى نفعا واحسن ذخرا، واوجب على المرء المؤمن حقا. لكلمة يعظ بها الرجل المؤمن اخاه، ليزداد بها في هدى، رغبة، خير من مال يتصدق به عليه، وان كان به اليه حاجة. ولان ينجو رجل بموعظتك من هلكة، خير من ان ينجو بصدقتك من فقر. فعظ من تعظه لقضاء حق عليك، واستعمل نفسك حين تعظ !! وكن كالطبيب المجرب العالم الذي قد علم انه اذا وضع الدواء حيث لا ينبغي اعنته واعنت نفسه .. واعلم انه لم يجعل المفتاح على الباب لكيما يغلق فلا يفتح، او ليفتح فلا يغلق، ولكن ليغلق في حينه ويفتح في حينه)[٤٠٧].

كما ادرك عمر حقائق جديرة بالاعجاب في ميدان التربية، التربية التي تسعى الى تكوين طفل مسلم موحد الذات والاهداف، غير منقسم على نفسه بين القول والعمل، او بين الواقع والمثال .. طفل ينمو ويكبر وهو يحس ان قراءة القرآن والتشبع بادبه ترتبط ارتباطا شرطيا بركوب الخيل والتراشق بالنبال وان الفطام – منذ هذه المرحلة – عن الترف والملذات والملاهي، هو الذي يخلق الرجال. وتلك – لعمري – اهداف ارتدت عنها خائبة، جل البرامج التربوية الحديثة. ولنقرا معا كتاب عمر الى مؤدب اولاده – على سبيل المثال – (.. اني اخترتك على علم مني بك لتاديب ولدي، فصرفتهم اليك من غيرك من موالي وذوي الخاصة بي. فحدثهم بالجفاء فهو امعن لاقدامهم، وترك الصحبة، فان عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك، فان كثرته

---

(٤٠٦) اليعقوبي : تاريخ ٢–٣٠٦، وانظر ابن عبد الحكم : سيرة عمر ، ص ١٢٤.

(٤٠٧) ابن عبد الحكم : سيرة ، ص ١٣٢–١٣٣.

تميت القلب. وليكن اول ما يعتقدون من ادبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان .. واللهج بها، ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء .. وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءته، فاذا فرغ، تناول قوسه ونبله، وخرج الى العرض حافيا فرمى سبعة ارشاق ثم انصرف الى القائلة)[٤٠٨].

***

ان ابرز ما يلاحظ في الرسائل المتتالية، التي كان عمر يبعث بها الى عماله وموظفيه، هو التاكيد على ربط العلم بالعمل، فلا عمل بلا علم ولا علم بلا عمل، فهذا هو المفهوم التربوي الذي جاء به الاسلام، وخصص القرآن والرسول (عليه السلام) من اجله حشدا من الايات والاحاديث، وتلك هي ميزة الاسلام عن سائر المبادىء الوضعية التي تعاني ثنائية وازدواجا في طبيعة العلاقة بين العلم والعمل، هذه الثنائية التي تتبدى في دراساتهم ومشاريعهم النظرية، وفي واقعهم العملي .. فهناك دائما جدار فاصل بين المذاهب وبين الاعمال. والذي يقرا معطيات الوضعيين الفكرية والفلسفية، منذ عهد افلاطون وحتى العصر الحديث يلاحظ هذه الثنائية. وما من شك في ان هذا الفصل امر محتم في كل مبدأ لا يخاطب كينونة الانسان، ولا يتعامل مع واقع الحياة، ولا يرسم الخطوات الحصيفة لربط الاسباب بالمسببات، والافكار بالاعمال.

ان جانبا من اهم جوانب اعجاز الاسلام – بما انه مبدا الهي – هو هذا الاتصال الطبيعي العضوي بين التوجيه والتنفيذ، او بين العلم والعمل. لان الله – الذي هو سبحانه وتعالى ادرى بخلقه – كان يخاطب في رسالاته دائما فطرة الانسان وكينونته، لا جانبا واحدا منه فحسب، وكان – سبحانه وتعالى – قد هيأ لمبادئه كل امكانات التعامل مع الواقع البشري للتسامى به الى الافاق التي شهدها – دائما – تاريخ الانبياء والمؤمنين. وقد ادرك الانبياء – عليهم السلام – ومن بعدهم خلفاؤهم وتلاميذهم، ان اخطر ما يمكن ان يصيب اتباع ديانة من الديانات هو ايجاد هذا الفصل الخطير بين العلم والعمل، وخلق هذه الثنائية بين التوجيه والتنفيذ لان ثنائية كهذه – مهما كانت درجتها – كفيلة بتجميد فاعلية المبادىء الاساسية للاديان من جهة، وتمزيق وحدة الذات الانسانية من جهة اخرى، بحيث لا تغدو قادرة – ابدا – على التوحد واستعادة الانسجام والاخذ عن المبادىء السابقة. هذا ما حدث لبني اسرائيل، ولكثيرين غيرهم من اتباع الديانات، فضلا عن ان ثنائية كهذه امر محتم بالنسبة لكل المبادىء الوضعية التي تقع دائما في خطا اهمال الانسان كانسان، ومخاطبة جانب واحد منه فحسب .. ومن ثم تفقد اية قدرة على تربيته وتحريكه.

---

(٤٠٨) ابن الجوزي : سيرة عمر ، ص ٢٥٧–٢٥٨.

ثم ان من الامور المسلم بها – من جهة ثانية – هي ان العمل دون قاعدة علمية توجيهية، لا ياتي باية نتيجة جادة، وهذا العمل – وان كان يتسم احيانا بطابع الشعبية والجماهيرية – الا ان نتائجه تاتي كالزبد الذي يخدع فورانه الظاهر كثيرا من الناس، لكنه سرعان ما يذهب جفاء ولا ينفع الناس .. وتلك هي حركات الفوضى العديدة التي شهدها التاريخ، والتي انبثقت عن اعمال مرتجلة لا تستند الى اية قاعدة من علم او توجيه .. كيف انطلقت كمياه الفيضان التي تحطم السدود وتسحق في طريقها كل عناصر الحياة والنماء، وتنشر الموت والدمار والخراب .. ثم ما تلبث ان تبتلعها اغوار الارض، او يمتصها لهيب الشمس المحرق، فلا تتكشف – يعد ذلك الهدير – الا عن ارض تتحدى ارادة التخريب والدمار عن غير علم، وتنتظر الايدي العالمة التي تعرف كيف تستنبتها، وتنشر فيها الخضرة والحياة ..

وها هو عمر بن عبد العزيز، يحذر الامة الاسلامية ومسؤوليها من خطا الوقوع في هذه الهاوية، ويبعث برسائله المتتالية، منددا، محذرا، طالبا الالتزام الكامل بالتوحيد بين العلم والعمل. فيكتب الى عبد الرحمن بن نعيم واليه على خراسان، يقول (ان العلم والعمل قريبان، فكن عالما بالله عاملا له، فان اقواما علموا ولم يعملوا، فكان علمهم عليهم وبالا) ويبعث اليه: (أما بعد، فاعمل عمل رجل يعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين)[٤٠٩]. ويعلن ان (من عمل على غير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح (!!) ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه)[٤١٠]. ويعمم رسالة على عماله يحثهم فيها على اتباع ما امر الله به، واجتناب ما نهى عنه[٤١١]. وهو في توجيهاته واوامره هذه لعماله وموظفيه، يريد ان يجعل من كل واحد منهم (القدوة الحية الصالحة) في الاقليم الذي يديره، كي يقتدي به مواطنو ذلك الاقليم. كما يريد منهم تحويل الاجهزة والامكانات الادارية التي بايديهم الى وسائل تربوية تستهدف الربط الدائم، والمراقبة المستمرة لتحقيق مفهوم التوحد بين العلم والعمل وقد راينا هذا واضحا لدى استعراضنا منجزات عمر في ميدان الادارة.

ومسائل اخرى كثيرة – لا مجال لعرضها – في ميادين تثقيفية وتوجيهية شتى، كان عمر يصدرها الى كل الجهات، فضلا عن رسائله في ميادين الحرب والسياسة، والادارة والاقتصاد، تبين كلها شيئين اساسيين : اولهما ثقافة عمر الواسعة، وذكاءه الفذ، وادراكه العميق لاساليب التعليم والتربية والتفكير، وثانيهما حرصه العجيب على خلق اجواء ثقافية حرة، وحركة علمية دائبة، وحوارا فكريا متصلا بين كبار مثقفي الامة وعلمائها وفقهائها، تلك الاجواء التي جعلت

---

(٤٠٩) الطبري : تاريخ ٦–٥٦٧.

(٤١٠) المصدر السابق ٦–٥٧٢.

(٤١١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر ، ص ٩٣.

عصر عمر، الذي لم يتجاوز السنتين والنصف يعج بعدد كبير من ابرز العلماء والفقهاء والمفكرين، عدد لم يشهد مثيلا له – كثرة وتركيزا – اي عصر اخر مهما طال. واليكم بعض الاسماء : خارجة بن زيد بن ثابت، يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، ابو سلمة بن عبد الرحمن، سالم بن عبد الله بن عمر، القاسم بن محمد بن ابي بكر، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، محمد بن كعب القرظي، عاصم بن عمر بن قتادة، نافع مولى عبد الله بن عمر، سعيد بن يسار، محمد ابن الحارث التيمي، عبد الله بن دينار، الزهري، عبد الله بن ابي بكر، عطاء بن ابي رباح، مجاهد بن جبير، عكرمة مولى عبد الله بن عباس، الشعبي سالم بن ابي الجعد، حبيب بن ابي ثابت، عبد الملك بن ميسرة الهلالي، ابو اسحق السبيعي، الحسن البصري، ابن سيرين، ابو قلابة، عبد الله بن يزيد، عبد الملك الليثي، زيد بن نوفل، علقمة بن عبد الله المزني، رجاء ابن حيوة، مكحول الدمشقي، راشد بن سعد، سليمان بن حبيب المحاربي، ميمون بن مهران، يزيد بن الاصم، ابو قبيل المعافري، طاووس اليماني[٤١٢].

لم يأخذ الزهو عمر يوما، وهو معلم العلماء، فيسعى الى استغلال منصبه ليظهر امام هذا الحشد العظيم من العلماء، واقفا على القمة .. وحاشاه .. ان دأبه ينصب على ان يكون معهم .. مع ابناء الامة التي يرعاها في شتى المجالات، في ميدان الحرب والسياسة كان عمر مع الجندي والمعارضة وفي ميدان الادارة كان عمر مع ابناء الولايات حتى لو تاخمت بلادهم حدود الصين، او امتدت على سفوح البيرنيه .. في ميدان الاقتصاد والاجتماع مع المظلومين والفقراء والبائسين حتى يرفعهم الى الكفاية .. وها هو – في هذه الساحة – عالم من العلماء، واحد منهم، ياخذ منهم ويعطيهم، ويجتمع بهم اجتماع الرفيق برفاقه، والند باندداده .. كان (رضي الله عنه) يعلم ان هؤلاء العلماء هم رؤوس الامة المفكرة، ومخططو برامجها العقائدية، ورواد شرفها وامتيازها وتفردها على الامم .. ومن ثم فان المكانة والتقدير التي حظي بها كل منهم، بلغت في عهد معلم العلماء شاوا بعيدا ..

ونحن نؤكد هذه الحقيقة، نورد – على سبيل المثال – هذا الكتاب، من بين عدد من الكتب والتاكيدات والاقوال، لنختتم به، في نفس الوقت، صفحة مشرفة اخرى من خلافة المعلم: الى عدي بن ارطاة عامل البصرة : (انك لن تزال تعني الي رجلا من المسلمين في الحر والبرد، يسالني عن السنة كانك انما تعظمني بذلك !! وايم الله لحسبك بالحسن (البصري)، فاذا اتاك كتابي هذا فسل الحسن لي ولك وللمسلمين !! فرحم الله الحسن، فانه من الاسلام بمنزل ومكان،

(٤١٢) اليعقوبي : تاريخ ٢-٣٠٨-٣٠٩.

ولا تقرئنه كتابي هذا !!)[٤١٣] .. وتلك هي قمة التواضع التي ما بلغها يوما علماء الارض ومفكروها.

(٤١٣) ابن الجوزي : سيرة عمر ، ص ١٠١.

ختام الرحلة

{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ

نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ

وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}

القصص ٨٣

مضت سنتان وخمسة اشهر على استخلاف عمر بن عبد العزيز : كل الاعمال العظيمة التي شهدناها معا .. كل المنجزات الشاملة التي استعرضناها معا .. كل الانقلابات التي شهدتها ميادين الحرب والسياسة والادارة والاقتصاد والتربية والتثقيف التي استملياها معا .. ميدانا بعد ميدان، وساحة بعد ساحة .. هذه كلها تمت على مدى سنتين وخمسة اشهر .. ان عمر اجتاز منحنى حياته صوب القمة .. وهو هناك، صنع كل هذه المعجزات .. فاية قمة تدعوه اليها بعد هذا، وهو في الاعالي ؟ واية منزلة يمكن ان يحث الخطى اليها، وقد خلف وراءه كل المواقع والمنازل ؟ ليس غير الجنة ما تتوق اليه نفسه اليوم .. فاليها اذن !! واسمعوه يقول، وهو يحكي بكلماته قصة المنحنى الذي اجتازه انسان، صنع على عين الله ورعايته، وسدد الاسلام خطاه .. اسمعوه يقول، وكانه يذكرنا بكل اولئك الاجداد العظام الذين سبقوه واعقبوه .. والذين اجتازوا – يحدوهم الشوق – منازل الاسلام والايمان ثم التقوى فالاحسان .. اسمعوه يقول (ان لي نفسا تواقة، لم تتق الى منزلة الا تاقت الى ما هي ارفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة، وانها اليوم قد تاقت الى الجنة !!)[٤١٤].

وما حدث بعد هذا معروف .. لقد مات عمر وهو ابن تسع وثلاثين سنة مخلّفاً وراءه المنحنى الشاق الطويل الذي بداه يوما وهو بعد في عز الشباب، ثم ها هي روحه العظيمة تغادره الى السماء وهو في عز الرجولة .. اننا هنا لا نكتب شعرا ولا ادبا ولا خيالا .. ولكن الانسان ينفعل بموقف اخيه الانسان، تشده دائما القمم العليا، وتعجبه ابدا القدوة العظيمة .. افليس من حقه، وهو يكتب عن شخصية كعمر بن عبد العزيز، هذه التي صنعت الكثير الكثير في مدى عجيب من الزمن، اليس من حقه ان يقول شيئا مقتطعا من شوقه ووجدانه ؟! وما قيمة التاريخ اذا لم تتغلغل في حناياه شرايين تتدفق بدم القلب والوجدان ؟! ان وصف حقائق التاريخ، ومنجزات الابطال، جامدة ميتة كشواهد القبور، لا تغني من التاريخ شيئا .. انها خطوة اولية ليس الا، ولكن ما يجب ان يعقبها هو ان يفجر المؤرخ فيها الحركة والحيوية والعنفوان كي تتحرك لتحكي هي بنفسها، شاخصة، وكيف اخذت مكانها على مسرح التاريخ. ان عملية التاريخ يجب الا تقف في مدى التسطيح، يجب ان تعبر هذه المرحلة الاولى الى مراحل اكثر عمقا وتركيزا، يجب ان يبحث المؤرخ دائما عن البعد الثالث، البعد الحقيقي الذي يصنع التاريخ ويبعث الابطال.

ونحن هنا، بعد هذا البحث الطويل، كنا نطمح الى ادراك هذا البعد في حياة عمر .. وقد عرفناه .. انه دائما يكمن في الداخل .. في ضمير الانسان ووجدانه، في معتقده ونظرته الى العالم والاشياء، بمعنى اخر في ايمانه. ولم يكن ايمان عمر الا ذلك الذي يريده الله من

---

(٤١٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٦١.

المتفوقين : توتر روحي دائم، كان يشده باستمرار الى اعلى فاعلى فاعلى، حتى بلغ به قمة المنحنى (المنزلة التي ليس بعدها منازلة) : خليفة المسلمين، وسلطان العالم، وصانع المعجزات والعائد بالامة الاسلامية، بعد خضم من الفتن والظلمات، الى المجرى الاصيل الذي نافح الرسول العظيم عليه السلام كي يشقه لمراكب المسلمين في رحلة حياتهم ووجودهم وارتباطهم بالله.

وها هو عمر الان يتوق الى الجنة .. وارادة الله هي التي اختارت لحظات العنفوان هذه لكي تهبه ما كان يتوق اليه .. تماما كما اختارت، لحظات العنفوان ذاتها، لكثير من شهداء الاسلام على مدار التاريخ ..

ويبقى بعد هذا شيء لم يستطع اي من الذين تناولوا شخصية عمر، قديما وحديثا، ان يعرفوه : هل مات مقتولا بايدي الذين خافوا على سلطانهم من محاولته استعادة النظام الشوري والاختيار .. ام ان موته جاء فجاة لكي تصعد الروح – التي ارهقها الكدح الطويل المركز، والجهاد على جبهتي الداخل والخارج – الى السماء وترتاح ؟! لقد استعرضنا فيما سبق من صفحات بعض القرائن التي ترجح الاحتمال الاول، الا ان هذا الترجيح لا يمكن ان يبلغ ابدا – بما هو مهيا الان على الاقل من نصوص – مرتبة اليقين !!

ونكتفي هنا باستعراض اهم الروايات في هذا المجال، ونترك لمن يشاء ان يقارن ويرجح عله يصل الى اليقين :

رواية تقول (مرض عمر من ليلته فمات من مرضه[٤١٥]) ورواية اخرى تقول : (كان مرض عمر في دير سمعان .. وكان شكوه عشرين يوما ..)[٤١٦] ورواية ثالثة تذكر ان محمد بن عبد الملك بن مروان سال فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر : ما ترين بدأ مرض عمر الذي مات فيه ؟ فأجابت : ارى جل ذلك او بدؤه الخوف !![٤١٧] ويحدثنا عبد الحميد بن سهيل، في رواية اخرى قائلا : (رأيت الطبيب خرج من عند عمر بن عبد العزيز فقلت : ارايت بوله اليوم ؟ فقال : ما ببوله من بأس الا الهم بامر الناس)!![٤١٨]. اما ابو زيد الدمشقي فيقول : (لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له بطبيب، فلما نظر اليه قال : الرجل – يعني عمر – قد سقي السم،

---

(٤١٥) الطبري : تاريخ ٦–٥٧٠.

(٤١٦) المصدر السابق ٦–٥٦٥–٥٦٦، ابن الجوزي : سيرة عمر ، ص ٢٧٦، ابن الاثير الكامل ٥–٥٨.

(٤١٧) ابن الجوزي ، ص ٢٧٦.

(٤١٨) المصدر السابق ، ص ٢٧٦.

ولا امن عليه الموت .. ثم سال عمر : هل احسست بذلك يا امير المؤمنين ؟ قال : نعم قد عرفت حين وقع في بطني .. ولم يلبث عمر اياما حتى مات)[٤١٩].

وقد اكد بعض المؤرخين المتاخرين كابن كثير[٤٢٠] والسيوطي[٤٢١] رواية السم واضاف السيوطي تفاصيل اخرى جاء فيها ان بني امية كانوا قد تبرموا من عمر بسبب تشدده معهم وانتزاع الكثير من املاكهم التي اغتصبوها، فسقوه السم مستغلين اهماله التحرز والحذر، ويضيف – كذلك – ان عمر دعا الغلام الذي دس له السم، وساله ما الذي حمله على ذلك ؟ فاجاب الغلام : الف دينار اعطيتها، وان اعتق !! فطالبه عمر بها وردها الى بيت المال وعفا عن الغلام[٤٢٢].

إن تأكيد هؤلاء المؤرخين المتاخرين على رواية السم دفع (فلهاوزن) الى القول (ان المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لا يذكرون هذه الرواية التي لا تنم الا عن الاسف من ان عمر المصلح قد اخترم وفارق الدنيا قبل الاوان، وان النظام الذي كان سائدا قبله عاد من جديد)[٤٢٣]. الا ان حكم (فلهاوزن) بهذا الصدد لا يؤخذ به بشكل جاد لان اثنين من المؤرخين المتقدمين اوردا رواية السم، واذا كان احدهما وهو اليعقوبي[٤٢٤] ممن لا يوثق بهم، فمن المؤكد ان ابن عبد الحكم[٤٢٥] هو من اكثر المؤرخين الذين تناولوا سيرة عمر وثوقا. واغلب الظن ان عدم اطلاع (فلهاوزن) على هذا المصدر هو الذي دفعه الى اصدار حكمه هذا.

***

لا علينا من هذا كله، فالامر سواء ما دام عمر قد مات، وتعالوا لنشهد معا اللحظات الاخيرة من حياه الراحل العظيم، والكلمات الاخيرة التي نطق بها حفيد ابن الخطاب .. تعرضها علينا زوجته البرة فاطمة :

قالت : اشتد عدم استقراره من الالم ليلة، فسهر وسهرنا معه، فلما اصبحنا امرت وصيفا له يقال له (مرثد) فقلت له : يا مرثد كن عند امير المؤمنين فان كانت له حاجة كنت قريبا منه. ثم انطلقنا، فضربنا برؤوسنا لطول سهرنا، فلما انفتح النهار، استيقظت فتوجهت اليه، فوجدت مرثدا خارجا من البيت نائما، فايقظته فقلت : يا مرثد ما اخرجك ؟ قال : هو اخرجني قائلا لي :

---

(٤١٩) ابن الجوزي ، ص ٢٧٧.

(٤٢٠) البداية والنهاية ٩–١٨٨، ٢٠٩.

(٤٢١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٦٣.

(٤٢٢) المصدر السابق ، ص ١٦٣.

(٤٢٣) الدولة العربية وسقوطها ، ص ٣٠٣.

(٤٢٤) تاريخ اليعقوبي ٢–٣٠٨.

(٤٢٥) انظر سيرة عمر ، ص ١١٦.

اخرج عني : فوالله اني لارى شيئا ما هو بانس ولا جان. فخرجت فسمعته يتلو هذه الاية (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض، ولا فسادا، والعاقبة للمتقين)[٤٢٦]. قال مرثد : فدخلت عليه فوجدته قد وجه نفسه (للقبلة)، واغمض عينيه، وانه ميت، رحمه الله[٤٢٧].

(٤٢٦) سورة القصص ، (آية ٨٣).

(٤٢٧) الطبري ٦-٧٧٦، انظر ابن عبد الحكم ص ١١٦-١١٧، وابن سعد : طبقات ٥-٣٠١.

معالم على الطريق

وبعد .. فما الذي علمتنا اياه رحلتنا هذه مع عمر بن عبد العزيز الخليفة المسؤول؟

ان هناك الكثير الكثير علمتنا اياه هذه الرحلة عبر حياة فذة مشحونة بالتوتر الروحي، والانجاز التاريخي، وارادة الابطال المؤمنين .. ولا يمكننا باسطر معدودات ان نستعرض هذه التعاليم .. ولكن اشارات سريعة يمكن ان تقال هنا، ويبقى المجال مفتوحا دائما للاقتباس من السفر العظيم الذي خطه الرباني المجاهد.

لقد علمتنا هذه الرحلة كيف يغدو (الاسلام) دافعا ملحا للنفوس التي تتوق الى الارتفاع دائما الى فوق، واجتياز المواقع والمنازل، صاعدة على المنحنى الذي ينتظر من اولئك الافذاذ الذين يحرّكهم الاسلام والايمان الى بلوغ منتهاه ..

وعلمتنا كيف يكون التغيير الداخلي، النفسي، منطلقا لتشكيل التاريخ وصياغة العالم. ذلك الذي سماه الرسول عليه السلام (الجهاد الاكبر) والذي اعتبره القرآن الكريم اساسا لقيام الثورات في حياة الامم والشعوب، (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم).

وعلمتنا ان كثيرين من الذين تحيطهم مظاهر الحياة الفارغة، التافهة، وتحاصرهم من الخارج مغريات من شتى الاصناف، وتشده عيونهم الالوان التي يعشي وهجها الابصار .. ان هؤلاء جميعا مستعدون، ما داموا يمتلكون خلفية صافية من الفطرة والادراك والفهم العميق للاشياء، لفك هذا الحصار والانطلاق – بحرية – الى عالم القيم والمثل العليا. وكان عمر بن عبد العزيز مثالا واضحا لانسان يمتلك الفطرة السليمة، وتحاصره المغريات من الخارج، فيحطم الحصار وينطلق صوب القمة[٤٢٨].

وعلمتنا ان الخوف والاشفاق الدائم من الموت والعقاب، والحياء العميق من المخالفة عن امر الله مهما صغرت ودقت، والحب الخالص لله الودود، والاعتقاد المتاصل برؤية الله المباشرة لحياة الانسان الداخلية في ابعد ابعادها، هذا الشعور هو الوسيلة التي يمكن بها – وحدها – تحويل ارادة التغيير الداخلي الى عمل وممارسة اخلاقية شديدة المراس. وتشتد حاجة ارادة التغيير هذه الى مزيد من تجربة الخوف والحب والاشفاق، كلما تعرض الانسان لمزيد من الترف والغنى والاغراء وامكانات الاستجابة لنداءات الشيطان. وهنا لابد من اقتباس عبارات قالها الندوي في هذا المجال : (ان عمر لم يكن فيه شيء من الغلو والاسراف او الزهد الاعجمي، فقد

---

(٤٢٨) انظر في هذا المجال تفاصيل حياة عمر في السنوات التي سبقت تولّيه الخلافة ومواقفه العظيمة خلال امرته على المدينة، انما لم نأت عليها في هذه الدراسة، رغبة في تخطي ألاساليب الدارجة في كتب التراجم، والتي التزمت معظم الاحيان اطاري الزمان والمكان.

كان بعيدا عن كل ذلك، انما هي الطبيعة الدينية، ونتيجة الايمان القوي والشعور بالمسؤولية، ومعرفة قيمة الحياة، واستحضار الآخرة، ونتيجة (الحب) الذي اذا ملك القلب، واستولى على الشعور ذابت الرغبات وتغيرت القيم والاقدار. ولولا هذه المؤاخذة الشديدة للنفس، ولولا هذا الحذر الشديد من ملاذ الحياة والتمتع بالمباحات، لما استطاع مثل عمر – وهو اكبر ملوك الارض في عصره، وهو في دمشق : عاصمة العالم المتمدن يومئذ – ان يحفظ نفسه من الاندفاع الى الترف، وان يضرب مثلا عليا لامرائه وعمال مملكته في الورع والزهادة والتحرز من الشبهات ولما استطاع ان يخفف من غلواء المدنية المترفة، ويحد من شدتها وشرتها)[٤٢٩].

ثم ان هذه الرحلة علمتنا كيف يكون (الايمان) دافعا حضاريا، فضلا عن كونه الاساس المبدئي، او المعامل، الذي يشد القيم المبعثرة والارادات مختلفة الاتجاه، واعمال الناس ومنجزاتهم الى هدف محدّد ويضع لها الاطارات التي تجعل من مجموع هذه القيم والاهداف والانجازات والاعمال وحدة حضارية متميزة، فهو فضلا عن هذا كله يقوم بدور المحرك، او الدافع الداخلي، الذي يدفع الانسان والجماعات، في نطاق الحضارة الواحدة، الى التقدم دوما بحضارتهم صوب افاق جديدة ومكاسب اكثر غنى، عن طريق استغلال امكانات الزمان والمكان الى اقصى مدى ممكن، ذلك ان ايمان الناس يعني رغبتهم في تقديم مزيد من الاعمال، والمسارعة في الخيرات، كي ينالوا ثواب الله، وينجوا من عقابه على التفريط بما منحهم من امكانات قبل فوات الاوان – تلك (المسارعة) التي ترد مرارا في القرآن كصفة ملازمة للمؤمنين والتي تعني ضرورة الاسراع في استغلال الامكانات المسخرة للانسان : من مال او سلطة، وزمان او مكان، وعلم او بطولة .. ولقد راينا هذا كله يبدو واضحا في مدى محدود قضاه عمر بن عبد العزيز في الخلافة، وراينا كيف انه كان يسارع لتحقيق مزيد من المنجزات الحضارية في شتى الميادين.

ولقد علمتنا هذه الرحلة – اخيرا وليس آخرا – اكثر الحقائق اهمية في تاريخ البشرية عموما، وتاريخ المسلمين خصوصا، تلك هي ان الانقلاب الذي احدثه عمر، في هذه الفترة القصيرة، في حياة الناس واهدافهم واهتماماتهم وفي ميادين العمل جميعا : سياسة وحربا، ادارة واجتماعا واقتصادا، وتربية وتثقيفا، والنجاح العظيم الذي حققه هذا الانقلاب في شتى ابعاده، ازاء ظروف صعبة معقدة، وركام عقود طويلة من السنين، انحرفت بكثير من المفاهيم والقيم والمبادىء الاسلامية، واحدثت فصلا وثنائية، بدرجة او اخرى بين عقيدة الاسلام وشريعته وبين الواقع الذي يعيشه الناس .. ان تمكن عمر من اعادة التوحد بين الشريعة والواقع، وربط اجهزة الدولة جميعا بالاطارات التي رسمها القرآن والسنة، وتوجيه حياة الناس ومعطياتهم وفق ما يريده الله ورسوله .. هذا النجاح يشير بوضوح الى امكان تنفيذ البرنامج الاسلامي، وتطبيق شرائع

---

(٤٢٩) رجال الفكر والدعوة ، ص ٣٣-٣٤.

الاسلام وعقائده على واقع الحياة، في اية فترة يمكن ان يتسلّم فيها السلطان رجال يمتلكون الذكاء والحصافة والمرونة، الى جانب الايمان العميق والتقوى الدائبة التي تشد اعينهم ابدا الى القيم العليا التي جاءوا ليحققوها والى المخاطر التي تهدر هذه القيم والاهداف .. التقوى التي تقضي على رغائبهم الخاصة ومطامحهم الشخصية، وتوجه طاقاتهم جميعا كي تصب في المحيط الواسع الذي يذيب كل العقبات، ويهدم كل السدود التي تسعى للوقوف ازاء العودة بالحياة والاحياء الى طريق الله .. تلك هي الحقيقة الكبرى التي علمتنا اياها الرحلة عبر حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، ذلك الذي قاد ثورة اسلامية ضد اوضاع شاذة في مختلف الجبهات، وتمكن بذكائه وحصافته ومرونته وايمانه وتقواه : من احراز النصر العظيم !!

فهرس بأهم المصادر

ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن الشيباني.

الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت–١٩٦٥م.

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر.

فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة–١٩٥٦–١٩٥٧م.

ابن الجوزي : جمال الدين ابو الفرج.

سيرة عمر بن عبدالعزيز، تحقيق محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، القاهرة–١٣٣١هـ.

ابن عبدالحكم : ابو محمد عبدالله.

سيرة عمر بن عبدالعزيز، تحقيق احمد عبيد، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين بيروت–١٩٦٧م.

ابن خياط : خليفة.

تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق اكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف الاشرف–١٩٦٧م.

الدينوري : ابو حنيفة احمد بن داؤد.

الاخبار الطوال، تصحيح فلاديمير جرجاس، ليدن، بريل–١٨٨٨م.

ابن سعد : محمد.

كتاب الطبقات الكبير، تحقيق ادوارد سخاو، ليدن، بريل–١٣٢٢هـ.

السيوطي : عبدالرحمن بن ابي بكر.

تاريخ الخلفاء، ادارة المطبعة المنيوية، القاهرة–١٣٥١هـ.

الطبري : محمد بن جرير.

تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة–١٩٦٠م.

ابن كثير : عمادالدين ابو الفدا اسماعيل.

البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة–١٣٥١–١٣٥٨هـ.

المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الاندلس، بيروت–١٩٦٥م.

اليعقوبي : محمد بن ابي يعقوب بن واضح.

تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت–١٩٦٠م.

ارنولد : سير توماس و.

الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة–١٩٥٧م.

ترتن : م. س.

اهل الذمة في الاسلام، ترجمة وتعليق : حسن حبشي، الطبعة الثانية، دار المعارف ، القاهرة–١٩٦٧م.

الدوري : عبدالعزيز.

مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، بيروت–١٩٦٩م.

دوزي : ر.

تاريخ مسلمي اسبانيا، الجزء الاول، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة–١٩٦٣م.

فلهاوزن : يوليوس.
تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر (الالف كتاب)، القاهرة –١٩٥٨م.

فلوتن : فان.
السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات، ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم ، مطبعة السعادة، القاهرة–١٩٣٤م.

الندوي : ابو الحسن علي.
رجال الفكر والدعوة في الاسلام، الطبعة الثانية، دار الفتح، دمشق–١٩٦٥.